رواية

تأليف ميغيل ديليبس
تقديم وترجمة ميادة مصطفى سامح

ظلال السرو وارفة

تأليف: ميغل دليبس

تقديم وترجمة (عن الإسبانية)
ميادة مصطفى سامح

رواية: ظلال السرو وارفة
تأليف: ميغل دليبس
ترجمة وتقديم عن اللغة الإسبانية: ميادة مصطفى سامح
لوحة الغلاف للفنان السوري علي الشيخ
اصدار: أدب فن للثقافة والنشر 2018
www.adabfan.com
adabfan@gmail.com

مقدمة

روايته التي كتبها في عقد الاربعينيات وصنفت ضمن أفضل مئة عمل أدبي أسباني جعلت منه روائيًا مميَّزا، ميغل دليبس هو أبن قشتالة* الذي حاول أن يصور في روايته كل الأجواء التقليدية لذلك السهل الممتد في قلب شبه جزيرة ايبريا- الإقليم نفسه الذي اتخذه سرفانتس مسرحا لبطله دون كيشوت- ، ولد ونشأ في مدينة (بلد الوليد-1920-2010) ، ولما رحل عنها بقيت ذاكرته وفية لها لاسيما في استخدامه للتعابير القشتالية وشجبه للعادات البرجوازية والتجاوزات الاجتماعية وطفولته اليتيمة التي عاشها وتطرق إلى جميع ألوان الحياة فيها من دون أن يفقد اتصاله بالعالم المتمدن، فجمع كل متناقضات مفردات البيئة القشتالية من خلال رؤية شاملة جمعها في إيقاع موحد لمعالجة الموضوعات بأسلوب أجاده دليبس بل أصبح سمة تميزت بها أعماله فيما بعد جعلته من أدباء أسبانيا المرموقين، إضافة لذلك لمسته الشخصية المجددة في المشهد الروائي فصنفت بداية لمرحلة جديدة في الأدب الأسباني. بالرغم من أنه درس الاقتصاد لكنه تفرغ للصحافة الأدب، وفي الوقت نفسه درس فن الكاريكاتير، ولربما دراسته لهذا الفن منحته المقدرة على رسم صور وملامح الشخصيات بنسق ونهج جديد هدفه أن يستكشف معاني الحياة العميقة التي أعتاد الناس على تداولها ببساطة من خلال اكتشاف الآخر بصياغة جديدة للبيئة التقليدية وبدون اللجوء إلى الرمزية أو ابتداع أماكن وهمية.

أختار في روايته التي حازت على جائزة نادال مدينة ابيلا الرومانية العريقة لتكون مسرحًا للأحداث، وقد توفق في تصوير هذه الأجواء القشتالية لغة وسردا، فأهتم بالتفاصيل الصغيرة لشخصيات عاجزة عن تجد طريقها في الحياة، بطلها الرئيسي بيدرو اليتيم، نشأ في عالم صارم التقاليد، لا مجال فيه للتحاور، في مدرسة داخلية بمدينة ابيلا المتمسكة

بثقافتها التقليدية، وخبر منذ طفولته حدث الموت المبكر والخشية من الحياة على حد سواء، فرمز اليها الكاتب بشجرة السرو التي ثمارها تبدو "*كما الجماجم الصغيرة*". وسعى لأن يجد مخرجًا للتحرر من القيود الذهنية التي تفرضها التنشئة الأولى للفرد ومجادلة المعاناة الحياتية اليومية برغم بساطتها، حتى أن دليبس أعترف أنه حاول بالنقد الذاتي أن يتجاوز تلك الأجواء ولو بمخيلته، وبأن مرور الزمن كفيل لأن يجعل الأنسان يستغني عن الكثير من عاداته أو حتى مبادئه.

فسنوات طفولة بيدرو كانت مضطربة حزينة تشوبها العديد من التساؤلات في أجواء داكنة برغم سلاستها إلا أنها زرعت في نفسه الخوف من الموت أو التشاؤم من الحياة من جراء تجربة صديقه الوحيد الفريدو، فكانت نشأته النمطية تتناسب هو والمدينة المنغلقة، بأسوارها وحجارتها العتيقة وأبراجها وأشجارها الباسقة وصمتها وعزلتها، فالآثار نحافظ عليها كما هي وحين يمضي عليها الزمن تتباعد المسافة بينها وبين الحاضر حتى أن بيدرو ظن أن عمه أراد التخلص من مسؤوليته فأتى به إلى أبيلا.

- شبه جزيرة ايبريا المعروفة اليوم باسم أسبانيا والبرتغال تتكون من أقاليم عديدة لكل منها لغتها وثقافتها، وهي: الأندلس، قشتاله، الباسك، كاتالونيا، كاليثيا، نابارا، استرامادورا. لكل منها ثقافتها ولغتها لكن الثقل الحضاري والثقافي يكمن في الاندلس وقشتاله التي لغتها من أصل لاتيني.

أما في الجزء الثاني فالسرد لم يعد يتسم بخصوصية معايير الشخصية التقليدية بل حاول الكاتب أن يقلب الكثير من المفاهيم وبخاصة الدينية التي كانت تأسر حياة بيدرو. كأن الرواية منقسمة إلى روايتين لكل منها عالمها الخاص فالجزء الأول نقرأ فيها أجواء محافظة كأنما الكاتب تعمد لأن يختار مدينة أبيلا الرومانية التاريخية التي يطوقها سورها الأثري وبداخلها بيوتها التقليدية والاثرية في آن و لامجال لتغيرها لان في كل حجارة يكمن تاريخ طويل لقشتالة بشكل خاص ولإسبانيا عمومًا، أجواء توافق تربية وتعليم بيدرو الطفل اليتيم، أما في الجزء الثاني فقد أختلف الأمر، لقد أختار دليبس مدينة برشلونة المنبسطة على ساحل المتوسط و التي يستقبل ميناؤها ناسا من ثقافات متعددة ولغات متباينة، بل حتى دراسة بيدرو قد تغيرت بعد أن اختار أن يكون قبطانا برغم معارضة أستاذه و عمه الذي وجد فيه أنه"*لا يزال مراهقًا لم ينضج بعد*" لكنه أصر على الانفلات من هذه الحلقة المطبقة بالرغم من أن تجربته وحياته الجديدة سببت له العديد من الانكسارات ، وبقي موضوع الموت هو المحرك الأساسي لربما لأن دليبس عاصر الحرب الأهلية الإسبانية في بداية نشأته وفقد والده ووالدته وعاش يتيما، فبقي هذا الهاجس يلاحقه طوال حياته، لكن مما لا شك فيه أن همه الإنساني تجلى في جميع رواياته، فأجاد تصوير ملامح النفس البشرية ومعضلاتها وانتكاساتها وتغيراتها ولربما البحث عن السعادة التي ينشدها كل أنسان، والانعتاق من قيود تكبله والتي ربما هي قيود الكاتب نفسها.

لقد دمج كل هذه التساؤلات والهموم الوجودية بلغة قشتالية ميزته عن أقرانه، وأنشغل بتأثير المحيط الاجتماعي محاولًا أن يعبر كل العوائق التي تحد من مسيرة الأنسان، فالبرغم من بساطة السرد إلا انه يحمل في طياته عمقا إنسانيًا يتجاوز كل الحدود التقليدية ومعالجة لمفاهيم تربوية مفروضة.

لقد كانت (ظلال السرو وارفة -1947) بداية حياته الأدبية، التي برز بها كأديب متميز وحاز بعد عام على جائزة (نادال) والتي تعد أهم جائزة للرواية الإسبانية.

أنضم خلال الحرب الاهلية إلى المعارضة وقاتل ضد النظام الفاشي للجنرال فرانكو، ولهذا السبب منعت أعماله بخاصة روايته التالية (مازال النهار مشرقا-1949) ثم توالت بعدها أعماله. نشر روايته الثالثة (الطريق) عام 1950 والتي تناول فيها قصة فتى شاب يحاول أن يجد طريقه في الحياة بالتجوال بحثا عن مستقبله، وقد تطرق بها إلى صعاب الحياة الاجتماعية بعد انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية، ومن رواياته المميزة (خمس ساعات مع ماريو) وهي حوار ذاتي لامرأة تجتر ذكرياتها القديمة والتي تعد إحدى تحف الرواية الأسبانية. حاز على 17 جائزة منها جائزة سرفانتس للأدب الأسباني والتي تعد من ارفع الجوائز الأدبية إضافة إلى تكريمه في العديد من المناسبات.

ميادة مصطفى سامح

الفصل الأول

لرب صديق عدو لك
(حكمة عربية)

ولدت في مدينة أبيلا، المدينة القديمة المحاطة بالأسوار، أظن أن للمدينة صفة صوفية منحتها إياها العزلة والصمت الذي توغل في روحي منذ ولادتي إضافة لظروف أخرى، أظن بأن المناخ الهادئ المنعزل لهذه المدينة قد كون إلى حد بعيد بناء شخصيتي. أتذكر سنوات طفولتي الأولى. لربما حينذاك بدأت أعي الحياة، كان عمري عشرة أعوام، في دار أستاذي دون ماتيو ليسمس. أتذكرها جيدا وكأنني أرى اليوم الذي فيه قدمني أستاذي... كان فصل الخريف، حيث بدأت الأشجار تصد هجوم هذا الفصل، فتناثرت الأوراق الصفر التي حملتها الريح على الطريق تدور بدوامة لترتفع عن الأرض، سلكنا طريقنا عن طريق آخر عربة في المدينة، ما زلت أحتفظ بذاكرتي بتفاصيل رحلتي الأولى، كانت حوافر الخيل تطرق حجارة الطريق بإيقاع منتظم، في حين عجلات العربة ثابتة بلا نشاب تتهادى وتصر فيصاب عمي بخيبة أملوبفرح لا يوصف من قبلي .

كنت أجهل الشوارع التي طرقناها لنبلغ الساحة الصغيرة الهادئة التي يسكن فيها دون ماتيو، كانت ساحة مستطيلة يتوسطها مرتفع صغير نبلغه بثلاث درجات حجرية. في ذلك المرتفع تنمو أشجار عملاقة تحتها نافورة ماء صاف، تصدر منها أصوات وأصداء غريبة...

من الجهة الأخرى للساحة، عند أطرافها يوجد بيت قديم وفخم، يبدو عليه نقش لتمثال، يروي قصة رجال من الزمن البعيد، رجال وزمن قد ولوا، لكن قصتهم ما زالت راسخة على تلك الحجارة التي مضى عليها

العديد من السنين. لما ترجلنا من العربة تملكتني رغبة لأن أكون بحق حوذي العربة. فالحوذي كان يتمتع بمظهر لائق زاه وهو في مقعده الأمامي، يرتدي جزمة قصيرة لامعة ويرتدي قماطًا أبيض (بنطالًا ضيقا) لكي يحمي ساقيه النحيلتين البشعتين. لكن عمي لم يبد تجاهه الاحترام الذي أبديته نحوه، ودعه وعاجلا وتهيأنا لما هو آت.
قبل أي شيء-قال لي عمي عندما مكثنا لمفردنا-لعلك تحتاج أن تعلم أن أباك أسمه خايمه وأمك اسمها ماريا-(لم يكن عندي فكرة طيلة حياتي عن والدي. من الآن فصاعدًا سيرد اسمهما في الوثائق، هذا ما ذكره ثم أضاف بين قوسين "متوفيين" لكن في الواقع ما من أحد أكد لي هذه النتيجة) ثم قام عمي بتحويل نصائحه إلى جهة مغايرة-: كن رسميًا، حاول أن تمنح الرجل انطباعًا جيدا عنك، لا تورط نفسك أو تحشر أنفك بما لا يخصك. وأخيرًا، تصرف كرجل. وبعد أن فرغ من كلامه اقتربنا من البيت، الذي واجهته لن تزيدك إلا إحباطًا. (يحتوي على شقتين فقط، وفي الطابق الأرضي، شقة لها نافذتان منخفضتان عوضا عن الشرفة. أما الجانب الأيسر يحتوي على صف من الحفر مساحته أكثر اتساعًا من الجانب الأيمن، ذكرني عدم تناسقه بوجه شخص أعور العين.) بقي عمي مشوشًا قليلًا حتى دخلنا الدار، كل ما فعله أنه أخذ ينظر ويتفحص بعناية الأبواب جميعها التي تخطيناها، وإلى هنا بدا لي أنه يفقد السيطرة على الوضع، فصعد إلى الطابق الثاني ليسأل فقط إن كان السيد ماتيو ليسمس يسكن هنا. أفجابوه أن السيد ليسمس يسكن في الطابق الأسفل، فاضطررنا أن نعود إلى الطريق راجلين من دون أن ننبس ببنت شفة. (فكرت مع نفسي، بشكل يخالف طريقة عمي، أن كان يجهل شقة الرجل الذي نبحث عنه، كان من الأفضل أن نسأل في الطابق الأسفل بدل من أن نصعد للأعلى، ثم نعود لننزل بعدها. لكنني لم أقل له شيئا، لأنه أمر فيه مشقة علي، لربما قد يزعجه بأن يجري شاب تعديلات على قراراته.)

وقبل أن يطرق عمي الباب قام بتعديل ربطة عنقي ونبهني مرة أخرى لضرورة التصرف بشكل صحيح في حضور السيد ماتيو وبعدها أمسك بمقبض الباب بيده فأرتعد البيت القديم من جرّاء
صدى ضربتين قويتين، كنت مستمتعا بالنظر إلى السلالم الضيقة المغبرة الذي انتزع منها قدمي، انفتح الباب وأخذ أستاذي بيدي ودخلنا الدار، فتحت لنا الباب أمرأه مجهولة، مكثت واقفة حينما رأتنا ندخل الدار بثبات، وقد أمسكت مئزرها بأصابعها الأربعة، وبعد برهة بادرت بالكلام:
-عمن تسألان حضرتكما؟
(أتذكر متعة تتويجي بشرف الاستقبال، الذي حتى اللحظة لم يخاطبني أحد مطلقًا بكلمة "حضرتك"، وكذلك حقيقة تلك المراءة التي كرمتني كما أستاذي الذي استقبلني بود، حينذاك لم أستغرب لو قالت المراءة:" عمن تسألان حضرتك والولد؟ بدلا من:" عمن تسألان حضرتكما" لأنني اعتبرت أن هذه المعاملة نصر كبير لي جعل لي خصوصية واستقلالية.)
أجاب عمي بأننا نبحث عن السيد ليسمس، قالت لنا السيدة من دون أن ترسم أي تعابير على وجهها ومن دون أن تفلت أناملها من المئزر بأن "زوجها" خرج لتوه، لكنه لن يتأخر عن العودة لأنه ينتظر زيارتنا هذا المساء. ولما سمع أستاذي تقول "زوجي" سلم عليها بأدب، متمنيًا لها صحة جيدة.
أجابته بلا انفعال بأنها تتمنى لنا الشيء نفسه، وفي اللحظة نفسها أشارت لنا لأن ندخل ونجلس. دخلنا صالة صغيرة مرتبة وأنيقة، ولما جلسنا تركتنا السيدة بمفردنا، بعد أن استأذنت منا، حينها أخذت أتفحص بإمعان كل ما يحيط بي، فالأثاث يشبه كثيرًا أثاث صالة بيت عمي، حيث تبرز المقاعد في كلاهما، لكن في هذه الصالة توجد كنبة صغيرة مغلفة بالستان الأحمر وكذلك المقاعد والكراسي، وفوق الكنبة علقت مرايا أطارها ذهبي اللون، مزين بنقوش محفورة، وفي إحدى الأركان شمعدان أسود يستند على دعامة غليظة وأنتيكة، فوقها لوح مرمر يستند

عليه صندوق غريب ومزهرية بارزة فيها زهور من قماش أحمر اللون تناثرت عليه نقاط كأنها الذباب أما الجدران الفاصلة والسقف مزين بورق جدران منقوش برسوم نباتية ألوانها زاهية، وفي الركن المقابل للشمعدان يوجد بيانو أسود اللون غطاؤه مفتوح، يكشف عن مفاتيح بيض كالأسنان، كانت مفرطة الزينة، وبجانب البيانو توجد مكتبة فيها العديد من مجلد (عصر التنوير في إسبانيا وأمريكا).

جلس عمي على إحدى المقاعد ووضع ساقا فوق الأخرى، في حين جلست أنا على الكنبة قريبًا منه، أردت أن أنفرد بشخصيتي لبعض من الوقت، لم نتكلم شيئا لمدةعشرة دقائق حتى عاد دون ماتيو، لما دخل نهض عمي وأنا قلدته من دون أن أجيد ذلك بل بشكل فوضوي، أبتسم لعمي ولما صافحه داعب قمة رأسي بمودة باردة، وبعدها جلسنا نحن الثلاثة بينما شرع دون ماتيو وعمي في حوار طويل حول التعليم وطريق المستقبل وكلفة الدراسة، دار الحديث حول الخيارين الأولين أظن أنني لاحظت أن دون مايتو يتحدث عنهما بتراخ وفتور وكأنه ينجز التزامًا مشتركًا،

أما حينما تناولا موضوع كلفة الدراسة، تحفزت عينيه المطفأتين لتتوهج جشعا، فاستنتجت من ذلك أن دون ماتيو لا تعوزه موارد العيش-لديه ما يكفيه من موارد الرزق، والشيء الوحيد الذي خرجت به متيقنًا من تلك الساعة الطويلة أن عمي يريد أن يتنصل من تعليمي وأن دون ماتيو يتولى مسؤوليتي حتى أكمل شهادة البكالوريوس و آخر شيء استنتجته من لعبة الكلمات تلك أنني سأمكث تحت وصاية دون ماتيو حتى أبلغ السن القانوني وأنضج عقليًا وجسديًا، أي على مدى ستة أعوام في بيت السيد ليسمس، هذه الاستنتاجات الأولية كانت لمصلحة لعمي فليكس لكنها لم ترق لمعلمي ولا لي، في نهاية المطاف هي لمصلحة دون ماتيو ومزعجة لعمي، في حين أنا كنت غير مبال بها، فالسيد ليسمس يستطيع أن يسحب من المصرف مبلغ800 ريال شهريًا تحت عنوان أجور دراسة وكلفة دعم، في حين عمي برر عدم تكفله برعايتي متذرع بصعوبات منصبه الجديد كمندوب تجاري.

وبعد معالجة هذه التناقضات نهض عمي مستغلًا بعض اللحظات قبل مغادرته مباشرة فمدح وأثنى على قدراتي البدنية والروحية والعقلية، أمر لم أسمع شفتيه تنطق بها حتى هذه اللحظة. فضحك دون ماتيو من دهشتي، مؤكدًا أنه لاحظ على محياي تلك المواهب التي فرغ عمي فليكس للتو بمنحي إياها بشكل اعتباطي، كانت مواهب مزيفة وبعضها لمجرد التباهي بها، على الرغْم صغر عمري، كان واضحًا أن عمي تحدوه رغبة ملحة بالتخلص مني ومن الأعباء التي يتحملها معلمي من أجور باهظه وما سيتحمل من مصاريف التربية من تغذية جسدية وفكرية، بعد قليل صافح عمي ذلك الرجل والذي بدوره أمسك بيد عمي بحرارة متكلفة لشخصين تعرفا على بعضهما للتو، مستغلًا ذلك الوداع الرسمي ليداعبني مجددًا من قمة رأسي بحرارة المزارع عندما يعطي العلف للبقرة الحلوب، وما بقي هو أن أتأقلم مع الحياة الحقيقية لدون ماتيو في مساء اليوم التالي، في الأربعة والعشرين ساعة التالية عشت حياة مليئة بالتوقعات، لم تتوقع مشاعري المنفعلة أنها ستكون أفضل الأيام، وكل ما شغلني هو مصيري القادم، بعد تناول الطعام أمرني عمي أن أرتب أشيائي برفقة الينا، خادمة مسنة، وهكذا كان وفي الساعة الثامنة غادرت البيت بالعربة نفسها التي تجرها الخيل كما في مساء أمسِ، ولما ترجلت عند باب دون ماتيو اعتراني شعور بالوحدة لم يحدث لي من قبل، شعرت بأن ما من أحد في العالم يمكن أن يهمه أمري، كنت مجرد عبء يمكن أن يقبله الآخرون مقابل النقود فقط، عندما طرقت باب السيد ليسمس ارتجفت يدي، لن أنسى أنني بالخطوة التي تخطيت بها تلك العتبة كنت قد افتتحت مرحلة حاسمة في حياتي، خرج لاستقبالي دون ماتيو وزوجته، استقبلني بابتسامة وسألني عن عمي، أما هي رحبت بي ببرود دون أن تفلت زوايا المئزر وكأنها لم تغادر هذا الوضع منذ أن تركناها في الليلة المنصرمة، لم يستقبلوني في صالة البيانو كما كنت أتوقع. (تيقنت لاحقا أنها أحدى الغرف الذي لا يدخلها أحد) اخذوني إلى غرفة صغيرة المساحة، تقع مقابل الصالة الصغيرة فيها نافذة صغيرة أيضا تطل على الباحة، بجانب النافذة يوجد

سرير ومدفأة فحمية بالرغم من أننا في أواخر شهر أيلول، وبجانب الباب خزان صفت فيه بشكل مرتب كؤوس وأكواب تبرق، أما بقية الأثاث فيتكون من كراسي خشبية بلا مساند وأريكة خشبية ، كانت كلها تحيط بالسرير، إضافة إلى ذلك ثمة شيء ممتع عند إحدى أركان الغرفة، طاولة ثلاثية القوائم فوقها حوض أسماك من الزجاج فيه سمكتان متوهجتان اللون ، نظرت أليهما بحنان لأنهما بدتا لي سجينتين أيضا مثلي بين يدي ذلك الرجل القزم الذي يسمى كما تلامذة السيد المسيح، اشد ما اذهلني هو أن أرى طاولة العشاء قد جهزت بالرغم من أنها كانت الساعة الثامنة مساء، كأنني دخلت حياة تسير بانتظام وأنا أمقتها، جلست بعدها إلى الطاولة مستاء بإشارة من أستاذي، انتظرت بفارغ الصبر أن يأتي رفاقي إلى الطاولة، لكن فضولي نبهني أنه لن يأتي أحد آخر، كان هنالك أربعة أطباق، وحسب علمي أن من سيتناول العشاء ثلاثة، أي أستاذي وطفلة يبلغ عمرها ثلاثة أعوام، فهمت كل شيء، وكأن روحي هوت بين قدمي، كانت أبنة الزوجين، وهو شيء كنت أتمناه، وضعوها على المقعد إلى جانبي، بعد أن وضعوا تحتها ثلاث وسائد، قدم لي دون ماتيو الطفلة، مشيرًا إليها بأصبعه، إصبع ملطخ بالطباشير -قائلًا" هذه الطفلة التي وعد والدها بجلبها". ابتسمت الطفلة وقد تهدل خداها، ولم تكف عن ضربي على ذراعي طيلة العشاء بشوكة مستعملة وهي تردد" ننه ننه" مئات المرات، لم أكن أملك سوى أن أبتسم لها رغم أن سلوكها لم يرق لي كثيرًا، في تلك الليلة فهمت أشياء كثيرة، فزوجة دون ماتيو أسمها غريغوريا ولم تكن تحب الكلام بل لم تكن حتى الحضن الدافئ للعائلة، أما دون ماتيو فيحمل حقيبة الأستاذ، مهنة يجيد استثمارها بشكل جيد، إضافة لذلك كان أستاذنا نموذجًا للتعليمات الثابتة والراسخة وضيق الآفاق، وأول توجيهاته التعليمية التي أملاها عليّ في تلك الليلة حين وصولي.

-هل تعرف القراءة يا بيدرو؟ - سألني أولا

-نعم سيدي.

-هل تعرف الكتابة؟
-نعم سيدي
-هل تعرف الجمع؟
-نعم سيدي
-هل تعرف الطرح؟
-نعم سيدي.
-هل تعرف الضرب؟
-نعم سيدي.
هل تعرف القسمة؟
-نعم سيدي.
-هل تعرف معنى القوة؟
-لا سيدي.
ثم أبتسم وأردف قائلًا:
-أنظر يا ولدي؟ من هذه الطريقة البسيطة أستطيع أن أتكهن مدى معلوماتك. (تجرأت لأن أجيبه أنه كان بوسعه أن يعرف كل ذلك من دون يسيل لعابه في أسئلة مباشرة، وسألني ذات مرة أن كنت أعرف قواعد الحساب الأربع، لقد بدت طريقة دون ماتيو التعليمية في هذه الحالة صورية تمامًا، كان عدوا للمفاهيم العامة والأفكار المجردة، يريد معرفة خاصة ومحددة، كغصن من دون أن نعلم منبت جذعه.) قبل أن أخلد للنوم، كنت اشعر براحة تلك الليلة، تعرفت على *فاني* كلبة كما الفأر وسلوكها كقطة، كانت تتمحك بنا و تحب الموقد، تعوي لتطالب بفتات اللحم، ومع ذلك حينما تعبر عن مودتها كانت كلبتة من خطمها حتى ذنبها، رأيت أن كل من في البيت يحب هذا الحيوان أكثر مما يحب بعضهما بعضا ظاهريا، أنا أيضا استقبلتها بمودة، في الأقل كانت تبعث على أشرافة في العيش، وهو أمر لم يكن يبدو على بقية أهل الدار، لما اصطحبني دون ماتيو إلى حجرتي بعد قليل وودعني متمنيًا لي ليلة هانئة، عدت لأعاني من ضيق الوحدة التي تنتابي في هذه الساعات، وجدت غرفتي باردة ايله للسقوط، يلفها جو من الحزن، السرير وخزان

الملابس والطاولة حتى أنا، كنت ارتجف لما أنزع عني ملابسي، على الرغْم أن البرد لم يستل سكاكينه بعد، تملكني انطباع بأن كل شيء كان رطبا من الكآبة، حتى الجدران وسقف الغرفة، لم يحاول أحد أن يأخذ هذه الغرفة بأحضانه، كل شيء فيها لاسع الطعم ويخرمش، كما تقرص وتخربش الأشياء العملية، لا توجد ستارة ولا حصيرة ولا فراش ولا ضياء كأنها قطعة قماش طنانة.

كان كل شيء هنا جامدًا كما الحياة ونافعًا كما حب الفلوس وكما الناس البخلاء، استأت لأنني مجبر لأن أعيش هذه الحياة المتدنية المادية بضعة أعوام، ولما ينطفئ الضياء تفيض عيوني بالدموع-تمكث هواجس أفكاري تدور قريبة مني في البيت نفسه، ربما من قبيل المصادفة أن يستوقفه الكلب فاني والسمكتين الحمراوين اللتين تسبحان في الحوض الأخضر.

الفصل الثاني

كان دون ماتيو يدير من داره أكاديمية للتعليم الثانوي، برفقة أستاذ آخر، يعلم دروس الأدب، كانت الصفوف مقسمة إلى ثلاث غرف، و عدد الطلبة الذين ينتمون إليها عددهم قليل، حينما نستيقظ في التاسعة صباحًا كنا نشغل الصفوف، أتذكر أن الطلبة الذين يتهيأون للانضمام للصف رغم أن عددهم ثلاثة فقط لكننا نشكل الصف الأكثر عددا، ولم أكن أعرف أيضا كلما ابتدأنا عملا ما كان يضع فيه أقصى جهده، كان دون ماتيو والأستاذ الآخر يوليان أهمية كبيرة لتربيتنا، فنقضي أغلب الصباح في الإملاء والتحليل اللغوي وحسابات الكسور العشرية، في حين مساء ننشغل بحل التمارين التي بقيت معلقة في منتصف النهار.

أمضيت الشهور الأولى شارد الذهن في الصف، لكن بعد أن تغلبت على صعوبات ورتابة الأسابيع الأولى، بدت لي الأشياء لطيفة، وجدت فيها منبعًا لا ينضب من اللهو، لما أنهض مترجلًا من الجانب الأيسر كنت أستثقل القيام بهذه المهمة.

لما تحين الساعة الثانية يغادر كل رفاقي إلى دورهم وأذهب أنا إلى غرفتي العملية والجافة التي خصصوها لي منذ الأيام الأولى. كانت السيدة غريغوريا توقد لي مدفأة الفحم يوميًا، وهناك أختلي بنفسي فوق سريري، وأبدا بإنجاز واجباتي حتى ينادوني للطعام، كانت مأدبة الطعام دوما الشيء نفسه، أقصد جو المائدة وليس نوع الأكل، برغم أنه في الحقيقة لم يكن منوعًا، كانت السيدة غريغوريا تجلس أمامي منتصبة كالبندقية أو كتمثال صلب، ضلوعه فقط ممتلئة.

أما مارتا الصغيرة كانت تجلس إلى يساري يحد شفتيها دوما خطان يبتدئان من منخري أنفها وينتهيان عند فمها. (كان شكلها ووساختها تذكراني بالأثر الذي التي ترسمه عربة ثقيلة تسير على الجليد بعجلاتها الملتوية.) يشغل المقعد رب العائلة والأكاديمية مستديرا بظهره إلى النافذة وبالجهة المعاكسة لمقصِف الطعام حيث رفوف صفت عليها قطع

من البورسلين الرخيص: دون ماتيو ليسمس. بإنسانيته المتواضعة وحركته البطيئة بالنسبة للجميع، يتحرك مضطربًا ومسرعًا عندما يحين وقت الطعام، لكنه لا يأكل بجشع، بل على العكس كان يقتصد دوما بطعامه والهوس الذي يبديه في التهامه الطعام يأتي من فكرة فطرية يؤمن بها هي يجب ألا نهدر الوقت في شيء أهميته بسيطة كتناول الطعام. وطيلة تناول وجبة الطعام لا أحد يتحدث كثيرًا، أظن أن الحديث في هذا البيت قليل طيلة اليوم، لكن ليس ليلا لان زوجة الأستاذ الباردة وفرخها صغير السن كانا يحلمان بصوت عال، في الأيام الأولى كانت صيحاتها تفزعني، كان الزوجان ينامان بغرفة مجاورة لغرفتي وما يثيرانه من ضوضاء تبلغ الغرف الأخرى المجاورة بكل تفاصيلها البسيطة، أن كان من الضروري أن أشرحه بشكل ثابت وواضح، يجب أن أستعرض نظريًا وضعا فيزيائيًا.

لقد حلمت بكوابيس رهيبة لما رقدت في سريري تلك الليلة، فاستيقظت في الساعة الثالثة على صرخة مفاجئة، أصغيت إليها وتكهنت أنها من الغرفة المجاورة.

كانت مارتينا أبنة دون ماتيو، تدمدم بكلمات غير مفهومة تكرر بإلحاح مزعج "نينه، نينه" كما كانت تفعل حين العشاء.

تأخرت بالنوم بعد هذا الاكتشاف، في حين انتبهت أن ثرثرة الطفلة يمكن أن نطلق عليها " صفة وراثية سيئة" بالولادة. وبعد صرخات الطفلة بدأت السيدة غريغوريا تتكلم، وما تقوله ليس مجرد كلمات أو أصوات متشابكة بل كخطابة طويلة بلا نهاية وكأنها تلقي محاضرة بصوت خافت. انتبهت أنها تولي أهمية للمطبخ، لكنني بعدها لم اتفاجأ لأنها تقضي، من دون مبالغة، كل عمرها من أجله. كانت كلماتها منمقة في البداية ظننت أنها تتكلم مع أستاذى، لكنني نبذت الفكرة حينما لم أسمع جوابه أو أسمعه، بالمقابل خطبة زوجته تطول من دون أن تغضبه، لأنه لم يكن متعقلًا أو لا يجد جوابًا. تخيلت في غمرة سهادي أنني لا

أستطيع أن أنام في بيت يضج بهذه الضوضاء الليلية، لكنني اقتنعت بعدها أن هذه التداخلات بين الأم والبنت تنفع لهديل الطفل أكثر من أي شيء عندما يشعرون بالاسترخاء.
لاحظت شيئا غريبًا عندما تحين وجبات الطعام الصامتة تتحفز غريزة الكلبة فاني فرحا، لما نتناول الطبق الأول ودوما يتكون من صلصة البطاطا أو الحساء، لا تدور حول الطاولة، لأن الحيوان يعرف أن هذه الأطعمة السائلة لا يمكن أن نناولها له بأيدينا ويتخلى عن استجداء المداعبات لان ذلك مستحيل، لكن عندما يحين الطعام الدسم كاللحم والسمك، تأتي إلى الطاولة، ترفع جسدها لتضع قوائمها الأمامية في أحضاننا، فيلاطفها أحدهم ثم يلاطفها الآخر، في الأيام الأولى لم اتجرأ أن اعطيها شيئا، ترددت في الاستجابة لتوسلاتها أو أن أتصرف بسلوك حضاري وأناولها قطع اللحم بيدي، لكن الكلبة أصرت وأخذت تضرب ساعدي بمخالبها، على الرغْم أن بقية ندمائي على المائدة كانوا يناولونها الهدايا باستمرار، لم أجسر على محادثتها بثقة لأنني اعتبرته أمرا مبالغًا به، لكن ملامحي الرقيقة لم تنل رضا السيدة غريغوريا كما ينبغي، بالتأكيد رأتني شخصا نهما حينما قالت لي:
- ليس لديك شيء لتعطيه لفاني؟
ارتبكت لأن في قرارة نفسي لم أكن أريد أن أجعل الآخرين يتقززون وأبقى فتى مثاليًا عندما ابتلعت، بحركة مقززة، قطعة لحم بكل ما فيها من زوائد، حينذاك بدأت أولي اهتمامًا لفاني كما ينبغي وأحيانا أقتسم معها حصتي في الأكل من دون أن أثير استياء السيدة غريغوريا، تآلفت الكلبة معي بسرعة وبعد أسبوعين أخذت تهرع نحوي لتستقبلني صباحًا عند باب غرفتي. أتذكر أيضا موقف دون ماتيو المثير في ساعات الطعام، كان يفضل مضغ الصمت بدلا من الأطعمة الشهية التي تقدم، في حين كنت أنتظر ما بين تقديم طبق وأخر كان يقسم الخبز بسكينته إلى قطع، بينما يستمر بهذه العميلة وهو ساهم النظرات وشارد، كأنه لا يدرك ما يفعله، من المؤكد كان يفكر ويخرج بنتائج تجرِبة تاريخية منذ لحظات كان يقصها علينا. لما ننتهي من الطعام يلتقط بيديه-يد سوداء

صغيرة مشعرة-قطع لب الخبز الأبيض، فتبدو متوهجة اللون لأنها تناقض لون جلده، ويقترب من حوض السمك الأخضر ويرميها فيه، واحدة تلو الأخرى بشكل شحيح لتقتسم السمكتان ما يرميه لها بأنصاف، بعدها اقترب أنا ومارتينا إلى إحدى جوانب حوض السمك، فتفتح الأسماك عيونها المدورة حينما تبتلع طعامها اليومي. كان منظرَا يوميًا نشارك كلنا به عدا السيدة غريغوريا حتى فاني واستفانيا، سيدة عجوز تكاد تكون قريبتهم وخادمة ترعى كل من في البيت.
وكذلك فاني أيضا تفتح عينيها المدورتين كلما سقطت فتات خبز في حوض الأسماك، بالرغْم أنني أجد أن اهتمامها كان بسبب غيرتها وليس بسبب فضولها. ولما تنتهي هذه العملية الصغيرة، ننسحب جميعنا بهدوء لأن السيدة غريغوريا ترقد على أريكة في الصالة المفروشة على طريقة العهد الايزابيلي وبعدها تبدأ بمداعبة أحلامها بملاحظات دقيقة وفضولية تهرب من الصندوق الموسيقى السحري الموجود فوق الشمعدان، كل مساء تستمع إلى الشيء نفسه دون ملل، حتى أنني بت مقتنعًا لو أن الصندوق الموسيقي أصدر ذات يوم لحنا مختلفًا، فالسيدة غريغوريا لن تستطيع ان تغفو، أما السيد ليسمس ومارتينا فهما ينامان في فراشهما، كانت مارتينا تزعم أنها لا ترقد عصرا لكن ذات مرة قصدت المطبخ لأبري قلمي فوجدتها تغط بنومها وهي تجلس على الكرسي راقدة، وكذلك فاني ترقد فوق السطح الدافئ للمدفأة.
(كأن يوجد بينها وبين الكلبة تفاهم مشترك، باستثناء الاسم) لم أفصح عن هذا الاكتشاف كيلا أجرح كبريائها كامرأة تتفاخر أنها لا ترقد بعد الطعام، تركتها دون أن أوقظها وقد تركت متعمدًا فضلات بري قلمي إلى جانبها لكي تعرف حينما تستيقظ دون سابق إنذار أن أحدا ما داهمها في قيلولتها المتخفية. للسيد ماتيو هوايات أخرى بالإضافة للتي ذكرتها، (طالما أوليت اهتمامًا للهوايات، لأنني من خلالها أقيم الشخصية) فالسيد ليسمس يظن أن معلومات الطلاب هي أوسع مما هي عليه في الحقيقة، فيستخدم نوع من العبارات يدمجها بمحادثته من دون أن يعرف أن كانت مؤاتيه أم لا، وكلما يتحدث عن موضوع يضعني في متاهة حتى

أعطيه جوابًا. " هل تعرف أنت هذا" يقول لي قلقا بالرغم من أنني اعرفها فينعقد لساني وأتلعثم بالإجابة، كان هذا يزعجه بعض الشيء، لكنه يحاول أن يخفي إزعاجه كما تعود في سلوكه. لهذا السبب لم أنس ذات ليلة حينما أغلقت السيدة غريغوريا حسابات مصارف المنزل الشهرية، من دون أن تحسب كلفة نفقاتها من ريالات، لكن ما أعرفه حقا أنها عندما سألت زوجها تقييم تلك النفقات، حاول أن يرمي بالمهمة فوق راسي:" أنت تعرف ذلك" مؤكدًا كما هي عادته، ناولني القلم الذي يحتفظ دوما به في جيب سترته الأعلى، تفاجأت بهذه المشكلة على الرغْم أنني أعرف أنه يجب تقسيم الريالات على أيام الشهر، مكثت صامتا انتظر مساعدته، حاول هو القيام بها، لكن كما دوما يبذل جهدا كبيرًا عما هو معتاد لكي نفهم شيئا ما، صعد الدم براسي ولم يعد بوسعي أن أنافش وأنا متبصر، أننهى الأمر بانه هو الذي أنجزها، ثم نظر إلي بنظرتين ثاقبتين، في حينها بدأت ألاعيب فاني تصرف انتباه الجميع، بعدها أوكلت السيدة غريغوريا المهمة الشاقة لمارتينا لتنظيف المخاط المكدس في خطمها على مدى الأربع وعشرين ساعة، والآن أحمد الله، لم يعد أحد يولي اهتمامًا لمصاريف سيدتي الحريصة. أمضيت في رعاية تلك العائلة ثماني سنوات لم أر دون ماتيو مشغول البال كما كان في الأسابيع الثلاثة الأخيرة بسبب مرض مارتينا المؤلم، كان يسير بالبيت شاحب اللون مستاء، يكاد يسحقه تفكيره المتحجر.
تغيير السيد ليسمس كثيرًا حتى في مواعيد الصفوف العادية ووقتها القصير، فهو يناقض ويعارض أقواله باستمرار، بدا لنا أنه غير متوازن نفسيًا في تلك الأيام في مجال التعلم، بل مضى أبعد من ذلك،ليرجو السفوح اليابسة حيث يسكن الموت، ألا يأتي مبكرًا ويسرق تلك الحياة التي كادت تبدأ.
بعد أن أنصرم أسبوعان أمسى المرض مشكلة لكننا لم نتأخر كثيرًا لنرى مرة أخرى مارتينا تجول في البيت ومخاطاها يتدلى من أنفها دوما، فرحنا كلنا لعودة الحياة للطفلة، كانت السيدة غريغوريا أمرأة تقية فتولت ذكر الأدعية الشكر وكأنها في قداس، ولم يتخلف عنه سوى فاني

والأسماك في الحوض. مضت أيام النقاهة كأنها احتفال، وأذكرها لأن السيدة غريغوريا لا تنتظر حلول الليل وهي صامتة، يبدو أنها أخدت حقن إنعاش كثرثرتها وفرحتها التي تشع من عينيها، فصدرها هزيل وغير متسق، بل ضامر بعض الشيء وكأن عظامها تقلصت بضع سنتيمترات لتطالب بموت مجنون، كانت ثرثرتها كما الحمى.
وأستمر ذلك الفرح كأنه حدث في بيت فقير، وكأن هذيان كلامها أمسى سائبًا لأن في تلك الأيام كانت السيدة غريغوريا تنام راقصة من أجل البيت، أمضت ليال طوال إلى جانب سرير المريضة، أما تعويضها فكان: السهاد الذي يرافقها في كل مكان جعلها تنطق بعبارات لو كانت بحالتها الطبيعية لاحتفظت بها في أحلامها ليلا. لكن السيدة غريغوريا إضافة لكونها ربة بيت متميزة، إذا استثنينا صمتها المطبق الذي لا ينكسر إلا إذا طلبت شيئا أو انتقدته، فزوجة أستاذي عمليًا تكاد تكون بلا عيوب، بنيتها الجسدية لا تستدعي نقدها، كانت امرأة مثالية ومرتبة وكادحة ونظيفة ورحيمة ونشطة. كل يوم تجدها في المطبخ، كانت واجباتها المنزلية مبرمجة، ومتواصلة بلا انقطاع واحدة تلو الأخرى: الفطور والغداء والعشاء.
نادرًا ما أراها خارج البيت إلا لزيارة الكنيسة أو لتتبضع صباحًا من السوق، لديها صديقات قليلات أو يمكن أن أقول ليس لديها صديقة، وبسبب مرض مارتينا علمت أنها لديها ثلاث صديقات: السيدة ادوفيخس والسيدة لينور وجارتها في الشقة العليا. كن قليلات لذلك زياراتهن المتباعدة لم تكن تبعث في نفس مضيفتي قبولًا.
أحيانا أتفاجأ أنها ترغم صديقاتها على الوداع
-حسنا-اعتادت أن تقول وهي تنهض-، لنبق على أتصال لا تنسي، شكرا جزيلًا مرثيلا على الزيارة.
أما مارثيلا فلا يبقى لها خيار آخر سوى أن تبحث مسرعة عن الباب لتخرج إلى الشارع بعد أن تطبع قبلتين قويتين ترنان على خدي السيدة غريغوريا الذابلين.

كانت السيدة غريغوريا نسخة صادقة ووفية لزوجها، وأيضا أمرأه حزينة لا أعرف أن كان أمرا طبيعيًا أو غريزيًا. أظن أن دون ماتيو وزوجته هكذا طبيعتهما، وتحديدًا هو الذي يشكل نقطة الجذب التي انتهت بهما إلى قداس الكنيسة، أيضا لا يمكن للتشاؤم الفطري لكليهما أن يحولهما إلى رفيقين بموجب نظرية
غير موجودة وهي " تطابق الشخصية"، نظرية قد تجد مكانها للتطبيق في زواج ثابت متفاهم، كما كان زواج مضيفي، بالرغْم أن كلاهما يحاول أخفاءه.
كانت مارتينا طفلة تبلغ من العمر ثلاثة أعوام مفرطة الثرثرة كبقية أقرانها وكأنها تدرك أنه حين سن بلوغها يجب أن تحسب حسابًا لكلامها، كانت دوما تزورني في غرفتي لتثير غيرتي بقطعة حلوى أو تبلغني خبرا جديدًا مهما للعائلة، ذات مساء أخبرتني بقدوم فتى آخر صغير، لم يكن عندي أدني فكرة عنه، لكن عندما أكد لي دون ماتيو الخبر غمرت الفرحة قلبي، كان مثلي يدرس البكالوريوس ويشاركني غرفتي الجافة العملية التي خصصوها لي منذ اليوم الأول.
عندما رقدت في تلك الليلة لم أستطع أن أنام من الفرحة التي توقدت في داخلي، كنت بحاجة لوجود شاب يقاسمني حياتي الرتيبة الباردة، في الأيام التالية تنشطت فقط لترتيب استقبال الضيف الجديد.

الفصل الثالث

كما أخبرتني مارتينا، وصل بعد يومين مساء شاب برفقه سيدة أنيفه الملابس، أستقبلهم دون ماتيو في الصالة نفسها ذات العهد الايزابيلي التي أستقبلنا فيها أنا وعمي، استطعت من خلال فتحة الباب أن أرى انهما شغلا المقعدين نفسيهما الذي شغلناها أنا وعمي قبل ثلاثة شهور، و من قبيل المصادفة أن للحوار حصل حول الأمور نفسها: كالتعليم وطريق المستقبل ومصاريف الدراسة، جلست على الأريكة الخشبية في غرفة حوض السمك أصغي للحوار في الصالة، فطرق مسمعي بالكامل الجزء الأخير عن مصاريف الدراسة، لربما لأن السيد ليسمس قالها ببلاغة غير مألوفة لها، فهمت أن والدة ذلك الولد ستدفع ألف ريال شهريًا لتعليم وتربية ذلك "الصغير"، بينما طلب من عمي ثمانمائة فقط، وبعد أن فكرت مليا انتهيت إلى رأي بأن عدم مساواتي بالتلميذ الجديد لأنه يبدو أكثر رخاء مني. عندما نهض الزوار مكث باب الصالة نصف مفتوحة تأملت كما يحلو لي مظهر القادمين الجدد، كانت المرأة تبدو طويلة القامة ممشوقة وشابة ، وجهها جميل وتتكلم بعذوبة و في كلماتها نعومة جعلتني أشعر أنها عصافير الجنة بمنقارها الذهبي، تخرج راقصة من الغرفة كلما فتحت فمها، أما الولد كان أشقر بل أشقر جدا كاد أن يكون أمهق، وفي نظراته تعب يثير الشفقة، بالرغْم ذلك يتمتع بجاذبية غير منتهية فهيأته الهشة الشاحبة تشجع أن نضعه على البيانو كتمثال بورسلين، وقفا للحظة ثم تناهى لمسمعي كأن السيدة تريد أن ترى غرفته، تقدم الثلاثة نحو الممر وسمعت أنهم يفتحون باب غرفتي، لم أستطع أن أسمع الحوار حولها، عندما حل الليل، وحان وقت نومنا، رأيت أن بعض أغطيه زاهية الألوان تغطي أسرتنا وسجاد مبهج يطغى عليه اللون الأحمر، مسدلة على فرشنا، هذا التجديد جعلني أفكر لو أن عمي وتلك السيدة سيعيشون مع أستأذى، ستثار غيرته لأنه وزوجته كانا في خدمتنا.

مكثت السيدة ودون ماتيو والولد بعيدين عن ملاحظتي، نظرت إلى النافذة بعد أن أثلجت، كانت ليلة ظلماء نزل وفر الثلج بطيئًا، كأنه يهبط بمظلة، ليستريح فوق الساحة أو فوق شجر الحور القديم كأنه يداعبها متمهلًا، فيثير ضجة، ليعود محلقًا فتجرفه الريح ثم يهبط بضعة أمتار بعيدًا هناك.

كانت الساحة خالية، بيضاء اللون وصامتة، وثمة ضياء خافت ينبعث من قنديل نصف مضاء ليكشف عن نماذج قروسطية غريبة منقوشة على واجهة الدار. لاحظت بغتة عند أسفل أحدى أشجار الحور، ظل رجل داكن رفع ياقة معطفه فوق رقبته وأسدل قبعته حتى عينيه، كنت أنا في مرحلة التأثر باللصوص والأشباح، فانكمشت على نفسي من جراء ذلك الظهور المفاجئ الأسود والجامد. مما لا ريب فيه أن ذلك الرجل كان ينتظر أحدا ما، من حين لآخر يركل الأرض بقدمه وقد نفد صبره ثم ينفض نتف الثلج الذي تنتشر فوق معطفه، رايته يتحرك فجأة، تقدم نحو نافذتي وقبل أن أبدى أي رد فعل وقف أمامي يفصله عني حاجز زجاجي، أومأ بيديه إشارات مبهمة، بقيت مبهوتا، لم أفهم إشارات ذلك الشخص الغريب وقد غطت نتف الثلج حواشي قبعته، كأنه يريد أن ينبهني في اللحظة الأخيرة أنني غريب ثم ولى وهو يدعس الثلج بلا هوادة ويضحك لخوفي منه. رايته يحتمي تحت الفانوس عند الركن وكأنه يريد أن يرخي جسده المتيبس تحت أحزمة الضياء الحادة، لم أستطع أن أراقبه، لأن من ورائي كانت تصدح الأصوات الموسيقية للزائرين وأجوبة أستاذي المباشرة، عدت لأجلس على الأريكة الخشبية لأرى المجموعة تمر من الباب نصف المفتوح، وقفوا أمام الباب في الشارع، سمعت تملق كلمات الوداع لدون ماتيو تبعتها طبع قبلتين رنانتين متألقتين، وبعدها همس طويل ثم عدة تنهدات، وباب ينفتح ثم ينغلق ورنة كعب المراءة الأنيقة عندما تهبط الدرجات الأربع التي تفصلها عن الباب، أنحيت متخفيا فوق حافة النافذة ورأيت المرأة تخرج مسرعة إلى الشارع والرجل الواقف تحت الفانوس هرع نحوها كان ينتظرها، شبكها من ذراعها ولاحظت أنه أبتسم بتعبير رجل أنجز

مهمته بشكل كامل، اختفيا بعدما اجتازا الزاوية معا، بينما نتف الثلج تنبسط برفق فوق ظلهما الداكن.
لما استدرت وجدت دون ماتيو بجانبي ووبخني بلهجة غاضبة:
-ماذا تنظر يا بيدرو؟
بقيت محتارا، ثم أجبته أنني أنظر إلى سقوط الثلج وتميز جمال المدينة الهامدة، أجابني جوابًا فحواه أن الفضول عادة سيئة للأطفال، ولما أدركت براءة جوابي ابتسمت معتذرًا، بعد هنيهة قال لي أنه سيذهب ليتفقد النزيل الجديد.
-أتمنى أن تكونا كأخوين حميمين-قال لي-هو الآن حزين ويجدر بك أن تواسيه.
لما قصدت غرفتي فكرت بخصوصية رجل ينتظر أمرأة على باب في الشارع وقد استغربت من لقائه وأنا أطل من برج مراقبة نافذتي.
التقيت برفيقي يبكي منكسرًا، يتقلب فوق أحد السريرين ويحاول أن يدفن تنهداته بالمخدة، اقتربت منه، محاولًا بيدي أن أجعله يلتفت إلي، أجابته شلتني.
-أبتعد عني-صرخ-لا أريد أن أرى أحدا!
سحبت يدي وجلست على السرير المقابل، دون أن أعرف بأية وسيلة أستطيع أن أعيد هذا الفتى المتمرد لرشده، لم يجبني حينما سألته عن اسمه أطلق بضع كلمات لما حاولت أن أقص عليه احدى "روائع" حياة دون ماتيو، قررت بجد ألا أعيره اهتمامًا، دون محاولات أخرى، اقتربت من السرير وأخذت أرسم من الذاكرة مشهدًا ثلجيا، طبعت عليه آثار عربة يجرها البغل، وهكذا مضت بضعة دقائق، بعد نصف ساعة تنهدات صديقي بدأت تتلاشى، لكنني أدركت أنه يستمر بها نفاقًا كيلا أظن أن حزنه تحول إلى أزمة.
لأنه سيتضايق من دون شك لو قيمت مشاعره بأنها مضطربة ومتغيرة، لكن هذا التغيير شجعني فواصلت صرف انتباهي عنه ظاهريا، منغمسًا برسمي وكل ما يحيطني. مضت نصف ساعة أخرى، ومن حين لأخر يطلق تنهدات تعبر عن معاناته، وعاجلا ما انتبهت أنه يحدق برسمي

من فوق كتفي، لقد انتهى كل شيء، مكثت صامتا لبضع دقائق، حتى لمّح بإشارات حية لينقر بأصبعه متعمدًا على كتفي حينذاك استدرت براسي:
-هلو-أجبته غير مبال.
-هلو!- أجابني-هل تعرف ترسم؟
-قليل، قليل جدا.
-هه!
ثم أبتسم:
-هذا الحمار يبدو كالكلب.
-أنه بغل-وضحت له.
أطلت السيدة غريغوريا بوجهها الجاف من خلال الباب لتدعونا للعشاء، نهضت قائلًا:
-لنذهب وسترى كيف سنمضي وقتا ممتعًا. أبتسم منكسرًا، ثم أضفت:
-ما أسمك؟ أنا أسمي بيدرو.
- وأنا الفريدو.
ابتسمت مجددًا، ولما دخلنا غرفة الأسماك الأربع، كان دون ماتيو والطفلة يجلسان إلى المائدة، استطلعت مارتينا بناظريها الفريدو وهو بادلها نظراتها باستياء. جلس الفريدو بين الطفلة وبيني، وضعت السيدة غريغوريا بغتة طبق حساء يفوح منه البخار بين يدينا، ووضعته في منتصف الطاولة، ثم جلست وأخذت توزيعه علينا، أنجزت مارتينا أكلها عاجلا ثم كررت المشهد نفسه حينما جئت للدار، التقطت الملعقة المستعملة ومن دون أن تبدي احترامًا لافريدو الأشقر أخذت تضربه بساعدها وتكرر بلا تعب "ننه، ننه، ننه" بعد قليل تنحنح دون ماتيو وأخذ يتفحص معلومات النزيل الجديد، تمامًا كما فعل معي قبل بضع شهور من وصولي.
-هل تعرف تقرا يا الفريدو؟ -قال له.
-نعم سيدي.
-هل تعرف تكتب؟

-نعم سيدي.
-هل تعرف تجمع؟
-نعم سيدي.
-هل تعرف تطرح؟
-نعم سيدي.
-هل تعرف تضرب؟
-نعم سيدي.
هل تعرف تقسم؟
-نعم سيدي.
-هل تعرف الجذر التربيعي
-بعض الشيء
(شعرت بالحياء، وتأسفت لأنني أجبته بكلمة لا بشكل قاطع.)
-والإنشاء؟ -واصل أستاذي.
-لا سيدي.
-ولا شيء؟
-لا على الإطلاق يا سيدي.
-لكن لا شيء لا شيء...؟
أقتنع السيد ليسمس، مرة ثانية بأجرائه الاستقصائي ثم ألتزم الصمت مفكرًا بنتائجه بينما يده السوداء المشعرة منشغلة بتقطيع فتات الخبز، ولما فرغت السيدة غريغوريا من العشاء رفعته بسرعة وذهبت إلى المطبخ لتساعد استفانيا، ثم نهض دون ماتيو بعد وقت قصير ودعانا إلى النوم، لكن ليس قبل أن يحتفل بوجبة الطعام القصيرة لضيوفنا المائية.
لما ذهبنا أنا والفريدو سمعنا عواء خفيفًا، توقف الفريدو:
-ما هذا؟ - سألني بفضول
-هه! ألا تعرف فاني؟ - أجبته-هي أفضل شيء في العائلة.
غيرنا اتجاهنا وفتح باب المطبخ قليلًا، خرجت فاني منطلقة كسهم وبعد أن وثبت نحوي بحيوية
لاعب سيرك نظرت إلى رفيقي.

-هه! إلا تعرفينه، حقا يا فاني؟ أنه صديقي وسيكون كذلك لك عاجلا.
أنحنى الفريدو برفق ليمسد على ظهر الكلبة، وهي وثبت عليه لتضع مخالبها الأمامية على بطنه، أبتسم الفريدو بينما عاد ليداعبها، انتبهت حينها أن حلقة الصداقة اتسعت لتشمل فاني، الكلبة الصغيرة لأستاذي، كانت هوايات الفريدو وهواياتي متطابقة وهكذا التصقنا ببعضنا.
فزعت حين سماع أصوات استفانيا الغاضبة وهي تنادي الحيوان، فتح باب المطبخ قليلًا مرة أخرى وجدت فاني اندفعت وهي تحرك ذيلها لتودعنا، تحفز وجه الفريدو الشاحب الحزين حين رآها
-هل الكلبة تعيش هنا؟ - سألني.
-نعم، تعيش هنا، لكنها مجرد كلبة.
- ليس هناك اختلاف في الأمر، دون ماتيو، حقا؟
-نعم، نعم، دون ماتيو.
لم يجب شيئا حتى وصلنا إلى غرفتنا، حذرته من صيحات مارتينا والسيدة غريغوريا لكيلا يفزع، قال لي أنه لا يهتم لأنه لا يستيقظ حتى الصباح، شغل الفريدو السرير المجاور للنافذة ولما أطفأنا الضياء قال لي بصوت غليظ:
-ما زالت تثلج.
حينذاك تذكرت كل المشهد الذي تأملته من خلال الثلج ذلك المساء، الرجل المحتمي بالفانوس ينتظر السيدة التي ترافق الفريدو، وتكشيرته المضحكة التي قابلني بها ذلك الرجل حينما رآني أطل من الشباك مما جعلني أحتار بشكل واضح في أمره، وخروج السيدة وابتسامة ذلك الرجل المرتاحة حينما شبكها من ذراعها، وجراء فضولي تراجعت في حيرتي.
-من جلبك إلى هنا؟ يا الفريدو؟ - قلت له هامسا بعد بضع دقائق.
أجابني الفريدو:
-أمي-أجابني في النهاية-السيدة التي كانت ترافقني هي أمي.
عدت متأثرًا لأهمس لكن همسته فيها شوق.
-أنها جميلة، حقيقة؟ - أضاف بعد برهة.

-نعم جميلة...-تذكرت مباشرة صوتها، ثم واصل:
ثم أن صوتها جميل.
صمت الفريدو للحظة في الظلمة ثم قال:
-كان أبي يقول لما تتكلم كأنها تغني.
الكلمات التي رددها صديقي بلغت فراشي دافئة خانقة، بل أن أكثر الكلمات التي انبثقت من صوته كأنها تأتي من حفرة، كان يتكلم بحنان وإعجاب وفخر، حينما يقول "أمي" أو "أبي" يمتلئ فمه رضا.
-أنه أمر يثير الفضول-أضفت متذكرًا ما انتابني من إحساس ذلك المساء-أنا أيضا وجدت كلماتها مثل عصافير منقارها ذهبي.
فضحك مقهقها معبرًا عن رضاه الودي ثم قال كأنه يريد أن يقارن بشكل غير مباشرة:
-هل لديك أم؟
-لا ليس لدي.
يبدو أنه اهتم بأمري لأنني يتيم لأنني سمعت صرير الشرشف وكأن جسده يبحث عن وضع أكثر راحة ليصغي ألي، لكني لم أضف شيئا، بل على العكس حولت الحوار إلى ما يهمني، قمت بذلك بمودة وخوف بالرغْم صغر سني انتابني إحساس تلقائي أنني دخلت المنطقة المحرمة.
-والسيد الذي ينتظرها على الباب؟ هل هو أبوك؟
صوته تحول إلى نبرة ملتبسة.
-لا أحد ينتظرها على الباب! – أجاب باقتضاب.
-لكنني رأيته – قلت بإصرار -كان رجل يرتدي معطفًا داكن اللون ويقف تحت الفانوس لكي يحتمي من الثلج، أومأ بإشارات لي عندما نظرت اليه من النافذة...
-أي إشارات أومأ بها لك...؟ - مستفسرًا
-نعم من هو؟
عاد صوته ليخبو، لكن هيئته المطفأة فيها شيء من التوهج والوعيد، مجرد انتظار هامشي ليجعل وهمه الانتقامي أكثر فعالية.

-لا تجبرني أن أتحدث عنه-قال منتحبًا-سأشتاط غضبا ولن أستطيع أن أنام طوال الليل، أنه من يتحمل وزر وجودي هنا، هل تعلم؟ كنت أعيش مع أمي بأمان دائم حتى ظهر هو، أخذ ينظر لي بازدراء كما لو أنه لديه سلطة عليّ، ذات يوم تمردت لكن أمي....
صمت كأن صدى الغرفة نبهه وأصمت صراحة ثرثرته، سادت برهة يشوبها قلق لا يمكن التعبير عنه، لكن صوته بلغني مرة أخرى مرتجفًا ومتهيجًا.
-لا تجبرني أن أتحدث عنه، أتوسل إليك!
تنهد بحسرة وهو في سريره يثقله انزعاجه، صرت أسنانه كأنها هدأت حينما سمع احتكاك الغطاء بجسده، ساد الصمت من جديد.
-سأصلي-قال بغتة-وأنت ألا تصلي؟
-نعم أصلي، أصلي...
سكتنا مرة أخرى، وأنا شكرت ربي على هذه الثقة غير المتوقعة، شعرت بحماية خاصة حينما تخيلت وجود ذلك المخلوق الهادئ الشاحب وقد التحف الفراش إلى جانبي فجأة سمعت صرخة.
- من هذا؟ سأل مفزوعًا.
-أنها الطفلة مارتينا، لا تفزع.
-هل تصرخ طوال الليل هكذا؟
- أحيانا كثيرة، هكذا تنامان هي والسيدة غريغوريا، تتحدثان وهما نائمتان.
-هل تريد أن ننام؟ - عبر عن رغبته أن ننسى كل شيء.
-نعم، لننم، لقد تأخر الوقت، تصبح على خير....
-وداعا...
سمعته يعود للفراش، بدت الأشياء متوترة تلك الليلة، كأنني اسمع نتف الثلج ترتجف حين هبوطها ما بين الأرض والسماء.

الفصل الرابع

كانت أيام عيد الميلاد مدّة نتمناها للاستراحة من دروسنا، لم أغادر بيت دون ماتيو بينما الفريدو رافق أمه للطعام يومين فقط، أمست صداقتنا وثيقة ولم يمض عليها إلا أسابيع قليلة، لم أتصور كيف لي أن أطيق جفاء هذا البيت من دون وجود الفريدو الذي بعث فيه الحياة، لقد أختلف كل شيء الآن: أصبح للأشياء ملامح وصوت ونبض، كنا نقارنها و نذوقها معا، فالثقة بيننا أطالت بحياتنا من خلال أفكارنا الليلية التلقائية الجامدة، ومشاعرنا وما ننجزه من أشياء يوميًا.

أسبوعان من العطلة جلبا لروحي ضياء جديدًا، لم أعش أبدا أيام أعياد الميلاد في داخلي، وهي تتسم بهيئة ومذاق ينبض بكل يوم وكل ساعة، لقد فتحت لي هذه المناسبة افقاً جديدًا دافئا ومجهولًا، فالسيدة غرغوريا زينت المغارة كأنها صورة مصغرة لبيت لحم، ونثرت فيه أشكالا طريفة ألوانها ساكنة من أجل تسلية مارتينا، نظرنا إليها أنا ومارتينا والفريدو بشوق ثم نظرنا كيف ذلك العالم المنقوش يولد وينمو ويتكاثر بين الطحالب وسلاسل جبال خضر يكسو قممها ثلج كالطحين، أما السيد ليسمس قام بحركة حيوية لما وضع سمكتي الحوض الحمراوين في بحيرة اصطناعية، صفقت مارتينا فرحة ببراءة الأطفال لما رأت تلك اللعبة تدب بها الحياة وتتحرك من دون أن تلاحظ أن الصيادين الذين يطوفون على الشاطئ أصغر حجما من السمك الذي يحاولون صيده، بينما أنا والفريدو أحبطنا هذا الأمر قليلًا ، لكن بفضل مخيلتنا استطعنا أن نردم الفجوة ونمنح الأسماك الحمر الموجودة في الحوض صفة أبناء الحوت سجناء في البحيرة، وبعد أن أستوعبنا ما تخيلناه عدنا لنصب اهتمامنا على مهد بيت لحم، بعد أن افترضنا أن الأسماك هي حوت صغير، وأصبح منظرًا يمكن قبوله وترجيحه.

قضينا أمام بيت لحم أسعد أوقات العطلة، اعتادت مارتينا أن تصعد على الكرسي، وببطء ظاهر تسألنا عن وضع كل مجموعة وعن كل شكل وكل شخص....
-من هذا؟
للبوابة المتهدمة المتواضعة جاذبية رائعة، ولها تأثير كبير على الطفلة من دون أن تشبع شغفها.
-يا إلهي!
-يا إلهي! - تكرر مارتينا الكلمات الإلهية مندهشة، لم تكن تفهم بأن المسيح الذي تتحدث عنه والدتها يمكن أن يصور بشكل تمثال من فخار مزجج وردي اللون.
-ولماذا هو هنا؟
-من أجلك... من أجلك... من اجلنا جميعا...
-ومن أجل ماما وبابا؟
-نعم.
-ومن أجل العم كوسمه؟
-نعم.
-ومن أجل جدي؟
-نعم.
-ومن أجل...؟

أنبغى علينا مقاطعتها لكيلا تواصل تسمية كل الأقارب، لكن الطفلة بدأت تطيل فضولها في أمور أخرى.
-لماذا هذا الراعي تنقصه ذراع؟
-وقع في حفرة وأنكسر...

-لماذا؟
-كان يركض وراء خروف قد فقده وضاع ليلا...

-لماذا؟
-لأن الليل كان مظلمًا.
-لماذا؟
-لأنها لم تكن ليلة مقمرة، لقد غشاها الغمام ولم يعد بوسعه أن يتنفس...
كانت مارتينا ترمقنا من مقعدها بنظرتين متسائلتين، تنفست عميقًا كيلا تختنق كما القمر، من المؤكد أنها تجهل ما القمر والحفرة والظلمة، لكنها تواصل تساؤلاتها متسائلة لأن كلماتنا المتواصلة مع بعضها تمنحها شعورًا من العزلة والفنتازيا لا نستطيع أن نفهمه، وخيالها الطفولي ينسج أشياء حول تلك الأشكال وتفسيرنا المبهم لأسطورة رائعة تسكرها فتجعلها تنتشي متعة. أخذتنا السيدة غريغوريا للنزهة عدة مرات لنرى أعياد الميلاد، غطى الثلج الشوارع بينما العاصفة الثلجية تجلد الستائر بضربات مسعورة، اصطفت في الشوارع المفتوحة مثاقب البرد حتى انهمرت دموعنا، بالكاد ترى ناس خارج بيوتهم، كان الجميع يتحاشون البرد مما جعلهم يلتفون في حللقات حول السيدة غريغوريا، كانت مارتينا تسير متعثرة تمسك بيد أمها وتلف وشاح السيد ليسمس حول فمها وانفها، انتهزنا أنا والفريدو كل غفلة لرفيقتنا لكي نتزلج فوق الجليد المتوهج الصلب في تلك الممرات الثلجية، نتابع وجوه جديدة وتعابير تماثيل الفخار الذي تسكن منظر أعياد الميلاد، لقد تعلمت أنا والفريدو أن نستمتع بمذاق حلو ومر لصداقة حقيقية وفية للطفولة.
كان للسيدة غريغوريا في تلك اللحظات عالمها الخاص الصامت البارد كما الطقس الذي يسود المدينة، كنت أشعر حينذاك بقشعريرة تولد مناجاة جراء سقوط في حضن يتسم بالمودة، كان الفريدو يؤيدني متحفزًا بشدة، كانت كلماته تخرج من بين شفتيه كأنها جديدة لأنه لم يكن يفهم كثيرًا ما يحيط به، فالأشخاص كانوا كأحجية مهولة تنازلوا عن المعرفة، كان يعبد أمه بشكل غريزي كما الحيوان، لكن طريقته معبرة ولطيفة، أحيانا يكلمني عنها بحماس يجعلني أتحسس داخلي بأصابع خفية مأساة منحوتة في نفسي يتيم خاو من الذكريات، ابتدأت برفقته فقط أعي الإحساس الحزين أن تكون غصنا أنتزع من جذع شجرة، من حياة

انتزعت من أصلها، لما يسير الفريدو بخطواته الطبيعية ليدنو من وضعه الطبيعي، يقاطعه بعقد حاجبيه البيضاوين أفقيًا. فما يخص ذلك الرجل الغريب بالكاد كان يمنحه حجة ليكسر عن شره، ثم يلفه بذلك الغموض المغلق الذي يكدر نظرات الفريدو دوما حينما يتأمل الناس، لأنه بالغريزة يدرك إحباطه.
لقد حطمت سعادته ضربة واحدة وهذا كاف، لكن لماذا لم تفهم والدته مقدار الإحباط داخل ذلك الإنسان؟ لماذا حاولت أن تجعل منه صديقًا مخلصًا وفيا بل ويحميه؟ لم يفهم الفريدو، لا يستطيع أن يفهم كيف أن والدته الرقيقة العذبة التي تشبهه كثيرًا تتنازل عن العيش معًا مع أبنها مهما ضغط ذلك الرجل على إرادتها الضعيفة المنكسرة، ثمة نقطة مبهمة في هذا الموقف لملاحظة الفريدو الساذجة:
كيف لقلب يمكن أن يحن تجاه قلب مجهول ويهمل قلب ثالث كان مدة سنوات يهفو بمشاعره نحوه؟ لا يستطيع الفريدو بخياله الطفولي أن يفهم ذلك، كان يجهل حتما أن الإنسان شيء متحرك أكثر قوة من الحب من دون أن يشبع متطلبات الجسد، لم يكن يدرك الفريدو وجود العاطفة الغامضة التي تتحكم به، بالرغْم سوء محتواها، كان يجهل ذلك، كان الفريدو مغلق الفهم صوب الوسيلة المنطقية والعقلانية التي تسمح له أن يفهم بوضوح هذا الأمر غير المفهوم.
لم يكن بوسعي أيضا أن أتكهن عما موجود هناك، في تلك العلاقات غير النظامية بلا أساس واضح وما قد يحدث فيها، لا أستطيع أن أفهم تمامًا بأن علاقة مقدسة مرتبطة بنسب الدم يمكن أن تلغى مقابل علاقة شبقية من دون وجود حلقة وصل تبررها، توضحت لي أشياءعديدة في أيام أعياد الميلاد، كان أحد تلك اليومين الذي خرج بهما برفقة والدته، أنا قضيت يومي بمرافقة السيدة غريغوريا ومارتينا بسعادة مع صور جد مارتينا وأعمامها. أمضت السيدة غريغوريا عدة أيام تحضر الصورة مع الطفلة، أظن أن المصور المسكين ينبغي له أن يكرر عدة مرات الصورة حتى منحته السيدة الموافقة وبعد أن أنجزت تلك الصورة الباردة الفنية التي لا تساير الواقع، خرجت مارتينا راضية على أنتاجها،

فالخدود الواسعة تشير عادة إلى طرف الأنف والفم تلاشت وأختفى منها الطفح الجلدي المنبوذ وما تبقى منه سيذهب حينما تدلكه والدتها بليفة مناسبة، وكما فهمت، كانت مارتينا اتخذت وضعا طبيعيًا، ومن دون أن نراها يمكن أن نحزر أن يد الفنان أجبرتها أن تسترخي تلقائيًا ليظهرها بمظهر بسيط وطبيعي.(كانت تقف على مقعد من القش تستند عليه بذراعها القصيرة البدينة، وتتردي قبعة بيضاء تتسق مع فستانها، مزينة بدانتيل غالي يتدلى على كتفها وترتدي جزمة بيضاء أزرارها تغلق من الجانب، ومن طرفها الأعلى تظهر جوارب بيضاء نقية. أما خلفية الطفلة ظهرت بأرضية رمادية اللون تتلاشى تدريجيًا حتى تمسي بيضاء اللون.)

ابتسمت السيدة غريغوريا ابتسامة موجزة بتوجيه من المصور، وأشارت أيضا إلى الزاوية السفلى من جهة اليمين مكان مناسب لكي يضعها، بذلت ما بوسعي كيلا أفسد العمل الفني، فاستخدمت حروفا تستعمل للمناسبات الكبيرة:

"مارتينا-كتبت-ستقبل جدها خوسيه وأعمامها كوسمه وروز" وكذلك كتبت التاريخ "مارتينا 24 كانون الثاني 19..." ولما فعلت ذلك سلمت الصورة إلى مضيفتي الصغيرة، ابتسمت السيدة غريغوريا وكأن لعابها قد سال لما قرات ما أملته هي علي، ولما بدت لها الصورة جيدة، لسرعة إنجازها أعادتها إلي لأكتب تحت الإهداء: "عناقي للجميع" بعدها طلبت مني أن أقرأها كلها، قراءة تسمعها بحس مبتهج رواية كلماتها تمتدح سيدا، بالتالي انشغلنا بكتابة بطاقة تهنئة لنسير إلى الاحتفالات التي نحييها، كانت تنم عن بوابة الميلاد ممزوجة بألوان حادة من بينها يبرز بشكل مهني الوردي والأزرق الصافي، طلبت مني السيدة غريغوريا أن اكتب على الصورة مضمون الرسالة نفسها واختتمت بتوقيع مارتينا وأنا أسند يدها. انتهى كل شيء، بشكل لم أكن أتوقعه، لما تركت مارتينا تسقط بقعة حبر رائعة فوق البطاقة التي كلفتنا الله يعلم كم ومساعدة مماثلة، ولما انجزنا جميع التفاصيل، انطلقنا أنا ومارتينا إلى الشارع بتوجيه من السيدة غريغوريا. كان يومًا باردًا بالرغْم أن الشمس

أطلت لبضع ساعات، لكنها لم تستمر بسبب الجليد والثلج الذين يكسوان المدينة، خرجنا إلى ساحة سانتا من باب (الكاثر)، تحولت الساحة إلى أرض ثلجية، زقزقت العصافير عاليا من على أفزيز السقوف تبحث عن طعام كيلا تهلك في ذلك اليوم الأبيض المثلج، يمتد البيت الجديد ابتداء من الركن نحو الشارع وقد غطى شرفاته صف ثلجي أبيض ، في الشرفة الثانية احتشدت سيدات من ريكاتيو يطلقن صراخا فرحات كمجموعة عصافير أخرى، وعند نهاية الشرفة وقف رجل مثير للسخرية بشاربيه المعكوفتين يرتدي قبعة وعصا مميزة من جافا يرمق الحسناوات، رمقت السيدة غريغوريا الشابات "الوقحات" بنظرات فظيعة.

-سيأتي اليوم-لاحظت من بين أسنانها-الذي فيه سيصعد الرجال الأشجار...

واصلنا مسيرنا في الشارع، يسبقنا الغمام الذي يخرج من أفواهنا حينما نتنفس، كانت مارتينا تمسك بيد والدتها، تكشف من فوق شالها الذي يلفها حتى أنفها وميض عينين مدورتين، ولما وصلنا بيت جدها، نزعت عن فمها وأنفها الشال ثم لفت ساعديها حول جدها ومضت دقائق وهي تدفن وجهها في لحية العجوز المطلقة.

-عيد ميلا د سعيد ابنتي.

تعانق السيدة غريغوريا والعجوز ببرود، ظهرت بعد قليل العمة روز طويلة القامة نحيفة وتناقض تمامًا شخصية مربيتي، ولما التقى فما الأختان ليعبرا عن مشاعرهما الطيبة باحترام، كانتا يتشابهان بشكل منقطع النظير بقوامهما كتلك العيدان التي تستخدم لتسند النبات المتسلق، بعدها احتضنت السيدة روز مارتينا وقبلتها ما يقارب عشر مرات بقوة (لم ترزق بذرية)، وتلمست كل جسدها الصغير.

-أختي-قالت فجأة-أنها وريثتنا: فالرأس صغير وعجزها كبير.

ابتسمت السيدة غرغوريا برضى، وهي تمسك كما عادتها تنورة فستانها الجديد الواسعة، في حين واصلت أختها بالتعبير عن مشاعرها تجاه الطفلة الصغيرة، بغتة فتح العجوز الباب وأشار لنا لأن ندخل ونجلس.

كانت غرفة واسعة ومرتبة، فيها شرفتان تطلان على الشارع، جلس الشخصان المحترمان حول السرير، فشغلا أريكة مغلفة بستان أزرق، شعرت بشيء من الحياء في هذا التجمع العائلي الذي لا أمت له بصلة، جلست فوق مقعد مرتفع، منعزل بعض الشيء وقد تدلت ساقي في الهواء، فتحت السيدة غريغوريا حقيبتها لتخرج صورة مارتينا والبطاقة التي كتبتها منذ بضع ساعات.

-لقد جلبت لكم مارتينا هذا بمناسبة أعياد الميلاد...

ابتسم الجد فارتجفت لحيته قليلًا، أخرج بتأن نظارة صغيرة بيضوية الشكل إطارها فضي وضعها فوق طرف منخريه، نظرت مارتينا إلى ما يفعله جدها دون مشاركتها له ذلك الموقف، سلمت السيدة غريغوريا الظرف لأبيها، بينما شعرت بالخجل حينما فكرت بنفسي، غير مبال بها لكنها ستحتل مرتبة الصدارة، أرتجف شعر الجد مجددًا بينما السيدة روز نظرت إلى العجوز فاغرة فاهها، قرأ الجد بصوت عال ما مكتوب على البطاقات وارتجفت نظارته شغفا، احتضنت السيدة روز مارتينا وكادت تلتهمها تقبيلا، فجأة حدث ما كنت أخشاه.

-أنه خط جميل! من كتب هذا؟ -قال الجد، بينما ذكر هذه العبارة، أشار إلي بلحيته المدببة، شعرت بالخجل، فابتسم راضيا للسيدة غريغوريا:

-أنه بيدرو، هو بيدرو، أحد أفضل تلاميذ ماتيو-جعل الأنظار كلها تلتفت نحوي.

-جيد جدا يا ولدي-نظر إلي مرة أخرى، محللًا حروف الرسالة واحدًا تلو الأخر-أحسنت، أحسنت، هذا تكريم لك. تابعته السيدة غريغوريا بفارغ الصبر ثم قال على حين غرة:

هيا يا آنا وبيدرو، لتطلا على الشرفة أنت ومارتينا لكي ترى أن كان العم كوسمه قد وصل...

شعرت أن السيدة غريغوريا تريد أن تضيف شيئا عني دون أن أسمعه، اقتربت مني مارتينا بخطواتها الصغيرة المتأرجحة ومدت يدها، أخذتها واقتربنا من الشرفة.

-يمكنكما أن تشاهدا من خلال زجاج النافذة دون أن تفتحها لأن البرد شديد، لربما تستطيعان أن تشاهدا شيئا من الشرفة الثانية...
كانت السيدة غريغوريا تريد إبعادنا، فاهتمامها ينصب الآن على وضع مسافة تباعد بين شفتيها ومسمعينا قدر ما استطاعت، انتقلنا أنا ومارتينا إلى الشرفة الثانية، أصرت الطفلة أن تلصق أنفها على الزجاج بإصرار، ثم فتشت بكلتا يديها الصغيرتين لتبحث عن حفرة مرئية، تظاهرت أنني منشغلًا بحركة مارتينا العشوائية وبقدوم العم كوسمه (الذي لا أعرفه بعد) في الواقع كانت مشاعري مضطربة ومرتكزة حول حوار بصوت منخفض يجري حول طاولة مستديرة.
-أنظر...ننه، ننه، ننه.
إشارات مارتينا للشرفات المقابلة، كان ثمة أطفال يومئون لنا من هناك.
-نعم ننه، ننه (كنت أسمع بعض اللكمات التي تناهت إلي:
(يتيم كلمنا عنه...(مع آخر...) (أيضا يتيم...).
-ننه آخر أنظر
-نعم ننه آخر(... لقد قبلناه معنا شفقة...) (... الأم تعيش بشكل سيء مع رجل آخر...(لقد فهمنا...)
سُمع ضجيج العربة تمر بالشارع وحجبت تمامًا همس صوت السيدة غريغوريا.
- هيا يا حصان...!
لما ابتعدت العربة رويدا رويدا استطعت أن ألتقط مرة أخرى صوت مربيتي:(ألف ريال...) (في الأقل...) (شفقة...) لكن صوت العجوز قطع الحوار الهامس للمحادثة:
-عجبا ليس إلى هذا الحد شفقة...!
-هس...
عادت نبرة الصوت هادئة هامسة ودافئة، كخرير جدول ماء يقاوم موجات البحر، كان صوت السيدة غريغوريا يختلج حينما تلتمس ثغرة قد تكون مدخلًا لتبدأ النقد...
(فهمنا أن أبن المراءة هو هكذا...) (نتولاه ونعلمه...)

وصل في تلك اللحظة العم كوسمه، من دون أن نلتفت أنا ومارتينا لقدومه، فغير مجيئه أتجاه الجلسة، من المؤكد أنه غير قادر على أن يحول تلك المحادثة الخاصة لأن من يتحاور يجب أن يكونوا أقرباء من نسب واحد. أعترف أنه حينما حانت ساعة رحيلنا شعرت أنني تحررت من اضطراب وتوتر غير مألوف و، توج الجد جلسة العيد بتقديم هدية لمارتينا قطعة نقدية من الذهب لامعة وصغيرة، تنبهت إلى وكزة من السيدة غريغوريا لوالدها، فقام فورًا بتلمس جيب سترته وأخرج منه قطعة نقدية فضية ووضعها في يدي ثم شد عليها، وبعدها قال لي أن احتفظ بها وألا أفرط بهذا الكنز الذي يقدمه لي لخطي المتميز.
عدنا ثلاثتنا نرتجف بردا في الشارع ونقاوم مسافة الطريق، بينما تجول الناس في الشارع للحاجة فقط، ما زالت سيدات ريكاليو في الشرفة مزعجات يقهقهن عاليا،
لقد بدأن محادثة مع الشخص اللصقة...
ومن ضحكاتهن يمكنك أن تقيّم ذلك الرجل أنه عبقري أكثر من كونه عاديا. شعت عينا مربيتي وهي تحدق بالشرفة، لقد شعِرت بإهانة وإذلال في جنسها وفي حبها الشخصي وبثقافتها كامرأة مثابرة لتكون تمثالًا وليس قاعدة تمثال، لما وصلنا إلى البيت استشاطت السيدة غريغوريا غضبا كأن الشر سكنها لترفس المكان الأشد عطبا في كرامتها.
-ماتيو هؤلاء المستهترات قليلات الحياء، أنهن يأتين بعادات وتقاليد لا تمت لنا، يخالفن طريقتنا في الحياة، يهن كرامتنا، يعاكسن حيائنا بل حتى سمعتنا....
كانت أنفاس صدرها تعلو وتهبط متقطعة وجسدها يرتجف بلا لحم بينما تفرقع عظامها المتكسرة، أصغى إليها زوجها من دون مبالاة، بنظرة تائه في الأرض وخصلة شعره المنكوش كأنها عرف على قمة رأسه
-لا أعرف عمن تتحدثين.
-وعمن يمكن أن أقول ما اسرده لك؟
-عن نساء ريكاتيلو؟
-بالتأكيد عن نساء ريكاتيلو.

-أنهن يسرقن من المدينة ما تبقى لها من مواد غير ملوثة...
أستمر النقد اللاذع بينما أويت إلى غرفتي، تبعتني أصوات عالية وغير مألوفة من دون أن تمس مشاعري، فالهجوم على سيدات بدين لي جميلات ليس له أهمية عندي، شيء واحد كان يقلقني حينئذ: إحساس مبهم بأن الفريدو كان يتيما وأقل درجة مني، يتيما بائسًا وحساسًا أكثر مني، أما أنا فالموت لم يفرض علي حالة يتمي، حاولت أن أنسى الحوار الذي دار في بيت جد مارتينا وتحديدًا تقييمه بشكل أساسي ونهائي، بأن أمه تعيش " بطريقة سيئة" مع رجل، هذا ما قالته السيدة غرغوريا عندما أشارت لام الفريدو، لم استطع استيعابه جيدا، لكن الغريزة تجعلني أتسأل ما الخطيئة في علاقة بين رجل وامرأة، ثم اتكأت على النافذة أراقب الساحة الخاوية ترتجف بردا. كانت حجارة البيت الصفراء في المقابل تفرض نفسها مفعمة بنبض القرون، نقش على محرابها نحتا لمحاربين أربعة، اثنين منتصرين والآخرين مهزومين، تأملتهما بناظري أكثر من المعتاد، أعتاد دون ماتيو أن يشير لهما عندما يؤكد" كانوا أكثر جدية وأفضل منا".
يمتطي المنتصران حصانا، ينفخان بالبوق طويلًا معلنين عن نصرهما، أما المهزومان كانا ذليلين يركعان على ركبتيهما، مهمومين بثقل الخسارة. هنالك كانوا، خالدين في النقش الحجري، تذكرت والدة صديقي، وسيدات ريكاليو ومضيفتي...نعم، بالتأكيد كانوا أكثر جدية وأفضل منا.... سيد ليسمس على حق.
في الأقل أكثر جدية، أكثر جدية منا....

الفصل الخامس

لم أذكر لافريدو عما سمعته يوم عيد الميلاد، بل على العكس لأنني سأجعل الأشياء تسير أسوء مما كانت عليه، هناك أشياء من الأفضل أن تبقى بالظل بدلا من أن تتوضح بطريقة صريحة اعتباطية، لأن الفريدو لا يزال يعتريه الشك ليس فقط بعلاقة والدته من "الرجل" بل أي علاقة شاذة، أي أية علاقة بين رجل وأمراءه، تركت الأيام تمضي من دون أن أسمح لنفسي أن أتباهى وأشرك صديقي اكتشافًا يمسه من قريب. من جهة أخرى الحوار عن عوائلنا أخذ يتباعد في كل مرة، دون أن ننتبه أنه يخص حياتنا الشخصية، الحياة التي نحياها، لنمحو من أذهاننا أي فكرة قد تشغلنا، بل حتى والدته، وعمي، لم يعدا يتصنعان بأبداء أي اهتمام من جهتهما و خمد إعجابهما وحنانهما صوبنا، كانا يعيشان حياتهما باستقلالية تامة، لم يتفقدا مدينة ابيلا، بشكل دائم منذ انضمامنا لمدرسة دون ماتيو الداخلية. فوالدة الفريدو لم تأت بعد انتهاء أعياد الميلاد، بينما قام عمي بزيارة خاطفة في شهر شباط، بالكاد أتذكرها، كأنه هجرني لمشاغله وهواياته، بقيت مجرد أبن أخ وطالب فهو غير ملتزم بتربيتي والأشراف علي ولا حتى بموجب القانون. كان الفريدو يستلم رسائل باستمرار، وأنا من حين لآخر، وبمرور الأيام أخدت أفقد المتعة التي كنت اشعر بها سابقا حينما أستلم بريدًا من عمي، أحيانا أترك الرسائل أسابيع عديدة دون أن أفتحها، بل لم تكن تجلب انتباهي لأفتحها، رسائل عمي التي يرسلها من مدينة برشلونة. وكنتيجة منطقية لهذا الفتور نحوهم تعززت الصداقة المتبادلة التي تجمعني مع الفريدو، من جهتي كنت متيقنًا أنني أحس بشكل ملموس التقارب المتنامي بين نفسينا، فاليوم الذي نفتقد فيه إحدى أوقاتنا المألوفة بتشعباتها الخفية لظرف ما أشعر أنني مثقل بضيق لا يطاق وكأن منطاد يعيق صعود تفاؤلي الصبياني، لقد أصبحنا متلازمين كالكف والقفاز، كل منا يجد نفسه في الآخر، ويجد الحرارة في الآخر.

واصلت الحياة برتابة في بيت دون ماتيو، لم يتغير شيء حين قدوم الربيع، خطة الدراسة نفسها، وجبات الطعام الخاوية نفسها، تكاد تكون دوما الشيء نفسه -إلا إذا طلبت غريغوريا طلب شيئا ما أو تنتقد شيئا ما-صامتة كجلبة الليالي المتماثلة و الهروب نفسه من أنفسنا نحو فاني والأسماك الصغيرة الحمر في الحوض الأخضر الذي تواصل غذاءها من رحمة أستاذنا المذهلة. تغير مجرى الأحداث كثيرًا بنجاحي ونجاح الفريدو في أول امتحان فكري لنا، اجتيازنا المفرح في الامتحانات جعل البيت المطفأ الرتيب بنظامه يحتفي، للمرة الثانية خلال العام -اليوم الأول من السنة كان اليوم الأخير - .

طلبت منا السيدة غريغوريا أن نرتدي بدلة رسمية لكي نحضر مأدبة التشريف. (من وجهة نظري لا أستطيع أن أقول أن تلك الوليمة التي نحضرها كنا جميعا وسيمين، كانت لها غاية أخرى هي أن تمنح السيدة غرغوريا الفرصة لترتدي بدلة سوداء قصيرة مجسمة على الخصر فتمنحها فرصة لتبرز صدرها البض المزيف كسيدة، يعلم الله وحده ما يحتويه من إجراءات سرية، ارتدينا أنا والفريدو بدلة بحارة تتوهج بالشرائط والشارات الزرق والبيضاء كأننا حيوانات غريبة، وكسينا ساقينا بجوارب سوداء اللون ولبسنا في قدمينا جزمة جلدية لامعة أزرارها جانبية، رتب السيد ليسمس نفسه وزينها بحماس أكثر من المعتاد، بالرغْم أن بدلته هي نفسها الذي يرتديها يوميًا، أما مارتينا التي لم تكن تدهشها هذه الأعياد مثلت أمامنا وقد حشرت نفسها في فستان أبيض يفوح منه عطر البنفسج التي اعتادت السيدة غريغوريا أن تعطر به صدرها في المناسبات الخاصة.

لنجاحنا أهمية للسيد ليسمس أكثر مما لدينا، لأن الامتحان يعني بالنسبة له أن يكون أو لا يكون وكذلك لعائلته، لأن خبر نجاحنا سيتداولونه في المدينة الصغيرة التي تدور فيها الأخبار، لأنه سيدعم مدرسته وفعالية تعليمها. لما جاء دور تناول الحلوى كانت الفرحة ترقص على وجهه بشكل ملحوظ، لم يحاول أن يخفيها، كانت القناعة والفرحة تشع منهما كما النور والحر من الشمس، من الطبيعي أن يهدي كأس الشمبانيا

لمستقبلنا مضيفًا أنه لأمر لطيف أن نكون أكثر طموحًا،" من السهل دوما أن نخسر بدلا من أن نربح-انتهى قائلًا-لذا سنمكث قليلًا".
صفقنا له ولما جلس أخذ يفتت قطع الخبز للأسماك، إضافة لذلك أخذ قطعا من كعكة الحلوى، مقدرًا أن أصدقاءنا في الماء لديهم الحق لأن يحتفلوا بهذا الاحتفال العائلي. بعدها اضطرت السيدة غريغوريا أن تحتفظ به لتغير الماء بالنبيذ الأبيض وقد تذرعت أن الأسماك يجب أن تنتهز أيضا هذا الامتياز الاستثنائي، بعد قليل طلبت منا مربيتنا أن نأوي إلى الفراش بينما مارتينا تنظر مستغربة لوالدها الذي بدوره ادهشته تلك الفرحة الحيوية غير المألوفة، وهكذا انتهى اليوم الذي احتفلنا به بنجاحنا، ولأول مرة احتفلنا أنا والفريدو معا بحدث سيلعب دورا متميزًا في حياتنا فيما بعد، أنه التوقيع الأول لذلك اليوم السعيد تعانقنا بحنان لأننا سنتحرر من عمل تسعة شهور على أمل عطلة صيفية تفتح أمامنا سكينة وتسلية وتيسيرًا للأمور.

الفصل السادس

أفضل الذكريات التي احتفظ بها في حياتي كان أول ربيع أمضيته في مدينة ابيلا وأنا طالب، يحفزني عطر صداقة حديثة ودية متناسيا أطلاقا دراستنا التي قصت اجنحتنا في التسعة شهور الماضية، كانت مدينة ابيلا تولد من جديد بمداعبات شهر أيار الدافئة، بأبراجها المطلة للشمس الذي تنظم منظر المدينة عامة. (كأن الأمر يتعلق بميت يبعث من جديد مهيئ لأن يعيش حياة جديدة متكاملة كانت مهملة سابقا) جدران البنايات القديمة الصفر تنتشي حينما يداعبها النسيم القادم من السلاسل الجبلية، تغادر الناس مخادعهم لتحتشد تحت الشمس، بالرغْم أشعتها الشحيحة، متشوقة لتلتقط أنفاسها الحارة بكل كثافتها، لكننا ندرك أننا سنفتقدها بعد حين ونشتاق لتلك الأيام الشفافة التي تبدو فيها المدينة عارية بعد أن نزعت عنها غطاءها الثلجي. حياتنا في تلك الحقبة لم تكن منوعة، كنا أنا والفريدو نقوم بأعمال مكرهين عليها لأننا عشناها سابقا، لما نتحدث عن هذا السلوك المكرر فيه متعة كبيرة حقيقية لاستثمارنا ما غير مألوف، واستثنائي، ومتميز، ما لم يكن ذلك، لتميزه بجاذبيته وبروزه، تشجعنا لأن نهمل الأشغال اليومية، بالكاد نتناول فطورنا ثم نترك دار دون ماتيو، كانت فاني ترافقنا في رحلاتنا الصباحية التي نادرًا ما نغير فيها طريقنا.

كنا نحب أن نسير في طريق راسترو عندما تشرق الشمس بأتجاه وادي امبلس الوافر، تحيط الأسوار بالممر، لما نصل مستنقعات اداخا لنقتل الوقت هناك حتى يحين وقت تناول الطعام، شعاع تلك الساعات ينبثق من الطبيعة ليبلغ أرواحنا حتى بقية اليوم، يرتفع طريق راسترو كما شرفة فوق الوادي، لما نتكئ على الجدار أنا والفريدو وفاني لنملي ناظرينا من تمام الصباح، الذي يرتفع أمام الأسوار، التي يخفيها الضباب وسفوح الجبال الصخرية التي كستها السماء بلونها، كأنها مدينة أخرى مسوّرة تتحدى نزاعنا الشخصي، على قممها مازال الجليد ظاهرا

كثياب بيض تنبسط لتتشمس، نسيمها خفيف، في الأسفل على مبعدة بضعة أمتار منا تنتشر البنايات والأديرة حتى تصل إلى الحقول المزروعة بالحبوب والخضروات، تنتشر قطعا بلون أخضر متباين وبراعم خصبة من أمنا الأرض، ثم نهبط فرحين لنتبع منحدر طريق الراسترو منجذبين نحو مجرى نهر اداخا، وفوق رؤوسنا يحلق طائر السُمام الأسود ناعقًا، يحلق بسرعة فائقة طائشًا فوق فتحات الأسوار ليخرج بعدها مودعًا باتجاه معاكس ككرات ارتدت ضد حاجز، عند نهاية الأسوار، ننزلق على سلالم الجانب الأيسر حتى نبلغ ضفة نهر اداخا، يأتي النهر منحيا بقوة بسبب موسم الصيف، مجراه ينزلق لحظات كشخص مصاب بمرض السل سريعًا مهرولًا، ولما تنحصر المياه تترك أرضا كأنها مستنقع مكشوفة منخفضة رمادية اللون، كل صباح هنالك من يجمع التراب ليستعمله فيما بعد لأشياء ما زالت مجهولة لي. على ضفة النهر تزداد متعتنا. (هنالك شيء في الماء وفي النار يجذب الأطفال فقط) مجرد تأملنا شيئا مغريًا ويستحق الإعجاب، كانت فاني تنبح معنا على الماء وعلى الضفادع التي تتمادى بنقيقها في البرك التي هجرها الماء إلا من أوراق الشجر الذي تمضي مع مجراه....

بدت فاني في تلك اللحظات متلذذة بمتعة الحياة، كأنها تدرك أنها من الصعب لأن تكون كائنًا حيا يعيش في هذا العالم، لا أستطيع أن أنكر لو أن والدها ارتبط بكلبة أخرى مختلفة عن والدتها لن تكون موجودة هنا تنبح على الضفادع والأوراق الخضراء التي تطفو فوق النهر....

يبدو أنها تعرف مجموعة الصعوبات والمخاطر الذي يخضع لها كل كائن حي يعيش على وجه البسيطة، لربما أجدادها انفسهم كسروا سلسلة تشكل هي الآن آخر حلقة فيها وليس كائنًا آخر، ربما لهذا السبب كانت تعبر فاني عن فرحة الحياة، لتعلنه بنباحها الحاد بلا ذريعة، تعودنا أن نستثمر حماس فاني الشديد فنرمي بقطعة عصا صغيرة في النهر، فترتاب الكلبة في البداية دوما، تتأرجح بقوائمها الأمامية ثم تغطس في الماء لتنبح بأقصى مستطاعها، وفي نهاية المطاف تقرر أن تسبح نحو

العصا مسرعة بقدر ما تسمح لها قدرتها ككلبة، اعتدنا أن نستلقي بين الأدغال نتحدث عن أشياء تمسنا، كما جرت العادة، البيت الذي نتحرك في أحضانه مشغولين دوما بخياراتنا، كنت أستمتع جدا بالمفاهيم التي يمنحها الفريدو للأشخاص والأشياء الذين أنا أيضا أعرفهم. كان الفريدو قوي الملاحظة، بالرغْم أنه قلما يجد تبريرًا للتفاصيل والأحداث التي يلاحظها يوميًا، كان يجد كل الأعمال إيجابية ليس لها سبب ولا تأثير.

غالبا ما يجدها أنها تطور نقطة محددة يعالجها أستاذنا وعادة ما يفكر بها بصوت عال ليعبر عن فكره، ذات يوم أستفسر مني سبب ظن السيد ليسمس أن اللعب الحجرية في الكوة" أنه أكثر جدية وأفضل منا"،

لكنني لما رأيتها وتمنيتها لكي أوضح أفكارا أنا أفهمها بالرغم من أنني لا أستطيع أن أعبر عنها، شرحت له أن دون ماتيو بسلوكه هذا يريد المواجهة بين جيلين ومفهومين للحياة والحضارة، هو يفهم أن الأنسان الذي عاش منذ خمسة أو عشرة قرون يعيش الواقع أكثر من الآن، فأجتهد لبناء الأسوار والأديرة والكاتدرائيات، لأن مفهومه للحياة أكثر جدية: أحتفظ بوجودك لكي تسمو إلى الله، أستاذنا يوبخ عبث الإنسان المعاصر، الذي يدعي أنه أبن الله لكن يوظف كل همه لاستثمار وجوده الأرضي، بالتالي فالإنسان المعاصر يحدد نفسه بالمحافظة على الآثار القديمة ويشيد المسارح فقط والمقاهي وأماكن أخرى ترفيهية جذورها مادية بحتة. أصغى إلي الفريدو وعيناه مغلقتان شاردًا، فتأمل السماء أيسر له من أن يصغي إلى خطبتي، ذات مرة تطاحنا حول الموضع نفسه قال لي:

-يبدو أن دون ماتيو ابن أحجار ابيلا.

لم أجبه لكنني وجدت كلماته تنطوي على تعريف محدد وفكرة ملتوية موجزة للتركيبة النفسية للسيد ليسمس. أنقطع حوارنا بوصول زملاء آخرين، لقد كونا صداقة مع فتيان آخرين من عمرنا، كنا نجتمع أحيانا حتى الثامنة أو العاشرة بالرغْم أننا لم نكن متفقين، بقدومهم تأخذ التسلية شكلا أخر، ننزع أحذيتنا ونخوض في النهر لنصرخ وننزلق، أحيانا أخرى كنا نصيد الأسماك فنجمع نصف درزن من الأسماك الصغيرة

فنشويها في حفرة صغيرة، لنتشارك بعدها جميعنا بالوليمة، ثم ينتهي يومنا بالوصول إلى الجسر لنبدي أعجابنا من بعيد بوفرة الأنوار والهمس الأصم الذي يهرب من مصنع الطين. (ذلك المصنع كان قوة أداء لا يمكن تفسيرها، لطالما صاغ خيالنا من أجله اشكالا حمقاء بالرغم من أنه لا يوجد سبب لذلك سوى تلك الأنوار اللامعة في وضح النهار والضوضاء الغامضة التي تنبعث من أحشائه.) من هنالك ينطلق حشدنا "لفتح" المدينة، فنتوهم أنفسنا أننا جيش من القرون الوسطى يعدو ممتطيا الجياد الرشيقة، وهدفه الوحيد يكمن في الهجوم على الأسوار " لننتزع من العدو" حصنه. حينما نصل الأسوار، يتوقف كل واحد منا بعصاه أو سيفه أو رمحه، أحد ما يخاطب " الجيش" بصوت نابض بالحياة، بعدها نبدأ بتسلق الأحجار التي يتكون منها أساس السور بشكل عفوي.

-أهجموا!

فنتشتت جميعا حينما نسمع هذا الصوت، وفي دواخلنا يتحفز وهم حقيقي ليكون الحصن ملكنا، ولنطوق دفاعاته المنيعة. فنطلق البنادق الوهمية، والفنطازية، التي تطل من بين فتحات الأسوار. فتمتزج صرخات النصر بتأوهات "الجرحى" ويخترقه عواء فاني فزعة، ثم نتأخر قليلًا في الاستيلاء على الساحة، لربما ربع ساعة أو أقل، بعدها يسقط الحصن بأيدينا لا محالة، ثم نقوم باستعراض في شوارع المدينة بشكل هزيل وعبثي، مقتنعين بحقيقة "بطولتنا".

ولما ندخل البيت، تحيينا السيدة غرغوريا بالسؤال نفسه:

-أين كنتم؟

والجواب واحد:

-في الراسترو.

فتقتنع سيدتنا، لربما لو علمت برحلاتنا إلى المستنقعات ومعبر اداخا وفتوحاتنا المفترضة للمدينة لن تسمح لنا بذلك، لكنها كانت تثق بشكل أعمى بكلامنا، أن أكدنا لها أننا جئنا من الراسترو، وكنا فقط في الراسترو لن تقول لنا شيئا، في أيام الجمعة نغير برنامجنا للذهاب إلى

سوق المواشي الذي يقام خارج الأسوار، في الركن الشمال الشرقي. حيوية تلك الأيام تغمر الجميع، كنا نستمتع بالذهاب إلى هناك لنتذوق آلاف الوقائع التي تنتج عن هذا الحدث.
يهبط سكان القرى الجبلية إلى الأسوار يحملون أكياسهم على الأكتاف، تتبعهم قطعانهم من الأغنام التي راعوها بخبرتهم المتراكمة، يوجد هناك قطعان المواشي والأفراس بألوانها البنية المائلة للسواد، يتعالى هنا وهناك صوت تاجر الخردة ليعلن عن أشياء تافهة، يمتزج مع الحشود أصحاب الاحتياجات الخاصة ليعلنوا عن نفسهم أو عن عوقهم الجسدي، وكأنها تجارة أخرى، ليجلبوا شفقة الحاضرين. أما الغجر، فهم ينتشرون ويستعرضون مهاراتهم بأن يجعلوا الثور ثابتا على قوائمه الأربع بينما يتم المشترون الصفقة ...
لكن أكثر ما كان يجذبنا في ذلك السرب الذي لا يهدأ، المنبثق من غبار كثيف ورائحة نتنة، هم رواة الجرائم، من بين الجميع، لابرونا التي تستمتع بخياراتنا، أذ أن ميزتها القصوى لقصصها تكمن في قدرة قصها غناء برفقة نوتات موسيقية قروية بقيثارة غير متناغمة لزوجها الأعمى.
كانت لا برونا أمرأه شعبية، يلتف دائمًا حولها حشد متشوق وفضولي يردد بعمق الرثاء الدرامي المخيف لأغانيها. يشترك مع لابرونا في حصيلة غنائية مذهلة. هناك من يقول إن لابرونا ملأت مزاريب طرقات إسبانيا بأبنائها، فالزمن لا يقلقها، تجلب وليدها بوسيلتها الخاصة حيثما شاءت لتنتشي بالمفاجأة الحرجة، يولد الطفل معلقًا بحبله السري، يتبناه أحدهم في قرية مجاورة بدلا من الإجهاض وبهذه الطريقة البسيطة لم تفقد لابرونا حريتها، فرنين صوتها الهادر يمكن أن يصل إلى كل أجواء العالم برمته، إضافة لذلك تهتم لابرونا بتغيير برنامجها الغنائي بهدف أن تواصل نشاطها الذي يمنحها حماسًا يدعمها بقوة، فهي لا تقدم نشاطها يوم الجمعة دون أن تجسد أغنية شعبية بكلمات زاخرة. أجد أن صوت لابرونا له تأثير في أخفاض تقديرات مبيعات سوق الجمعة في تلك السنة، كانت الناس تسير قلقة بين الحيوانات حتى تبدأ أنغام لابرونا فيجتمع الجمهور حولها.

هؤلاء البحارة،
قبل ساعات،
كانوا شجعانا متباهين
كانت لابرونا تعبر عن مأساة الملكة رخنته بتأثير يفطر القلوب وعبارات شاذة، فتشع أبصار الجمهور وتسري بالحشد المزدحم رعشة تلو الأخرى، لكن تأجج مشاعر المستمعين يتضاعف عندما يخص السرد مخلوقة رقيقة ومحبوبة، وبخاصة عندما تتحدث عن خطف طفل بريء من قبل زوجة أبيه، كانت تلك الأغنية تثير أيضا الفريدو، لربما بسبب واقعه الحي المشابه لذلك الطفل الذي أسيئت معاملته.(زوجة الأب مدفوعة بغريزتها الإجرامية، -تصور فكرتها الشريرة بوضع الطفل في تابوت، فكان وضعه هناك بائسًا وغير مريح، لكنه يكتسب قوة ساحقة حينما يحين الوقت للطفل أن ينجز مهمة جسدية):
لما رأى
الكثير من الشر
وضعوا له علبة
ليقضي حاجته
فينشج الجمهور ويجهش بالبكاء وتسري فيه قشعريرة بينما لابرونا لا تتأثر، تواصل ثم تواصل أغنيتها المخربة، وأحيانا تمتاز لابرونا باختيار الأغنيات للجمهور المتوسل لها وتكتفي بأن نرمي لقبعة زوجها الأعمى المليئة بقشرة رأسه بضعة سنتات مع كلمات المديح.
-برونا! رنكادو بلد الوليد.
وتقوم لابرونا بتأدية رنكادو بلد الوليد لإرضاء الجميع، ولهذه الفرصة كان الفريدو يجمع ليوم الجمعة كل العملة من فئة سنتين، فيرمي عند أول فرصة قطعة نقدية لقبعة الضرير المتسخة، في لحظة تقول:
- خطف الطفل في تابوت.
وتبدأ لابرونا بالغناء، كل مرة بأحاسيس اشد ألما لذلك الحدث الإجرامي للأم المشوه، كنا نقف دوما لنصغي إلى لابرونا-لا تتغير في أيام

الجمعة-فنتأخر في عودتنا إلى البيت من دون أن ننتبه، فتوبخنا السيدة غريغوريا من دون أن ننبس بكلمة، ترمقنا بناظريها، وتمنعنا من الخروج حتى اليوم التالي.
كانت ليلة يوم الجمعة، في إحدى تلك الليالي التي تردد بها لابرونا ست مرات أغنية الطفل المخطوف بسبب الطلب المتعب والمتكرر لالفريدو، لما أوى لفراشه قال لي:
-هل تظن أنني يمكنني أن أغنى قصة حياتي؟
ضحكت مقهقها.
-أنت لست في تابوت.
-لكن وضعي كالمخطوف.
ضحكت بلا رغبة، محاولًا أن اقلل من أهمية كلامه.
-ستشعر الناس بالسأم من أغنيتك.
- لا أظن لأن لابرونا تعرف كيف تضيف صبغة "لها"، أنه الشر. ثم زفر طويلًا وأضاف:
- لا أدرى ما الذي تحتويه أغنية التابوت لكي أجد نفسي فيها.
عدت لأضحك، أشد من كل مرة، لم يقل شيئا آخر، ثم سمعته يسترخي على سريره المجاور، نمت وقد انتابني إحساس أن الفريدو، بعينيه المفتوحتين، ما زال يقلب في خلده أن لابرونا يمكنها أن تغني أغنية ميلودرامية لحياته.

الفصل السابع

مضى الصيف بمسارات متسقة كأنها ضربا من الوهم، ما كدنا نذوقه. أتذكر شهر مارس وحينذاك كانت العطلة الفصلية أمرا نتطلع لأن نراه في النهاية.

شارع كواترو بوستس-شارع باياسن

لما مضت تيقنت أنه لا يوجد أمر في الحياة يطول أكثر مما ينبغي، لقد انقضت سنة من حياتي منذ أن جاء بي عمي إلى دار دون ماتيو بعربة مجهولة، حينذاك مكثت هنا آثار بضعة أيام، قليلة جدا، لكنها تتميز عن انتظام الأيام الأخرى بسبب خصوصية ميزتها.

فكرت مع نفسي لو أن الحياة العادية تتكون من ستين وحدة كما هذه، فمن قيّم الحياة إنها مجرد نفحة هو محق، تمضي كلحظة عابرة، كواقع يمنح وقتا للتأمل فقط لكنه مازال يبدو كذبة، لقد عشنا الحياة التي ننتمي إليها.

ظهرت عادات جديدة في الدار مع بدء الفصل الجديد، بالتأكيد أكثرها متعة رفقتنا للسيد ليسمس في نزهة طويلة مساء كل يوم أحد، بينما السيدة غريغوريا نادرًا ما ترافقنا، نتركها في الدار تقرأ كتاب التاريخ وتصغي إلى أنغام صندوقها الموسيقي، أو تجهز وجبة كروكيت للعشاء، إحدى هذه النزه الذي احتفظت بها ذاكرتي كانت تلك الذي قمنا بها جميعنا هي الاحتفال بيوم جميع القديسين وسرنا لغاية شارع كواترو بوستس، حيث جرى أمر مختلف عن المعتاد: عاد بنا السيد ماتيو بشكل مغاير ومقلق بوضوح.

أتذكر أننا بدأنا الرحلة نهبط من باب دلوسته، ولما مررنا أمام الباب الرئيسي لدار لوس بولنتينوس، وقف أستاذي وأشار إلى الواجهة بالطرف الخشبي لعصاه.

(بدا مظهره ضعيفًا وغير أنيق وهو يلبس بدلته السوداء، يمسك بيده اليسرى يد مارتينا مشيرًا بالعصا بيده اليمنى إلى المسكن القديم.) كأنه

دلال إيجار يقص علينا بالتفاصيل الدقيقة تطور ذلك القصر، بعد مرور عشر دقائق خلص إلى القول بأن البيت لم يقاوم أكثر من بوابته وجزء من واجهته الرئيسية.
-والجزء الآخر-ختم قوله-قد تهدم حديثًا-التفت إلي لأنني كنت أصغي إليه متعبًا وقال لي بحزم:
أنت تعرف متى تهدم.
لم أكن أعرفه، ولم أحاول التكهن به، لأنه يوجد ألف احتمال في جواب خطأ لقصر شيد منذ عشرة قرون، لذلك فكرت أنه من الأفضل أن أجيب متلعثمًا من دون أن أكون متيقنًا أنه يعود للعصر الحديث، لم تضايقه أجابتني، فالتفت برضا إلى الفريدو ليسأله لأنه لم يحصل على إجابة وافية مني
-أنت تعرف ذلك.
كذلك الفريدو لم يكن يعرفه فاحتذى بي، وقال متمتمًا في العصر الحديث، فقال له دون ماتيو بجفاء:
-كأنك لم تقل شيئا
كلانا صمت.
-لقد تهدم دار بولونينوس في أثناء حرب الاستقلال، وذلك....(أشار إلي)
-في عام 1808.
واصلنا سيرنا باتجاه، شارع بايسبين نزولًا، فشعرت أن حصى الأرض ينقر قدمي جراء الثقوب في نعل حذائي، عند استدارة الشارع نمضي مهرولين بلا توقف، كانت مارتينا تأكل الحلوى بينما غبار الشارع يلتصق بالدسم الذي يحيط فمها الصغير، لما نخرج من السور يفاجئنا طنين معمل الطحين، نتبادل أنا والفريدو النظرات، ثم نولي أنظارنا إلى الأضواء اللامعة هناك، تنبعث من النوافذ أحزمة نور بلا نهاية وآلية جذابة ومجهولة. عبرنا الجسر ولما بلغنا طريق سلمنكة استدرنا إلى اليمين، فأصبحت كواترو بوسته قريبة منا، ولما هبطنا التل جلس دون ماتيو على قاعدة الصليب، ونحن جلسنا حوله.

-انظر-قال لنا فجأة مشيرًا أمامه.
مشيرًا أمامه.
أنها المدينة المسورة، صامتة في ذلك المساء من نوفمبر، كانت تمثل من هناك منظرًا إيحائيا غامضًا، تنبسط على الأطراف منفرجة وكأنها معلقة فوق مطية عملاقة، تنتصب الكاتدرائية وبنايات أخرى شاهقة، وتبرز من فوق البيوت المجاورة كما الأيام الاستثنائية للأعوام المنصرمة فتقفز إلى ذاكرتي بانتظام رمادية اللون للآخرين. تأمل دون ماتيو المدينة برهة ثم نظر إلينا نحن الثلاثة وقال:
-في هذه البقعة قبضوا على سانتا ماريا حينما حاولت أن تهرب من أخيها إلى الموروس.
فانغرزت عيون مارتينا المدورتين البارزتين في إنسانية والدها الخفية.
-لماذا؟
- هربت لتكن شهيدة للرب.
-لماذا؟
-لأنها كانت صالحة وقديسة بل قديسة عظيمة...
(في تلك اللحظة ابتدأت أتكهن أن ابيلا لم تكن مدينة كما بقية المدن، جذورها ضاربة في التاريخ، بخلاف المدن الأخرى، تاريخها ينشط في مدارس التاريخ الحديث، توفر مادة حيوية لها، يكسوها بهيئة خاصة، ويغشاها غطاء الزمن الأخضر الخلاب)
تناولنا الغداء فيما بعد، ثمة نور ساد المدينة يتناسق تمامًا مع اجوائها، لربما لاحظنا ذلك من دون أن نعيه، ولذلك صمتنا فبدا صمتنا مهجورًا وابيضا وشفافًا.
-اليوم الذي سأمتلك فيه نقودا لن أعيش هنا.
نظر دون ماتيو إلى الفريدو وكأن شفتيه نطقت كفرا. لكن الفريدو لم يبال لتلميحه.
-هذه المدينة تبدو ضجرة قديمة.
لم تغادر نظرات السيد ليسمس الفريدو.
-ألا تعجبك ابيلا؟

(نظرت تلقائيًا إلى الأمام، حيث تل كواترو بويته يهوى عند قدمينا حتى نبلغ النهر وإلى جانيه تنهض قمم الأشجار الهامسة الخضراء، وبعيدًا تتدحرج الأرض مرة أخرى حتى تصل إلى السور الصلب الأصفر، وفوق الجوانب الساكنة، يسود صمت كثيف يحفظه الغمام الرمادي الثابت في السماء)

-لا. لا تعجبني المدينة، هنا لا يوجد فرق أن كنت أملك نقودا أم لا، ليس هناك مكان لأصرفها. وبدون أن تصرف النقود لا يمكن أن تعيش سعيدًا...

اكتسبت كلماته في ذلك الجو أهمية حادة كنبات الخشخاش في الحقل، تهرب من الجو، تتنافر في جو عبثا.

-نحتاج سنوات كي نلتفت إلى أن ننبذ عنا السخط هو أن نحقق سعادة كافية في هذا العالم، الطموح من دون معادلة تصيب الناس بالتعاسة أن لم يبلغوا رغباتهم، فالطمأنينة العميقة نادرًا ما يمكن بلوغها وتكون ببساطة حين الضرورة فقط.

أحنى السيد ليسمس راسه منحرفًا، متكئًا على الصليب الحجري بساعديه، ارتسمت شفتي الفريدو ابتسامة ساخرة، ثم شعرت بعكسه ينكز ساقي بشكل متكرر ليلمح لي.

-لربما السر-يضيف دون ماتيو-يمكن أن تحصل على القليل: لأن الحصول على كل شيء لا يمنح السعادة، فالامتلاك يرافقه دوما الخوف من فقدانه، ويولد قلقا مشابهًا لعدم القدرة على امتلاكه، يجب أن نراقب سيطرتنا الوضعية على الأماكن كما على أنفسنا، التي تكاد تكون دوما سبب سعادة الناس.

كانت مارتينا تلعب إلى جانبي بكومة من الأحجار البيض، بينما عكس الفريدو مازال ينكزني في عضلتي على فترات متباعدة، فكرت مطرقًا بالألف ريال الذي يأخذها دون ماتيو شهريًا من المصرف ليسدد غذاء جسده وذكائه، لكن أصرار صديقي الملح جعلت الضحكة تتغرغر في حنجرتي، وبينما السيد ليسمس يواصل كلامه يشع بريق حزين من حدقتيه.

-فالعجز لا يعد مرض الكزاز، لو تركوا لنا الاختيار، سننتقي الأخير، فالإنسان الذي تعود على أثنين لو منحناه ثلاثة سيكون سعيدًا، لكن إذا نقص واحدًا بالكاد سيدرك الفرق، أما الذي تعود على عشر إذا فقد ثلاثة من الصعب أن يستريح لهذا التحديد العسير، وأن بلغ عشرين ليس من أجل ذلك ترتفع سعادته، لأنه ينطوي على شعاع يتخطى مكاسبه التي لا تقدم له فائدة.

لقد تأملت بغتة كيف يبدأ الإنسان باستعمال العقل منطقيًا وباستبصار، لاحظت أن جسدي يفصح عن نفسه كقنينة ويتلقى كل صنوف التأثيرات الخارجية، أظن أنني لاحظت للوهلة الأولى أن الرأي الإنساني يتضمن علاقة سببية هائلة، أن منطق التخاطب العقلاني يستند إلى نتيجة متطرفة، لكن عكس الفريدو الذي ينكز عضلتي يحثني لأن أفكر بالرغم من كل شيء ويجعلني أن أبتسم، أو أضحك بصراحة مقهقها حتى يغدو تشاؤم أستاذنا المر دخانا في الجو، حصلت مارتينا ظاهريا على كوم من الحجارة البيضاء، كانت معجبة بها. بينما فاني تنقب في المزابل القريبة، حل المساء، رأينا أول فانوس يوقد خلف الأسوار، وبعدها برزت أنوار أخرى خضر غير واضحة، لكنني فزعت عندما عاد صوت دون ماتيو مرة أخرى.

-الإنسان المؤمن يدرك أن السعادة غير موجودة في هذا العالم، يتقبل وسائل الشر أملا بنهاية جيدة، لربما هذا الأمل بمنزلة دافع كبير ليبلغ السعادة التي يمكن أن يحصل عليها حينما يبحث عنها، من دون أن يشعر بالتخمة حتى آخر قطرة متعة، لا، فحقيقة الحياة الدنيوية ليست للمؤمن، كذلك ليست للفاسد، بالنسبة له الحياة أمل وللأخر ضجر، فالحياة الدنيوية لإنسان محايد، لم يؤسس قاعدة سعادته على شيء متهالك ومحدد، ولا على حياة قادمة، أنها لمن جعل الحياة خبرة بلا عمق ولا أفق ممتد ولا تماسك ولا جذر....

ثم صمت برهة وبعدها واصل:

-أظنها ستكون مثالية الجسد، أي مثالية الإنسان أن أصبح كل شيء ماديًا، لكن خلف ذلك الروح، وبفضلها يتنفس الجسد، ثمة ظلال تعيش

للعالم فقط. تناهى عواء فاني من خلفنا، نظرت شزرا لالفريدو فلاحظت ابتسامه شك اضاءت وجه، كانت مارتينا تزحف نحو التل، رآها دون ماتيو فنهض يقفز، سمعت صوتا قريبًا مني.

- يا لها من خطبة.

بالكاد استطاع الفريدو أن يكبح ضحكته، لما نهضت أهديته قرصة كبيرة بساعده وغمزة معبرة، قال دون ماتيو:

-أظن أنها ساعة المغادرة.

عاد السيد ليسمس شيئا فشيئا إلى مزاجه المألوف المتحفظ، فتغير تدريجيًا من دون أن أبالي به. تناول من القفة بقايا وجبة الطعام واعطاها لي، بعدها أمسك بمارتينا من يدها، وابتدأ يهبط المرتفع بتؤدة تتبعه فاني، ترافقه مضطربة، لما بلغنا الجسر حدث أمر مؤسف، مرت عربة محملة بالبرتقال بسرعة من جانبنا، فطرحتنا على عجل حتى كاد دون ماتيو يتدحرج فوق السور، ولوهلة تغير ذعر فاني إلى غضب لا يمكن احتواءه دفعها لتنهض كالحصان تنبح وتضرب بمخالبها، وبعد لحظة رايتها بين العجلات، ناداها دون ماتيو، لكن الكلبة بعنادها واصلت تمردها العقيم.

-فاني!

هزتني صرخة الفريدو وهو مستاء، توقفت الكلبة للحظة ونظرت إلى الخلف، والباقي حدث في لحظة، عجلة العربة المحملة سحقت إحدى قوائمها فوق قارعة الطريق، عوت فاني من الألم ومكثت مددة على الطريق، تلعق الساق المصابة بينما توارت العربة في العتمة، هرولنا كلنا نحو الحيوان الذي يرتجف على الأرض. أنا والفريدو ومارتينا اجهشنا بالبكاء، لكن خيبة الصغيرة مارتينا كانت أشد تأثيرًا، فنظراتها المشفقة جددت دموعي الذي لم أستطع أن أحبسها، كان الطريق إلى البيت كموكب جنازة، أنا في الوسط أضم الكلبة إلى صدري، تطوقني نظرات منطفئة، أما دون ماتيو فهو لوحده اثقلته هذه الحادثة بالحزن، لكن تعابير نظراته ذلك المساء عندما كنا نتكلم متكئين إلى الصليب قد عادت إلى عينيه، وكذلك رنين كلماته كانت عادية.

-ستبقى فاني عرجاء.
فولى آخر أمل، في البداية حكمت بقسوة على السيد ليسمس، لكن بعد لحظة عذرته، فكرت أنه سيكون أشد قسوة لو توهمنا أملا لا أساس له من الصحة.
هنا يظهر الدليل على ما قاله لنا من قبل. (تفحصت تغير العالم بدقيقة، الآن لم يعد الفريدو يضغط علي بمرفقه ولا يضحك بارتياب، بالرغْم ذلك فالدافع يتبدل.) لو أن فاني ولدت عرجاء بساقين اليوم ستشعر بسعادة لأنها تملك ثلاث أرجل، لكنها قبل قليل كانت تسير على أربع أرجل....
أهملت الجملة لتتناثرفي الهواء...
لقد تفهمنا الأمر جميعنا إلا مارتينا وبالتأكيد فاني نفسها، من الواضح هنالك خطر كبير وأن كانت بوضعها الطبيعي نفسه. عندما بدأ دون ماتيو في تلك الليلة بتفتيت عشاء السمك، كانت يداه السمراوان الصغيرتان تتحركان بعصبية عما ألفناهما.

الفصل الثامن

كنت على يقين أن الفريدو فكر بفاني فقط قبل أن ينام في تلك الليلة. (لقد هيئنا كل شيء لنومها بنية صافية، كانت الكلبة تتفحصنا بعينين حزينتين، لكننا بالمقابل نأخذ بالحسبان رغما عنا، لانشغالنا بما نحن فيه، أننا لن نعوضها عن فقدانها إحدى أرجلها، لكن ثمة وضع استثنائي، إلا وهو إمكانية النوم في كيس من خيش منفوش-امتياز لم تعرفه منذ أن جاءت للدنيا-ونظرات العطف الذي نبديها جميعا تجاه رجلها المرضوضة، بل حتى وضعها الجسدي.) شعر الفريدو بالأسف لحادثة الجسر، بلا شك كان حدث اليوم أكثر حدث أثر به منذ أن جاء لدار دون ماتيو، بقية أحداث المساء لم تفقد أدنى جذوتها، مكث كل شيء مدفونًا بعد إدراكنا لوضعها الجسدي القاسي وما رافقه من ألم روحي جراء دعس العربة لفاني.

لربما لم يعد يتذكر الآن، بالكاد انقضت خمس ساعات انفجر ضاحكا وقد غرز مرفقه في عضلتي ليؤكد لي بشكل ساخر أن كلّما حدث مرّ بلا مبالاة، لم يعد الفريدو يتذكر شيئا من هذا، سوى منظر فاني وهي مسجاة ولربما تئن ألما، لابد أنه شغل باله لحظة قبل أن ينام، وما تبقى من أحاسيس من ذلك المساء مكثت وراءه، أي في نهاية تاريخ صديقي، يقينا أنه لن يتذكرها حتى تقفز إليه هذه الذكريات ذات يوم خاو من الخارج والداخل، لكنها مكثت مؤجلة في يومها بمقتضى إحساس أكثر واقعية ودقة.

كان الفريدو يشخر إلى جانبي، يشخر بعد خمس دقائق من استلقائه في الفراش، وقد نسى ساعات المساء المتقدة، كان رنين صوت شخيره في الغرفة أمرا اعتدت عليه، يبدأ غليظًا من الحلق ثم ينتهي بصفير رقيق، ويزداد غلاظة كل مرة، فأرسم بخيالي، قمعا مغلفًا بالفلين قليلًا، أو شكلا مخروطيا لشخيره قاعدته تبدأ من فم صديقي وقمته في أية زاوية مظلمة من سقف الغرفة....

لم أستطع أن أنام، لأن حادث فاني لم يكن حادثا معزولًا عن بقية حوادث اليوم، فهو يشكل حلقة ضمن سلسلة مهلهلة من أسباب وتأثيرات تجلت لي ذلك المساء للمرة الأولى، أنها النتيجة الخارجية لمنطق أستاذي الواضح، في كلماته وفي حادث الجسر يوجد أكثر من سبب وأكثر من صلة ومن مصادفة، تكهنت بعد كل ذلك أنها مشيئة الخالق لتظهر آياتها لما كانت عليه الحياة وما قد تحتويه، تنبهت بوضوح أن رأسي يترك نوم القيلولة المريح للتقاعس بعمر أثني عشر عاما ليتغلغل في مرحلة نشاط غريب. توقفت عن التحرك بما تمليه علي دوافعي، فالعقل يدعي أنه مركز التحكم لكل أفعالي وارادتي، أدركت بوضوح أن تهشيم الطباع حتى اليوم يمنع ذهني من العمل الطبيعي، ليغلفه من دون أن يترك أثرا كأنه لم يدشن بعد. أختلف كل شيء الآن، أنا لم أعد أعرف بالحدس ولا بالتعقل، ألمح الحياة بنطاق مختلف عن الأفق المحدد بلون الورد، بل حتى اللحظة، آفاقها محدودة، ولما تكدست أفكاري، هرب ذهني إلى معمل الطحين من الجانب الآخر من السور، أعدت صياغة ذهني بطريقة مشابهة لتلك الآلية الغامضة، التي تمارسها علينا قوة اقتراح غير مسموعة، ملائمًا إياها أي بما يتفق وذهني، أشرطة صغيرة بلا نهاية، تروس صغيرة وأنوار ملونة تشير إلى أسفل جمجمتي لتشير إلى حيوية العالم، فتربط الإحداث مع بعضها من دون أن تجمعها نقطة واحدة من أول نظرة، وجدت نفسي كأنني أرتدي طبقة من الخبرة لم يبلغها بعد، بدأت تلك الليلة أستعمل العقل، كانت دواخلي مفتوحة، كما كانت هيأتي الخارجية كيوم أحد عيد الشعانين الحافل. خمنت أنني بدأت أصبح رجلا من الداخل، رجلا قادرا على أن يحدد وجوده الروحي في لحظة معينة، أن يربط حاضره مع ماضيه ومستقبله، أن يفصل ما بين الخصام والود بين الخير والشر، أن يأخذ قرارته بنفسه... ولاحظت أن من يكلمني يقظا هو أستاذي بكلماته التي تدور حول السعادة، بوسع رأسي أن يميز الفرق ما بين السعادة والتعاسة، فتلافيفه تعمل الآن بتأثير مادة يفرزها العقل، بدأت أحلل العالم والحياة من زاوية مختلفة عن التي استعملتها في الأنثي عشر عاما

الماضية، أشعر أنني قادر على التوازن والتمعن والقول، لتقييم نفسي بكلمة واحدة.
وكل هذا يعود إلى شرح دون ماتيو البارد، لقد كان يدمج دروسه بكل جوانب حياته وقراراته ونتائجها وكلماته التي ينطقها تجعلني أنقلب على ذاتي فأمتصها كالإسفنجة، تكاد رأسي تؤلمني حينما أبدا هذه المرحلة الممتلئة من التفكير، أدركت تمامًا أن تحت عظام جمجمتي نبض حياة وانطلاقة عقل وبداية تيار مقتدر يجعلني اشعر أنني مختلف عما كنت عليه حتى الآن.
لكن صرخة محزنة من الجانب الآخر من الجدار الفاصل أوقفت مسيرة تأملاتي، لطالما حلمت مارتينا بكلاب صغيرة متعثرة مرات عديدة بسبب سواقين بلا خبرة ولا وازع، لقد ضبط الفريدو أنفاسه لكي تعود أكثر توازنا وتناظرا، فكرت مليا بقوة منطق دلائل السيد ليسمس، فالسعادة والتعاسة كانتا ببساطة مسألة مرونة المقدرة على الانعتاق، الحياة تمضي بتوازن ثابت بين ما يؤخذ وما يترك، ليس من الصعب أن تأخذ بل أن تترك، أن نتخلى عن الأشياء التي تستحق تقديرنا، هنا ترتكز إمكانات السعادة لكل أنسان:
حيث المقدرة على الانعتاق تكون مطاطه، حيث الإنسان هوائيًا أو أقل تمسكا بالأشياء المادية، لذلك قد يكمن مضمون السر الأساسي في الواقع هو أن لا نأخذ أبدا كيلا يجب عليك أن تترك أي شيء، أنه علاج سلبي في التنازل لكن من المؤكد الجزء المناسب لنوعيتي الإنسانية التي تخلو من التحفظات والقدرة على التضحية، وكل ما مشكوك فيه يكمن في معرفة أن كان الإنسان الأول يملك احتمال قدرة البقاء من دون أن يتعلم شيئا، متخليا عن كل شيء من دون أن يتواصل مع الكائنات والأشياء المحيطة به، وأن كان الفرد قادرا على تطوير شخصيته الخاصة والبدائية من دون الحاجة إلى الاستعانة بموارد غريبة عن نفسه.
فالرأس يبدأ بتحفيزي تصقله توالي أزمنة التفكير الأولى. وودت أن أتخيل حبة قمح معزولة عن بقية الحبوب، دون أن تختلط بحبة أخرى داخل الكيس، وددت أن أستطيع أن أتصور حبة رمل على الشاطئ دون

أن ترتبط بأطراف أخرى، تمنيت أن أعزل بقعة ماء في حضن البحر، لكنني لم أستطع، فالواقع يمنعني بسلاح المنطق، لا يوجد شيء في العالم من دون علاقة استقلال وتناسق وسيطرة، لأن كل شيء منضبط بنظام محدد مسبقًا، خاضع لقوانين قاتلة وطوعية، لكن بحد ذاته يتحدث عن تناسق واتصال نسبي في الأقل، تمنيت أن أتصور نفسي رجلا مستقلًا ومنعزل عن بقية الناس والأشياء بدرجة مطلقة، عادت مخيلتي إلى صخرة منعزلة لبحر الكون الكبير، هناك وضعت الإنسان الذي تخيلته، وكلته مهمة حارس المنارة، لكنه فرض علي مجددًا قوة الواقع بعناد، ذلك الرجل يأتي من قاعدة عمود طبيعية لرجل آخر، يجب على المنارة أن تضيء الليل لتجنب بقية الناس حطام مركب وبخاصة حارس المنارة يجب أن يستجيب إلى متطلبات لا مفر منها: كالطعام والملابس وتهذيب النفس، مازال الرجل الذي يخصني مكبلًا، معلقًا برشقات بلا نهاية من الاستقلالية والصلة والتناسق القاتل مع رجال آخرين وأشياء أخرى، فالإنسان المعزول لا يمكن تصوره. ما بين هذا التوازن لا يمكن أن نتوسط ما يؤخذ وما يترك فأن أخذت يجب عليك أن تترك شيئا، أن مفترق الإيثار هو النقطة التي يجب أن يصل إليها الجميع بحكم الضرورة، فأرجاء تدفق أفكاري كما عواء مؤسف، أرهف مسمعي لكنني لن أكرره، أطرقت مفكرًا أن كانت أحساسيسي لا تلعب معي لعبة مسيئة، لم يتأثر الفريدو هذه المرة، فواصل شخيره، فتبرز في إحدى زاويا الغرفة قمع مخروطي الشكل، كمرسلات غير ملموسة لا نهاية لها بينما أنوار ذهني تنشطت مجددًا، باختصار تمامًا كما في أحشاء المصنع عندما نتأمله من الجسر، سأفحص الآن بطريقة مثالية محتوى الحياة، فصورة الإنسان الآخر نقشت في ذهني مجددًا وملامحه الفيزيائية تتوافق تمامًا مع حارس المنارة الوهمي، أمضي في درب ضيق وبغتة أراه يطأطئ ويتناول من الجانب الأيمن زهرة، كانت زهرة اقحوان في قلبها الأصفر أربعة حروف تقول " الحب"، وضعها في عروة سترته الأمامية مبتسمًا ثم واصل ماضيًا، وبعد لحظة أنحنى مرة أخرى فوق الجانب الأيمن وتناول زهرة أخرى: كانت زهرة بنفسج، وعليها أربعة

حروف أخرى تشكل في حضنها كلمة" الأبن".بعدها تناول ثلاث زهرات بنفسج أخرى بالنقش نفسه وبعدها زهرتين مختلفتين في إحداهما يقرأ "زيادة النوع والدخل" والصحة في الأخرى. هذه كانت زهرة الخشخاش، تناولها الرجل كلها وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه، بغتة أنتبه أن زهرة الخشخاش كانت نحيفة ومتهدله وذابلة، توقف الرجل فورًا وابتسم ورمى الزهرة إلى الجهة اليسرى، انتبهت أنه أبتدأ مرحلة التنازلات والإيثار، لأن زهرة الأقحوان ابتدأت تفقد رويدا براعمها البيضاء، تنهد الرجل ورماها بعيدًا عنه، لكنه واصل طريقه متقدمًا، منهك المظهر وفاقدًا للوعي، مستنفدًا بقايا الحياة، لكن الرجل مازال يسعى لأن ينفصل عن أزهار البنفسج الصغيرة، ولما رمى التعاسة أجهش بالبكاء كطفل، على مبعدة قليلًا تمايل الرجل ومكث معلقًا بالطريق، بغتة خلصت الأزهار البنفسجية الثلاث نفسها من ضغط يديه الذي تحتفظ بها بمودة وتحولت بفضل معجزة رائعة إلى ثلاث فتيات بعمري، واحدة تلو الأخرى لكنهن انفصلوا عن بعضهن ثم مضوا في الطريق وواصلوا إلى الأمام، رايتهم يتحولن إلى رجال رويدا رويدا، ثم رايتهم يتوارون وقد التقطوا أزهارا جميلة من الجانب الأيمن للطريق، ثم لاحظت أنهم مسخوا تمامًا واضطروا أن يرموا إلى جهة اليسار بعض الأزهار التي التقطت سابقا من الجهة اليمنى...

الآن تعالى عواء معاتبًا، لقد أجهضت ذكرى فاني صور مخيلتي، عدت لأسمع العواء الحزين، كان رقيقًا مختنق الصوت فكنت اسمعه لوحدي، أويت إلى سريري وللمرة الثالثة شعرت بالرثاء نحوها، لبست النعل بقدمي وتقدمت نحو البابا التمس في الظلمة فتحته لأتجنب إيقاظ الفريدو، وهو تنحنح ثم عطس، انتظرت حتى أنتظم شخيره بشكل عادي، ثم انطلقت على رؤوس أصابعي في الممر وفتحت نور المطبخ، التمعت الصراصير فجأة، مكثت ساكنة على الأرض، تحاول أن تخفي مظهرها الأسود، ثم انطلقت تركض في اتجاهات مختلفة، لتختبئ في الفتحات، اقتربت من فاني، رمقتني بنظرات حنونه حزينة، كان أنينها الرقيق

يتكرر كل مرة وتلعق بلسانها رجلها المكسور، داعبتها بلطف فاندهشت منها، اخترقني بريق عينيها البني لتشكرني بامتنان:
-مسكينة فاني... أنها تتألم، حقا؟ غدا ستتحسن.
أخذتها بين ذراعي، فانتبهت أنها ترتجف، لم أكن أشك في الأمر، أطفأت الضياء وفاني بين ساعدي أويت إلى غرفتي، كان الجميع نائمين، واستلقيت إلى جانبها قدر مستطاعي فوق الفراش، غطيتها بالبطانية، وجعلتها تسترخي فوق صدري، انتبهت حينذاك أن الوسادة كانت رطبة وأنا كنت ابكي محزونا، كانت فاني تشتكي فضممتها أكثر إلى صدري.
-فاني، كلبتي الحبيبة...-قلت لها برقة-أن كنت ولدت برجلين مكسورتين اليوم سيكون أسعد يوم في حياتك حينما تجدين نفسك بثلاث... لكن التخلي مكلف...
أطلقت مارتينا صيحة من سريرها، تململ برهة الفريدو ثم عاد ليعطس، ثم عاد إلى تنفسه الايقاعي، بعد دقائق نمنا أنا وفاني متعانقين.

الفصل التاسع

ابتدأ فصل الربيع زارنا بعض أقارب السيدة غريغوريا ليقضوا معنا بضعة أسابيع، كانا زوجين بالرغْم أن مظهرهما يدل على أنهما أم وأبن، هي كانت بدينة كرشها بارز وكأنها تبلغ من العمر ستين عاما ومتعبة، أما هو كان نموذجًا لرجل متميز عريض المنكبين وممتلئ القوام يعمل قبطانا في البحرية التجارية.

كان متقاعدًا في ذلك الوقت، بعيدًا عن خفة ودفء حكاياته، علمنا تجارب جديدة، هي ثمرة خبرته ورؤيته الجادة، كانت تلك الأسابيع الثلاثة للسيدة غريغوريا كوخزة مهماز كسرت رتابة الحياة اليومية المنغلقة، فتحولت إلى أمرأة أخرى، كان تبدو نشطة ومتحفزة ومحبة للحياة بل حتى أكثر ثرثرة، فحضور أبن عمها المزعوم-فالأقارب الحقيقين كانت المرأتان- يجدد بريقها مذكرًا إياها دوما بوضعها كامرأة، بفضله استطعنا أنا والفريدو أن نفهم الكثير من الأشياء التي تحدث في تلك البقاع المائية بلونها الأزرق الذي يسميها الناس البحار، فرددت مربيتنا كلامًا معهودًا فرددت " لابد أن عمل البحار جميل جدا" كانت دوما تختم به حديثها في كل فكرة تطرحها.

-أنه عمل مسر ومحزن -قال البحار-لأنه على أتصال دائم بالمجهول ويتجاهل بالمقابل كل الأشياء الصغيرة ويئد التفاصيل العائلية، عملنا يجعل الشخص يحيا حياة متنكرة دوما ونشطة دوما، ويغير باستمرار الوجوه والمناظر، فالبحار يشبه التهاب صدري، يظهر من دون توقع ثم يتلاشى عندما يبدأ التعايش معه. لا يرسخ مطلقًا في أي مكان، ولا نستطيع أن نرميه، أنا لا أنصح بالعمل كبحار أبدا وأن كانت حياة الرجل الشخصية مزدحمة، لأن هذا الرجل أعتاد على حياة عادية وتجذر بها وبأحداثها الخارجية التي تؤثر به وتتكرر، أما البحار فالأحداث الخارجية بالكاد لها تأثير عليه بسبب تغيرها الدائم.

-لذلك عمل البحار ممتع جدا.

كانت العبارة المعهودة لمربيتنا تستفز الزائر، كأنها كلمة سحرية تجعله يحرك لسانه من دون كلل، وعلى هذا المنوال تتطرق حكاياته إلى حوادث أحيانا لا تصدق: حرائق في أعالي البحار واصطدام السفن والإعصار المدمر.... استمتعنا أنا والفريدو بالزيارة بشكل لا يوصف، أخذتنا إلى أحداث مبهمة ومناظر وأشياء قصية ومجهولة، ابتدأت بالبحر بكل ما يحتويه من غموض، بعد ذلك الحديث قرأنا لاحقا بعض كتب المغامرات البحرية، فتلك الزيارة جعلتنا نتخيل كأنها جسر حملتنا إلى قمة الخيال الذي يتبوأ الواقع، يمكن أن نتلمس ونرتشف من خلالها مذاق كل الأكاذيب الأخاذة التي ذقناها سابقا في الكتب المطبوعة.

اعتادت السيدة سيرفاندا زوجة البحار أن تنام في أثناء جلسات السمر على المفرش، بينما زوجها كان يثير أعصابنا أنا والفريدو بحكاياته الرائعة، كانت تنام وتفاحتاها الكبيرتان مترهلتان فوق بطنها المنتفخة، تتنفس بشراسة وشخيرها كما العواصف التي يصفها زوجها بتفاصيلها الدقيقة تتجسد في شخير السيدة التي تمثلها بصدق وتكاد تكون كما الإعصار قوة. هذا الإهمال جعل من بطولات الزوجين حافزًا لأن أشك أنه لا يوجد أحد يعوزه بعض النشاط أو المميزات للقيام بالبطولات كالرجال مثل الأشخاص الذين يكملون الدائرة الضيقة لمجموعة عائلية.

بالمقابل، بالنسبة لأستاذنا كانت حكايات دون فيليب تقدم اغراءات محفزة، بالرغْم أن لفضوله معنى مختلفًا عنا، كان يهتم كثيرًا بتجارة التصدير والاستيراد، والمنظومة المعقدة والمشتبكة لتكاليف الجمارك، والأسماك المعروفة وأنواع أخرى بحرية، وبخاصة التي تحني حاليًا دفة الميزان التجاري بين إسبانيا وأمم الشرق الأوسط. حينما يتورط دون فيليب المسكين بهذه المسائل يمسي كالذي يعاني من سكرة الموت، وجهه الملفوح يتصبب عرقا والمنديل الذي يستعمله يجعل من رحلات صاحبه أكثر ترددا مثلا عندما يسهب في توثيق مناظر مثيرة ودموية بالتفصيل.

ذات مساء أصطحب دون ماتيو ضيوفه ليشاهدوا المدينة، مكثنا أنا والفريدو ومارتينا في البيت، لم تتقبل السيدة سيرفاندا الرحلة فعرفوا أن

قدميها ستتعبان من المسير فعادوا في ساعات متأخرة من الليل، يتسامرون حول المواصفات المعمارية الغريبة لمدينة ابيلا التي تحتفظ بها أسوارها.
من الطبيعي أن يتوقفوا في ساحة كواترو بوستس للاستمتاع بتأمل المدينة البعيدة، أكثر ما تحدثت عنه السيدة سيرفامدا بإعجاب هو أن نصف المدينة محاط بسور والنصف الآخر ليس كذلك، أحدهم حاول أن يجعلها ترى مدينة ابيلا الأصلية التي كانت كلها خلف جدران الحصن، تذرعت السيدة سيرفاندا في نظريتها إذا كان الأمر كذلك، كيف نشرح لها أن خارج الأسوار توجد بنايات أكثر قدما مما في داخلها، كانت السيدة سيرفاندا عنيدة كالبغل حينما تتحاور، وبخاصة لمن يحاول أن يجادلها ويجعلها ترى النقص في حجتها.
غطت السيدة سيرفاندا كرشها بيديها الممتلئتين ونامت بعدها بينما دون فيليب أخذ يقص روائع آفاق ابيلا الممتدة للنظر من ساحة كواترو بوستس، نبهه دون ماتيو أنه لو رأى المدينة من هذا المكان شتاء مغطاة بالثلج ونور القمر. (ولما قام السيد ليسمس بهذه الإشارة لاحظت أن زياراتنا لم تحظ بهذه الأشياء الجميلة التي كانت أكثر جمالًا وأتساعا، ولسوء الحظ لسبب أو آخر، يوجد شيء يجعلها تفقد رونقها ويحط من قيمتها وينتقصها من صفاتها البارزة الوحيدة) أصر البحار بالرغم من أسفه أن ابيلا عندما ترى من كواترو بوستس تبدو تحفة تاريخية وفنية ذات قيمة كبيرة، بينما أصر أستاذنا أنه لا يوجد مقارنة بين ما يُرى وما قد يرونه لو تشجعوا ليعودوا في الشتاء القادم، عندما تتألق المدينة تحت وفرة الثلج ويطل القمر من بين سقوفها شاحب مطفأ فيبدو كطيفها.
انتهى دون فيليب مؤكدًا أنهم سيعودون في الشتاء القادم أن كان هذا ممكنًا، بالنسبة للسيدة سيرفاندا فهي لا تكبح ما في داخلها من استلهام عميق وتأملات عاصفة، ثم قررنا جميعنا أن نمضي إلى غرفنا، ولما انفردت بالفريدو عرضت عليه الفكرة التي تلح على ذهني منذ لحظات:
-يجب أن نذهب إلى كواترو بوستس ذات ليلة شتاء عندما يكسو الثلج كل شيء ويلمع القمر في السماء، نظر إلي الفريدو وكأنه ينظر لغريب.

-لا يمكن أن نفعل ذلك وأنت تعرف، فالسيدة غرغوريا لن تسمح لنا أن نخرج ليلا ولا سيما عندما يهطل الثلج في المدينة.
ضحكت من التصرف الصبياني لافريدو، كان مشروعي أبعد من الخضوع والطاعة، كان أكثر جرأة وأكثر انفتاحًا، حدقت بخطوط التقاء حاجبيه الذين كادا أن يكونا بيضاوين وقلت برباطة جأش:
-سنهرب عندما ينام الجميع، نافذتنا ترتفع عن الأرض مترا ونصف المتر، لن ينتبه أحد إلى هروبنا، وهكذا ستكون مغامرة متكاملة.
برقت عينا الفريدو بوضوح وتعابير وجهه أوحت لي لو كان زمام الأمور بيده سيجعل من رقائق الثلج أطباقا وحبالًا فوق تلك السماء الدافئة من شهر نيسان بقمره الشاحب الباهت اللون والمنفر لينقض على شهور الشتاء المثلجة، تأييده لمشروعي بتلك الفرحة ملأني حبورًا، بالرغْم أن فكرتي لم تنضج لكنها اكتسبت أمكانية إنجازها بعفوية وتحمس الفريدو لها، تهيئنا لنخطط لمناقشاتنا حول ما نترجاه من المستقبل، سبقني الفريدو وفجأة أمسك كتفي بيديه:
-كذلك يمكننا أن نرى المعمل ليلا، ألم تفكر بذلك حقا؟
الحديث عما هو بعيد يبدو أمرا مبالغًا به لكي يكون أكيد، فوهم فرارنا وسحر تزحلقنا في شوارع كساها الثلج في فجر مقمر كانت فكرة لا تصدق من أننا نستطيع إعادة تنشيط مشاعرنا عن المدينة المنغلقة والصامتة والمثلجة ثم تلاها تحفزنا واستلهامنا لقدرتنا على التشذيب بيدينا طاحونة المصنع الصامت والداكن، وكأننا نتعامل مع عفريت نائم.
استلقينا في أسرتنا وتزاحمنا في تبادل الكلام بالتناوب، سواء ما خططنا له في تلك الحملة لنؤكد إخفاقنا في إنجاز ما فكرنا به، أظن أننا سنذوي حزنا، في تلك الليلة لم نُصل، لقد حلمت ببعض الساحرات الطيبات يرتدين ملابس بيضاء يتنزهن وهن يمتطين مكانسهن طائرات، لقد كسى الثلج كل الأشياء و أطل وميض القمر واهنًا في السماء، بدا ظل ساحرة أخرى وافتها المنية بغتة في الليلة السابقة عندما رحلت من إلى كوكب المريخ، أما الفريدو فقد قص علي في اليوم التالي حلمه أيضا بأشياء غريبة، حيث قمنا برحلة ليلة إلى ساحة كواترو بوستس، لكن لا

كواترو بوستس كانت هي نفسها ولا مدينة ابيلا كانت ابيلا ولا نحن كنا نحن أنفسنا، لم أكترث لحلم الفريدو بسبب افتقاره للمنطق و الوضوح ، لم أفهم ما يسعى لأن يسرده علي، لربما كان مكرها لما تسببه الأحلام من قلق وكدر لأمور غير واقعية، كانت النتيجة أن هناك لا أحد ولا حتى المشهد، بل لم نستفد من وجود شخصية بلا ملامح حاضرة و متورطة، فالحلم لم يكن حلما، بل كابوسًا.
جاءت فاني في اليوم التالي تتسلق على باب غرفتنا، انسحبت من سريري وتركتها تدخل، لم تعد فاني كئيبة كما الأيام الأولى حينما وجدت نفسها مرغمة على أن تستغني عن رجلها، بدت سعيدة بثلاث أرجل أو بالأحرى بحياة عرجاء يبدو إنها لم تكتئب حزنا جراء مصيبتها بل تمكنت من تجاوزها.
تناولنا فطورنا معها وبعدها طردناها لأننا ملزمون بتحضير واجباتنا المدرسية، لما حان وقت الطعام، أبدت السيدة غريغوريا استياءها، انتهت لتوها من تناول الشراب من منبعها التعليمي تاريخ إسبانيا وأميركا، كانت تتوق لأن توجه رأيها النقدي نحو شيء محدد ينخر كما السرطان.
-هذه هي الذروة-قالت فجأة لما انتهينا من الجلوس حول المائدة، ساد صمت مربك لنتقصى نية السيدة غريغوريا-.
يبدو أن في برشلونة أصبحت موضة أن تحمل زاد السفر في الحافلة، لقد فرغت من قراءة الخبر، ليس لدي اطلاع على هذه الأجهزة، لكنها غير لائقة ولاتحضى بالاحترام.
انتفخ بطن السيدة سيرفاندا، فشبكت ساعديها فوقها كيلا تسرق حيزا من الفضاء بموجاتها الصوتية.
-أشياء حضارية.
فهم البحار كل شيء فأشترك على الفور.
- الجانب الروحي للحضارة هو تنازلي.
هذه العبارة أعجبت دون ماتيو بشكل خاص فبادر بدوره ليشارك برأيه.

-أنا متفق معك، الإنسان ينخدع برفاهيته المادية، لا يريد أن يفهم أن التطور المادي يتطلب أرضية من الروحانية يستند إليها، بهذا الشكل يشيد بناء مزيفًا فيجلب إليه خطرا يباغته في لحظة لم تؤخذ بعين الاعتبار.
ضحكت السيدة غريغوريا من الصخب الذي أثارته، تأملتنا جميعا بعينين طبيعيتين من دون تعابير ولا غموض ولا نفاق، كان دون ماتيو يفتت الخبز براحة يده السمراء.
-لماذا لا أفهم أنا هذه الأشياء الجديدة، لو استمرينا هكذا، سيأتي يوم نطير كلنا بالهواء.
بعد أن قال هذه الجملة حلت السيدة سيرفاندا بطنها فتوسع، فأتاحت فرصة للسيدة غرغوريا لنقطة دعم جديدة، نظفت أنفها بمنديل وأضافت:
-ما أريد أن أقوله إن المواصلة على هذه الشاكلة لن تؤخرنا لأن نرى الأشياء المقدسة ترتفع بمنطاد لتهب العون لإنسان يحتضر، وهذا ليس بالأمر الحسن، أظن أن الأسرار المقدسة كانت موجودة سابقا معًا مع الحضارة-أكدت جازمة-بالرغْم أنها اكتملت بالمنطاد وتحفهم بتحركات تضمن لهم أقصى الضمانات.
تدخل دون فيليب مرة أخرى:
-لهذا يجب على حضراتكم ألّا تشتكوا، أنتم تعيشون هنا كما في العصور الوسطى.
تنهد السيد ليسمس، لم يرق له أن يتدخل بهذا الموضوع.
-لن تذهب حضرتك بعيدًا، هنا يمكنك أن تدرك أفضل من أي مكان آخر نشوة قيمنا الروحية الحضارية، لربما حتى الحجارة تحتوي على هذه القيم، وبعد أن قمت بعدة جولات، أتخيل دوما أن الحضارة مثل مكينة، كأي شيء طفيلي، ستمتص أفضل المواد من أرواحنا لتحولها إلى مركبات ومناطيد وسينما وأجهزة أخرى غريبة لتحولها آثارًا لمادية بحتة، باختصار، بمقتضى الحضارة، تمسي الروح مادة خام لتتحول إلى منتجات للعناية بالجسد حصريا.

بدا حوارًا متحذلقًا ومغرورًا ومضجرًا. رمقني الفريدو وغمز بعينيه، كنت أعرف الإشارة فجعلت شوكة الطعام تسقط على الأرض، يكفينا ذلك الزلزال الخفيف لنجلب انتباه السيدة غريغوريا لحضورنا، فقطعت الجلسة لتأمرنا بالذهاب إلى غرفتنا، ونتحرر بذلك من الشعور بالنعاس والملل من تلك المحادثة غير الممتعة. ظننت بأن سقوط الشوكة خدم السيدة سيرفاندا أيضا للاستئذان للنوم، بل أظن أيضا: أن دون فيليب انتهز ما حدث من ارتباك ليهرب من الموضوع الذي يبدو أنه لم يسره كثيرًا.

أخذ صندوق الموسيقى للسيدة غريغوريا يبث ألحانا نادرة مدة عشر دقائق بعد أن انسحبنا أنا والفريدو، فعلمت أن الجلسة قد انفضت، شعرت بفخر للعمل الجيد الذي حقق أنجازا كبيرًا.

الفصل العاشر

بعد إقامة السيدة سيرفاندا والسيد فيليب بقيت لدي رغبتان ملحتان: التعرف على البحر وتأمل المدينة وهي مثلجة من ساحة كواترو بوستس في ليلة مقمرة، لكن التعلق بخيط من الوهم يتكون مسبقًا واستحالة أن ترى تلك الرغبات موضع تطبيق لتنتهي إلى أن تزيلها من رأسك بلحظة فتبعد هذا الوهم من دون إمكانية تطبيقه .

مع حلول فصل الربيع استئنافنا عادة نزهة يوم الأحد الطويلة، كان دون ماتيو يتصدر الزمرة وهو يحشر نفسه في بدلة سوداء قبيحة يقود المجموعة، بينما فاني تقفز إلى جانبنا كأنها لم تفقد رجلها تتصدرنا في ذلك الطريق المنحوس لأشجار البرتقال، فكرت في قرارة نفسي أن صرخة المقدرة على الانعتاق عند الكلبة كانت استثنائية ومرنة ومتطورة بدرجة عالية. ذات يوم مررنا بلوس دينس ومشينا حتى المقبرة، كان مساء مشمسًا ودافئا، تأرجحت نفحات النسيم العابرة الآتية من الجبال لمداعبتنا، لما تركنا المدينة وراءنا غمرتني رغبة جامحة لأن أعيش ألف عام ملتصقًا بهذا اليوم، بهذه الدقيقة، بهذه اللحظة، توقعت لنفسي موقنًا بمستقبل مرير أن اكتفيت بالقليل ، كانت أشجار الحور على جانب ضفتي الممر ملجأ لملايين العصافير التي تطارد بعضها بين الأغصان، بينما تتوج الجانبين الأيمن والأيسر قمم جبال حجرية من الغرانيت و جراء هذا التحشد المفاجئ تكتسب المدينة القديمة المهجورة وجاهة، ولذلك تتضاءل المسافة التي تفصلنا عن الحقل الشاسع الذي يوغل بركل حافات الحجارة بشدة. (فتألف شكلا هندسيا متماسكًا لكتلة صخرية من الغرانيت أوحت لنا يومها بفكرة مثمرة لأنها تنفع لتكون حدودا بين الأموات والذين يعيشون خلفها، ما أكثر الذين يعيشون على حساب الأموات، وعلى فضلاتهم الجسدية شيدت الكثير من المعامل تشجعهم فاجعة خاتمتهم.) عند الهبوط تتأرجح الأرض بعذوبة، فننحدر بشكل طفيف، انتبهت أن المدينة تختفي عن ناظرينا.

يبدو أن الأحياء لا يريدون أن يعرفوا شيئا عن الأموات، ولا الأموات عن الأحياء، كل منهما يريد تجاهل الآخر ويعيش في منطقته المنعزلة، وجدت في موقف الأحياء نقطة أنانية قاسية، سلوك انتحاري بلا ضمير، أظن أن الأحياء يأنسون بحضور الأموات لكي يستوعبوا ويستثمروا خبرات أجساد هم المتهرئة المكدسة، فالأموات دوما يعرفون شيئا ما أكثر بسبب خبرتهم الحياتية التي عاشوها، قد تحتوي دروسهم عبرة لمن تبعهم، بدت لي من بعيد أجمة شجيرات عند جدار المدخل سياجًا حديديًا، كانت المقبرة بالمقابل ،أصطدم وجهي بنفحة سلام لا توصف ، أنه سلام الأموات المهيب المتواصل ، تخيلت الضجة الموجودة خلف ذلك الحائط، للناس الأحياء بدلا من الأموات الذين يرقدون هنا، وعن قرب قرأت على السياج لافتة "المقبرة الكاثوليكية" ، كانت معلقة تحت جمة الأشجار عند المدخل الذي يعبق بعطر أشجار الصنوبر القوية بالرغم من أن أشجار المدخل لم تكن أشجار صنوبر، خيل لي أن الأجساد المتعفنة يمكن أن تعبق برائحة فشعرت بالغثيان، ثم لاحظت أن داخل المقبرة توجد أشجار الصنوبر متآلفة بشكل أخوي مع كما أشجار الحور الذي تحتمي تحتها أفياءها الألواح الرمادية للقبور، كانت المرة الأولى التي ادخل بها مقبرة كاثوليكية فشدت انتباهي طريقة تناسق انتشار مواقع الأموات بقوة، لم اقصد شيئا آخر، لكن اندهشت لملاحظتي أن للجثث هذا النظام المتقشف الصارم، وكأن مكان راحتهم كمعسكر للجيش، بدأت أشعر بحرارة المساء تنسدل فوق كتفي ، كان الطريق طويلًا والحرارة الربيعية مفرطة بعد التمرين، تقدمنا عبر الممر الرئيسي وعلى جانبيه الأيسر والأيمن تحف به أضرحة وقبور، أثقل تحفزي في تلك اللحظات انطباع محدد لكن عاجلا بدا لي سلام الأشياء، كأنه نكد وإجهاد روحي، لأن بعض القبور كان محاطًا بسلال ملتوية معلقة بمواشير الغرانيت في الزوايا ، لا أدري ما الذي جعلني أفكر أنه تحت أول أرضية حجرية ، يوجد مستودع مثير للإعجاب لأجساد عريت: كعظام الفخذ وجماجم مسلوخة وأجساد شبه عفنة ....

وكل تلك العظام كانت تشكل ذات يوم أجساد متناسقة، مليئة بالنشاط والحركة، ويقينا انهم تغلغلوا ذات يوم في
ملجأ الأموات السابقين وانتابتهم الأحاسيس نفسها، مزيج من التقزز والاحترام، الذي تملكني في هذه اللحظات، توقف السيد ليسمس والتفت ألينا:
-انتظروني هنا، سأزور أنا ومارتينا قبر والدي... ثم نعود على الفور.
سارا ببطء وابتعدا على الفور، أرتدى دون ماتيو ملابس الحداد كما هي العادة، حداد يمس الروح، أما مارتينا كانت غريبة عن المكان والزمان، ومن دون قصد منها كانت تحاول أن تطرد من ذهنها ،بشكل جنوني، فكرة أن والدها كان ذات مرة ابنا، توقفت والفريدو فجأة أمام ضريح بارز، صفت فوقه البلاطات كأخبار منوعة في الصحيفة، توجد خطوط من حروف سود، حيث تسجل تواريخ الأموات الذين رقدوا في الأرض لدفنهم، وكثير من الصلبان، وكثير من الألقاب المتشابهة، أردت أن أرجع بمخيلتي حتى آخر حيّ من تلك العائلة المعاقبة، التي اضطرت أيضا إلى أخذ احتياطات لا تنضب قدرتها على الانعتاق، فالأموات كانوا يضافون وحدا تلو الآخر كل خمسًا و ثلاث سنوات، وليت نظري بعيدًا فرأيت على مبعدة عشرين مترا ظل دون ماتيو راكعًا أمام قبر رمادي، في مقدمة أحدى البلاطات التي ثبت عليها صليب معدني مزود بحاشية انتشرت على أخاديد فيها ثقوب، حينذاك تنبهت أنني لم اصل لوالدي مطلقًا، لم يعلمني أحد أن أقوم به، توجد أشياء لا يمكن لشخص أن يتعلمها بمفرده، انتبهت انه لم يعلمني أحد أن اعزز محبتي لهما، ولم يخبروني أية أرض تضم رفاتهما، اعتبروني فردا مستقلًا عن الأحرين، لقد تقبلت منذ البداية وبشكل طبيعي أن بعض الأشخاص يلدون ولديهم آباء والآخرون يتامى، صدمتي بالواقع جعلتني في حيرة من أمري، انتابتني مشاعر عنيفة لأنني لا أعرف شيئا عنهما، في الأقل في أي مكان من العالم تحولت عظامهما إلى تراب، لقد سببت هذه الفكرة أزمه لي ، لكنني تخليت ببرود عن الحنين الذي يلفني تجاههما مفكرًا انه ليس من الحكمة أن يكشف إنسان بمفرده ما دفنه الجنس البشري.

وقف إلى جانبي الفريدو بنظرتيه الجزعتين بسبب الأشياء التي تحيط بنا في كل مكان، لكزني بغتة بذراعه
-أنظر.
وفمه يرسم تقززا واضحًا، نظرت حيث يشير، على البلاطة خلفي، تظللها ظلال السرو الوارفة، يقرا شاهدة القبر :
الطفل مانوليتو كارثيا
توفى في يوم مشؤوم
ضحية لحادث مروع
بصق على الأرض.
-أتقزز من الناس الذي تتندر على الأموات.
بدا الفريدو شاحبًا ويرتجف كما أوراق الصنوبر الإبرية، سحبته إلى خارج المقبرة وجلسنا تحت فيء شجرة الجراد الرهيف، تأخر هنية ليجلس، ولما قرر أن يكلمني لمحت في كلامه رجفة غريبة.
- حين أموت ليدفنوني تحت شجرة الصنوبر، هل تسمعني يا بيدرو؟
كنت مستاء من حضور الموت بإلحاح، وخفقان الأرواح الكئيب البارد، ثم واصل الفريدو:
-سأموت قبلك، لأنني أضعف منك.
لما تحدث الفريدو حاولت أن أتناول كلامه بمزاح:
-اية حماقات تقول!
-أؤكد لك أنها ليست حماقات، لا أطيق أشجار السرو، تبدو كأنها أطياف أما تلك الفاكهة الصاخبة التي تتدلى من أغصانها فهي تشبه تمامًا الجماجم الصغيرة، وكأنها هياكل لتلك الألعاب التي تباع في الأسواق.
أخترق صوته قلبي كإبرة حادة باردة، أظن أن الابتسامة التي ارتسمت على شفتي لابد أن تمس تكشيره وجه الموت المقيت.
-أنت على حق.
- نعم على أية حال أود أن أستريح تحت عطر الصنوبر، افياؤها شيء آخر: أكثر تدويرًا وأكثر امتلاء وأكثر إنسانية.... أنه فيء كما عبرت عنه السيدة سيرفاندا كأنه ولد شجرة، أكثرا ناقة على أية حال....

صمتنا وكأننا نراجع فحوى آخر جملة بإمعان:" أكثر أناقة على أية حال..." تتميز نزعات الفريدو بخصوصية حسية، لو فكرت مليا، فرغبته أن يرقد بحلمه الخالد تحت ظلال الصنوبر كانت نزوى خاصة لا تستحق أن نجادلها، لكن إصراره على موضوع سقيم أجواءه تخنقنا، كادت تفقدني حلمي، لأنني لا أتقبل ولن أفترض احتمالًا أن ينفصل الفريدو ذات يوم عني وإلى الأبد، أفضل ألا أفكر بذلك، وبخاصة الآن، لأن كل حركة معاكسة وكل جملة جديدة ولو كانت من دون قصد تكفيني لأن أسهر طوال الليل.

استرحت لعودة مارتينا والسيد ليسمس، لما وجدناهما إلى جانبنا، شعرت برغبة مجنونة لأن أصرخ بوجه الريح بأقصى طاقتي، وبعد مراوغة حاولت أن أترجى دون ماتيو لأن يحملنا بعيدًا عن هنا لنتناول وجبة طعام، لكن كان هو من يأمر وبكل تأكيد لم يوافق على فكرة مواصلة المسير، آخذا بنظر الاعتبار أن مارتينا الصغيرة يجب أن تعود إلى أحضانه، كان أمرا طبيعيًا أن يقف استأذنا على مرتفع حيث يسيطر على مصب المدينة والمقبرة الكاثوليكية من الجهة المعاكسة، تناهت لأسماعنا ضربات أيفاعيه لعمال مقالع الحجر، كأنها خفقات قصية لقلب لرجل معدني، أو دقات ساعة ضخمة الأبعاد، لم تكن تعجبني تلك الضربات، كأنها تجدد حضور أشياء كنت أود أن تبتعد عني في تلك اللحظات، ولما جلسنا اضطررنا لأن ننهض، بعد أن عبر الطريق موكب جنائزي، يرافق العربة قليل من الناس لفت انتباهي مظهر رجل شاب يرتدي الحداد يسير بشكل تلقائي خلف المتوفى، بدا عليه الهوان، كأن الموت لم يفرح فقط بخطف شخص عزيز عليه، بل وسمه بأثر من نفحة جليدية، رسم دون ماتيو والفريدو إشارة الصليب.

-انه أرمل شاب-قال السيد ليسمس حينما ابتعدوا.

بعد ذلك لم تعد تدهشني أي من التوقعات، لما أفكر أن ذلك الرجل أصبح أرملًا، أكاد لا اصدق من يؤكد لي بأن الفريدو سيصبح أدميرالا أو رئيسًا للأسطول البريطاني في البحر المتوسط. أنتهز السيد ليسمس

الفرصة لكي يغرز في أرواحنا إحدى الأقوال المأثورة الشفاهية التي كان مولعًا بها.
-لا يمكن التآلف مع الأعراس إلا إذا زينت بتفاصيل غزيرة الحماقة فأن فكر العروسان في ذلك اليوم إن أحدهما سيقتحم حياة الآخر، أظن أن الحقيقة المرعبة ستدهشني والفريدو للحظات على حد سواء.
لم يحدث لي ابدا أن أفكر بها لأن بساطتها وبديهيتها كانتا متّربة هابطه، بقيت ممسكًا بشطيرتي حتى منتصف الطريق وأنا التهمها ، أدبرا مرا في داخلي لقرار قد يدعمني على مدى حياة العزوبة التي لا مفر منها، شعرت بحاجة مباشرة لأن أفرغ طاقتي في أي تمرين عضلي، استويت وشرعت برمي الحجارة على أقرب أثر حجري مرتفع بشكل طبيعي، برغم أن سلوكي كان غير مألوف ومرتجلًا، تأملني دون ماتيو والفريدو وكأنني أنجز عملا الأكثر طبيعيًا في العالم، تقبلا تمريني لأفرج عن نفسي حاجة بيولوجية كنت أسعى إليها، لما انحنيت من جديد على الأرض و ابتدأت تمرينا فأخذت فاني تركض ، وجلبت لي قطعة غرانيت تحملها في فمها، تأثرت لما افترضت أن الحيوان وجدني ألهو لوحدي، ربت على ظهرها وهي ركعت بجانبي، تمد لسانها بسبب الجهد وقطعة الغرانيت بين يديها السليمتين .
أنصرم النهار فقرر دون ماتيو العودة، أطلت من السماء في تلك الساعة ألوان متناقضة زاهية جميلة جدا، مازال الجبال بيضاء شامخه واصطبغت قممها بغمام صبغته شمس الغروب باللون الأحمر، امتدت المدينة المسورة تحت عمق سماء وردية خلابة، شامخة كأثر قديم تتكدس فيها القرون بتوازن عجيب، توقف السيد ليسمس لحظة وأستنشق نفسا عميقًا من النسيم القادم من الجبال.
-هذا هو المكان الأكثر صحيا في العالم- قال مبتهجًا.
هزت مارتينا كتفيها، ولم تفهم جيدا تلميح والدها. نظرنا إليها ببرود، وهو نظر ألي قبل أن أرمي الحجارة ضد عدو خيالي كالمجنون، خيل لي أنه هو أيضا يريد أن يكشف عن كربته.

-لا أحد يريد أن يصدق أن حتى الأموات في ابيلا أكثر صحة من الأحياء في بقية بقاع العالم!
مازال السيد ليسمس يرفض احتفالنا كما في ليلة نجاحنا، أوفقني الفريدو حتى يمر الوقت فيبتعدوا عنا.
-لقد سبب تشوشا! هل سمعت الحماقة التي ذكرها؟
-هه! أنها مجرد جملة.
أنفعل الفريدو قليلًا:
-أعلم أنها جملة، لكنها جملة غبية، هذا ما أريد أن أقوله.
حاولت أن أوضح له معنى كلمة "جملة"، لكنه أجابني بشيء من السخط:
-أنها مجرد جمل!، لكن أن تقول إن بعض الأموات، أينما كانوا، هم أكثر صحة من الأحياء، حيثما كانوا هو قول بليد أيضا، ألا تفهم؟ إذا الأحياء كانوا أحياء ذلك لأنهم أكثر صحة من الأموات، أي لو أنني مت أيضا....
ضحكت عاليا أكثر من عناد الفريدو ومنطقه الذي لا يوصف، وهو شاركني ضحكاتي ولما دخلنا المدينة نسينا الرحلة والأموات و"جمل" استأذنا، لفت انتباهي الفريدو بغتة:
-سيدات الركاتيو مازلن في الشرفة، أنظر لهن! هل يسر ذلك السيدة غريغوريا...!
كانت الشابات يتحدثن كما البلابل في الشرفة المطلة على الشارع، والعديد من الأشخاص الأنيقين كانوا يتجولون كما الذباب حول الحلوى، بغتة لفت انتباهي أن إحدى الشابات رمت إلى أحد من المتطفلين منديلًا ورديا، وأمسكه ذلك المتطفل بالهواء ثم وضعه على أنفه وبعدها على قلبه وأطلق تنهيدة طويلة، محاولًا أن يبدي للشابة أنه كاد يغمى عليه، تعالت ضحكات البلابل عاليا فانهالت عليّ الأفكار وطرأ على بالي مرة أخرى فورة غضب السيدة غريغوريا التي لا يمكن تفاديه لو شاهدت هذا الموقف.

لما توغلنا في صمت الساحة انتبهت أنها بناءها كان باليا، وبالغريزة نظرت عفويًا إلى الكوة بتماثيلها الأربعة الجامدة مضاءه بنور الفانوس الأخضر، انتظرتنا السيدة غريغوريا على العشاء وقد وضعته فوق السرير، جلست بلا رغبة، لكن مربيتي لن تعفو عنا مقابل أي شيء في العالم عند اجتماعنا في تلك الليلة، لابد أن تقول شيئا: تنتقد أو تطلب، توقعت من نفحات نفسها ورجفة شفتها السفلى أنها تختزن كلمات تهيأنا لها.

-ماتيو-قالت بغتة-لقد أمضى ليونور المساء معك....

لم يضف السيد ليسمس شيئا، كان يعلم أن ذلك لم يكن مجرد مقدمة، وما هو ممتع سيأتي لاحقا.

-أتوقع أنه منذ مدّة ستصدر صحيفة جديدة في مدريد.

-مجلة؟

قال استأذنا "مجلة" كيلا يمنح إحساسًا أنه يحاول أن يتكلم ضد إرادة امرأته.

-لا، لا، صحيفة... و، أن ما قلته مثير للاهتمام... يجلب "صدى"، فيه قسم "العالم الكبير" والسياسة" و "الأحداث" و " المسرح" وبعض الرسوم المثيرة، نستلمها في اليوم نفسه الذي تصدر به في مدريد... تبلغ قيمة الاشتراك ست ريالات في الشهر... ثمن رخيص أن أخذنا بنظر الاعتبار....

- ما اسمها؟

-ا ب س، حسنا أنها حروف لكنها ليست ذات أهمية أن كانت تلك....

أومأ دون ماتيو بإشارة غريبة

-لكن أليست هي صحيفة للفتيان؟

-لا، بل للكبار، للناس الكبار، أنها صحيفة جيدة صدقني، أظن من المناسب أن نشترك بها.

أثقل جفني النعاس، لكن مازال لدي الوقت لأرى السيدة غريغوريا تخرج عن طورها، ليس لأن لدي ملاحظة على الإصدار الجديد، لكن أظن أن نضع بمتناول يد مربيتي صحيفة يومية ستثير جدلا حتى

الصداع. مما لا شك فيه أن السيدة غريغوريا لا تتكلم عن يوم واحد بل ما يتبعه من الآن فصاعدًا.

الفصل الحادي عشر

بعد رحلة المقبرة لم يعد بوسعي أن استمتع بلحظة هدوء في دار دون ماتيو، أخذت أكيف نفسي لفكرة الموت بحدود تتسع أكثر كل مرة في ذهني، وتكتسب ثباتًا وقوة، فاجتاحت كياني ، فأطلعت عليها بكل تفاصيلها ، هذه الفكرة مكنتي من فهم المقدرة على الانعتاق بصورة دقيقة كاملة، فالإنسان لمجرد أن يعيش، ينبغي له أن يفهم كل الأشياء قبل أن يفنى الشك مبتسمًا، فالحياة والعالم يسيران متساويين في السعادة والتعاسة، لا أحد بوسعه أن ينام لمجرد تفاؤل وقتي أو محنة مؤلمة، لأن تيار الحياة يسحقه بشكل منهجي حتى يطرده من مجراه بسبب مضرته أو شذوذه، يجب أن يتبع التيار، يزاوج الوجود الحميمي مع الزخم الحيوي الذي يشجع المجتمع الإنساني.

متطلبات الحياة تحرم الإنسان من حرية إرادته بطريقة معينة، تجعله عبدا لإرادة فصيلته، فلا يستمتع ولا يشعر، بل يذهب أو يمضي في اتجاه أو آخر، تسحقه الظروف الآنية، فيتحرك وفق أسباب غريبة عن إرادته، فواقع الحياة هذيان وتجهم يسمح لنا أن نتعايش مع الموت، يجب علينا أن نستغني عن المقدرة على الانعتاق، نهمله، كيلا يهشم ثقله تناغم التيار الحيوي.

لما بلغت الاثني عشر عاما، كانت شخصيتي منطوية على نفسها ومستغرقًا في التفكير، فينتابني دوما قلق وارتياب، لم أشأ أن أفكر مهما طالت أو قصرت مدة الحياة لن أحاسب نفسي ما اشترطه على الآخرين يوميًا. ظننت أن الموت أكثر الظواهر الأرضية رعبا وبرودًا، لا يوجد عوائق في بقية الأشياء كما يتطلب وجودي يومًا واحدًا، لأن رحيلي لن يكدر أحدا ولو بأدنى حد، أؤمن بالله وكذلك بالأشياء وآمل أن أثق بلطفه ورحمته الخالدة، لكن التأمل متأخرًا أو باكرا يستوجب أن أترك من أحبهم يعترضون سبيل إرادتي.

قررت لمرات عديدة أن لا أعقّد وجودي بالعالم الذي اسكنه، ألا أساعد الناس الذين جذورهم عميقة، وأن أبلغ الموت بالقليل من حرية الإرادة وأن أتلقى موت الآخرين من دون مبالاة وببرود، في تلك الحالات أنبعث صوت من داخلي ليبلغني أنني ما زلت قادرا أن أستغني عن الكثير، لكن الآن لم يعد بمستطاعي أن اتركه كله. كان الفريدو يرقد في السرير المحاذي ويجهر بصراحة هذا الرأي، أنفاسه لاعبتني تلك الليلة لعبة ثقيلة، ألفته صباحًا رقيقًا وواهنًا كقصبة، لطالما بحثت عن فرصة أو عن عذر لأضمه إلى أحضاني، لكن في الواقع كنت أفحص انعدام نمو بنيته الضعيفة، غالبا ما تخيلته كائنًا لا يقوى على الحياة لفرط شحوب لونه، كان في غاية الشفافية وليس لديه المقدرة ليختزن في داخله حيوية طبيعية. في بعض الليالي، وفي ظلمة الغرفة المنسدلة، تتوتر اعصابي وتتلبد الأجواء وتزدحم من دون مبرر، أريد أن أسمع أنفاسه بشكل أيفاعي كامل، لكن أنفاسه تأتي متقطعة، ثم تثب ضعيفة وتصدر صفارة غريبة، في تلك الأحوال تعودت أن أوقد الضياء،رأيته حينذاك بوجهه الأبيض غاطسًا بالوسادة، يقبض بأصابع يده اليسرى حاجب العين الأشقر اللون للجهة نفسها، فأطفئ الضياء ثم أرقد وفمي إلى الأعلى فتنتابني أحاسيس محمومة ومترقبة. أرتبك الفريدو بغتة وأخذ يعطس وهو نائم مرتين أو ثلاث مرات، توقف قلبي وأظن أن وجهي أمسى أشد شحبا من وجه صديقي، مكثت هادئًا أراقب أية حركة تلقائية لافريدو حتى إن رأسي أنحنى لفرط نشاطي الذهني من دون أن انتبه، عدت لأفكر في سري هوسه بالمرض واستنتاجاته الخرقاء، حينذاك خطر على بالي بشكل ملح الشاب الأرمل في يوم الرحلة، رأيته بهيئة المنكسرة، مستسلمًا لمخالب الألم، بوجهه الشاحب اللون، متجهم بلا حلاقة لطالما ظهر لي في تلك الليالي باللباس الأبيض، تتقدمه في المسير عربة الجنازة تحمل تابوتًا لا أقوى على وصف ما في داخله، تابوتًا عبوسًا يحف به حضور جنائزي مهيب، أظن بالرغم من جمود الموت فالأحياء يبجلونه كترف لأبزار سمات الحداد، كل الأشياء التي تحيط به اتشحت بالسواد ، العربة والثياب والخيل وكل شيء

باستثناء الشعر المستعار لحوذي العربة فبدا كالطيف، ينبغي للتابوت أن يكون باللونين الأحمر والأزرق في الأقل –لما أتخيل- أنني أحتفل باتصال الروح الأول مع خالقها، لكن العالم ينظم الحداد للأحياء، فالموت لمن توفى هو حدث قيمته بلا حدود إذا ُقبضت الروح ووقع الجسد في كنف العناية الإلهية، برغم ذلك يصر الأحياء لأن يمنحوا نشوة أنانية للون الأسود المنبوذ والمرفوض ، أرى أن شر العالم يكمن في غفلة فتوره عن الأيمان، فالإيمان للكثير من المؤمنين هو الشك بما نحيا فيه، وإزاء الشك يلتزمون بوجود الله لعله في المستقبل الذي قليلًا ما يبصرون قدره، كلّما يروى عن نشور الأجساد والعقاب أو المكافأة الأخرى أشياء تبدو جملة ورِعة وصبيانية تماثل بشكل آلي السنوات الأولى من تعلم أصول الدين، يعاود الوجه الأسود للأرمل انعكاسه في ذهني، لقد استوعبت ما يكابده وأكاد أقاسمه إياه، لكنها كانت معاناته، وكلما فكرت به أجد مبررًا لأن يذرف الدموع ويرتدي ملابس الحداد ويحزن.

ذات ليلة استيقظت مذعورًا لإحساس داخلي انتابني لا أعرف ما هو، كأن الضباب الدافئ المنيع يسحقني، يطوقني صمت عميق، وكأن السماء والأرض قد انحنيت بغتة، لا صرخة تنطلق ولا صوت ولم تعد الكلاب السائبة تنبح ولا النسيم يلاعب ستائر الشرفة... لقد أمسيت أصم... اعتدلت في جلستي فجأة، فأنا لا أسمع، لم أعد أسمع زفير الفريدو، بحثت عن النور متلمسًا لكنني لم اجرؤ أن اشعله، تحسست بضع ثوان زره البارد، ترددت ما بين النور والعتمة، لكنني تراجعت إزاء احتمال أضيء جسدا بلا حياة، تنصت إليه مرة أخرى، وانحنيت فوق فراش صديقي، لكنني لا أسمع شيئا، من جديد تلمست مفتاح النور مداعبًا، فجأة ضغطت على النور وصرخت "الفريدو" بصوت مخنوق، فنهضا متوثبًا، متلفع بخليط أحلامه الداخلية، فتح عينيه وقال:

-ماذا حدث؟

أثارتني تلقائيته غير المتوقعة.

-لا شيء، لا شيء، هل أنت بصحة جيدة؟

استدار في سريره وغط في النوم، من دون أن يجيبني ممسكًا بالحاجب الأيسر، أطفأت النور مختنقًا من فشلي، كان بصحة جيدة، لكن ما حدث أنا من كان يحلم بالأرمل، كان انتظام أنفاسه الصامتة إشارة جيدة، بل دليل مقنع على صحته الجيدة، ابتسمت في الظلمة، فصديقي كان بأحسن حال، لربما يجعله القدر يواريني الثرى، لأنني كنت موقنًا أنه أضعف مني؟ فالعالم اعتاد على ناس ضعيفي البنية لكن أعمارهم طويلة على عكس الأقوياء، أظن من الحماقة بأن النحيف يسبق السمين في طريقه إلى القبر، لا يمكن أن نسن القوانين حول هذا الموضوع، فالخالق هو الحَكم وليس الطبيعة أو الإنسان.
في الصباح التالي نهضت وحركت الفريدو وكأنني انتهيت من احيائه، إضافة لذلك، شعرت بالبهجة لان تنفسه لم يعد يطلق أصواتا، لكنني لما قسته بساعدي أجده أكثر سقما وهزلا من كل مرة،" قمت بقياس صدره –فكرت-كأنني أقيس قطر عصا" تركت اضلاعه لدي انطباعًا مؤلمًا في صدري، شيئا يشبه من فتح حفرة في لحمي حينما احتضنه أكاد لا أشعر به أن لم اعتصره، لذلك تحولت البداية إلى فأل مكروه: نفس الفريدو لا صوت له لضعفه.
-الفريدو يجب أن تزن نفسك-قلت له مواصلًا حجتي-يجب أن تزن كل أسبوع.
رمى كتابه و اطلق ضحكات عالية، ثم أخذ يعطس، وذلك زاد من توتري.
-لكن هل فقدت عقلك؟
واهتزت خصلة شعره الشقراء التي تسقط على جبهته، على إيقاع قهقهته الجهورية، هو لا يؤمن بموت الشباب، حدقته ممعنًا من دون أن أضحك.
ضايقني عدم اكتراثه لأنه كان كل شيء لي، لقد فهمت رد فعله لكنه يؤسفني، لقد وضحت له ما يدور في خلدي من مخاوف، ويرعبني أن يكون ضحية لتوقعاتي وتهديداتي التي ليس لها أساس من الصحة.
-لكنك ضعيف جدا-أجبته بإصرار.

وما يهم ذلك، فالعالم يجب أن يكون هكذا، البعض بدينا والآخر ضعيفًا، البعض طويل القامة والآخر قصير القامة، البعض غني والأخر فقير، البعض طيبا والآخر شريرًا... أليس كذلك؟ هل تفهم سيبدو العالم مزعجًا لو كان بطريقة مخالفة؟
انطلقت ضحكاته أكثر قوة. وددت لو أنني أدخلت في فمه المفتوح حبة دواء من الصيدلية لعدم اكتراثه بالأمر.
-أمك ستجدك أكثر هزالًا لما تأتي، ألا يساورك الشك.
انطلقت ضحكاته مرة أخرى، تألمت من لامبالاته إزاء هذه المشكلة الجوهرية.
-أمي لا تنظر إلى هذه الحماقات، ستقتنع بما أنا عليه وستقبلني عند وصولها وقبلة أخرى عند الوداع حتى الزيارة الأخرى.
بغتة كف عن الضحك وأصبح جادا، أظن أنه في أعماقه لا يستطيع أن يغفر لأمه إهمالها له، فكرت لو أن أحد أصدقائه السابقين لم ينوره بما هو محرم، أو أن ذهنه لم يلتقط بعد من الهواء سر الحياة والرغبة الحمراء وغلاف المشاعر المتعثرة، أعتقد أن تصوره لعلاقة أمه "بالرجل"فيها شيء من الالتباس ، فعينه لم تعد تشع بالبراءة كما في السنتين المنصرمتين، بل تبدو نظراته الرمادية جريحة حينما تشع من بين جفنيه، مساء ذهبنا معًا للتنزه، حين خرجنا ترجاني الفريدو ساخرًا أن نبعد ناظرينا عن الصيدلية، وان لا نعتلي الميزان الذي يصيبه بالدوار، كان وزنه طبيعيًا بما فيه الكفاية(مجرد أربعة كيلو أقل مني) فهدأ قلقي عليه قليلًا.
بعد مرور خمسة عشر يومًا حان وقت الامتحانات الفصلية، فبلغنا مرحلة التجاوزات الفكرية والاستيقاظ مبكرًا، فيمتد السهر أحيانا حتى برج الساعة القريبة التي يرن ناقوسها في الساعة الرابعة فقط، وفي أيام أخرى نرقد مبكرًا ونستيقظ فجرا، لكن جهودنا توجت بالنجاح في نهاية الأمر، وعند حلول اليوم الأول من حزيران كنت أنأ والفريدو تلميذين في الصف الثاني الثانوي، ونظرا للعمل الكثيف المؤقت في تلك الأيام،

استرجعت مزاجي وكنت أرتمي فوق الفراش منهكًا فيستسلم رأسي لأحلام سرعان ما تتبدد بالوسادة.
بعد أيام ابتدأت عطلة الصيف، لطالما حلمنا بها ونحن نستحضر مغامرات الصيف المنصرم، كأنها شيئا خارقًا يفوق كل الرغبات، تمنينا أن نكرر دقيقة بدقيقة مغامرات السنة الماضية، لكن كلما أنصرم الصيف انتبهنا أن كلّما يمت للحاضر له طابع خاص، لا يتطابق بفحواه مع الأحداث بالرغم من تطابقها، لأن مزاجنا كان ينبئنا بشكل مغاير.
هذا الصيف وادي امبلس له لون مغاير، كان ضياء الشمس مختلفًا، لقد غرق جزء من المنحدر الترابي لاديخا في المستنقع، حتى المصنع الصاخب كأنه تسلح بهندسة معمارية مختلفة، بدا لونه رماديًا داكنًا وثقيلًا، كأنه ظل ضياء داخلي انعكس بلا صوت، مع ذلك حاولت أنا والفريدو ان نغض أبصارنا، وأن نرى ما لم نره من قبل ونشعر بما هو أقل تأثيرًا على مشاعرنا، هكذا مضت تلك الشهور كأن الطبيعة نفسها سعت للغش والمكر، كنا نمضي أيام الجمعة إلى السوق الذي فقدنا متعته القديمة أيضا ، لم تعد لابرونا تظهر في أية ناحية، وهذا الغياب جعلني أقارن تحفزي لأي مناسبة فتبدو خاتمتها ملتبسة بلا قيمة. فبدون لابرونا، تفتقر قطعان الغنم والبقر والبغال والخنازير السود إلى التميّز والسمة الخاصة والنكهة والحركة، تدوي خلاخلها واجراسها لكن من دون أن تتسم بعلامة فارقة، ومن دون أن تبدي جهدا لتبدو جوقة متناسقة، كل بقرة تمضي بمفردها، وما كان من قبل شله محبوبة متناغمة أمسى الآن عقدة مسعورة بلا حل، أكد لنا أحدهم أن المتشردة لابرونا بعد ما جمعته من فلوس انتقلت إلى إشبيلية حيث تملك بيتا خاصا بها. (أخبرنا أنها تسير في طريق ترابي تمسك بيد الرجل الضرير، وتوزع أبناءها في كل قرية تتركها من خلفها). لكن لابرونا لم تظهر في ابيلا هذا الصيف وأحسست والفريدو أن هذا النقص يصعد من شعورنا بالتيتم.
لكن الحدث المغاير هو أن حرارة فصل الصيف أشد من السابق الذي" ساد المدينة"، ازداد عدد شله أصدقائنا، واعتمد الحصن على مدافعين

أكثر تحمسا واندفاعًا وغيرة عما المهاجمين، كانت فترات الصباح تمر بين " تحركات القوات" و"التصعيد" والضربات المباغتة" من قبل مجموعة ضد الأخرى. جاءت والدة الفريدو في منتصف شهر آب لتصحبه معها إلى الساحل الشمالي، لم يبد الفريدو حماسًا للمقترح، لكن لما أكدت له والدته أنهما سيكونان "بفردهما"، في أثناء الرحلة، فرحت لفكرة أن الوالدة قد قطعت علاقاتها نهائيًا "بالرجل"، وهذا سيحسن من صحة الفريدو ويؤمن له وزنا يعتقه من ذلك العبء الثقيل، بل سيمنحه زيادة سخية، قد تنشطه مشاعر حب الأمومة، ولهذا السبب مضت علي تلك الخمسة عشر يومًا كما البلسم الشافي، كنت أتصور عودة الفريدو جديدًا، شخصيته مصقولة، نشطا يستنشق نفسا عميقًا طربا، وسأراه ينزل من القطار يرسم ابتسامة واسعة، بعد أن مسح من راسه كل المخاوف، كاد شعره أن يكون ابيض فتناقض مع بشرته السمراء الناعمة، واحتضنته بقوة ومودة، بشكل رائع ونادر ، ولن توخز عظام اضلاعه عضلات جذعي وتنغز فيها.

اليوم الذي أعلنوا فيه وصوله كان يوم عيدا لي، وددت لو أحث أم صديقي لأن تستمر في الحياة الجديدة فذهبت لأشتري باقة ورد، وطلبت من مارتينا أن تقدمها إلى "السيدة" حينما يتوقف القطار، بعد قليل ضج كل البيت بالحركة، ما هي إلا بضع دقائق ونذهب إلى المحطة، شعرت بحكة كالتي تنتابني حين امتحاناتي وبالعكس، شعرت بقلق يهز جسدي، كنت أضحك لأي موقف تافه واشعر بخجل حقيقي وارتياب من تقديم باقة الورد لوالدة صديقي، في النهاية بعد أن عدنا مرتين في منتصف الطريق لكي نجلب ما نسته السيدة غريغوريا دخلنا المحطة، كان قلبي يرتجف ونحن نسير على رصيف المحطة التي تفوح برائحة القطار وبالسفر وبالبعد وبالوداع، شعرت بالشفقة من صميم قلبي على الذين تجمعوا هنا ليقولوا وداعا لأحد ما، عادت مرة أخرى الحالات الإنسانية المعاكسة تنشط الإنسان، رن من بعيد صراخ ثاقب، ثم أطلت مقدمة القطار، بلونها الأسود المنتفخ، وبعد أن استدار عند آخر منعطف، كأن قدمي تحمل ثقلا باهظًا، أو تنغرز في الأرض من دون أن تترك لي

أدنى مجالًا للحركة، لما توقف القطار عند الرصيف بدخانه ولهاثه شعرت بحريتي مرة أخرى، لما نظرت شزرا متأملًا مارتينا التي كانت هادئة وخائفة جدا تحمل بيدها باقة الورد تزينها صورة فوتوغرافية.
-بيدرو!
كأن حركة دوران الكرة الأرضية تسارعت تحت باطن قدمي، كنت أود أن أرى كل شيء ولا أراه، سمعت فقط شخصا أعرفه يلفظ أسمي، وبغتة رأيته، رأيته بين حشد من الرؤوس تطل كلها من النافذة، كان يحرك ساعده بحماس مبتسمًا، ورأيت من النافذة والدته تبتسم أيضا إلى جانبها "الرجل"، وكاد خدها يلتصق بخده، تقدمت مارتينا وهي ترفع باقة الورد فوق رأسها، كادت ترتمي فوقها.
-لا تعطيها إياها! - قلت للطفلة مؤكدًا حتى أنني أفزعتها.
رمقتني بنظراتها الزرق المدورة وكأنها تتساءل لمن خصصنا تلك الزهور الجميلة.
-أرميها! – أضفت بمزاج مكدر -آه! في أي مكان! على الممر نفسه....!
أطاعتني مارتينا من دون أن تفهمني وبقيت الباقة المسكينة هناك مبعثرة ومشوهة وذابلة فوق سكة القطار المشعة.
مثل الفريدو أمامي، نعم، كان وجهه أشد سمرة ربما تغير، أيضا بدا أكبر حجما لكن بنيته كانت واهنة بل اكثر ضعفا من قبل، لما حضنته عادت اضلاعه تدخل في صدري، بينما كنا نتعانق فاجأنا انطلاق القطار، أطلقت العربتين صريرًا ثم بدأت عجلات القافلة تتحرك، رأيت من فوق كتف الفريدو للمرة الأخيرة باقة الورد سليمة من دون أن يدعسها أحد فوق الرصيف، بينما والدة الفريدو كانت تلوح له مودعة من النافذة، لكنها ستهرب مرة أخرى إلى مدريد برفقة "الرجل"، صافح السيد ليسمس يده بلا لهفة، مرت عجلة فوق باقة الورد وسحقتها، وبعدها أخرى ثم أخرى.... احتضنت جسد صديقي الهزيل، ضاع القطار في البعد، و مكث فوق السكة الجديدة شيء من بقايا إنسانية: أنه نسغ الورد المسحوق...

الفصل الثاني عشر

مرض الفريدو في اليوم التالي بعد عودته من عطلته الصيفية القصيرة، قال الطبيب أنه أمر لا يستحق الاهتمام، لربما ضعف نتج عن السباحة في البحر أو زكام ليس ذا أهمية، فبحمية بسيطة وملازمة الفراش لأسبوع سيكون الفتى بخير مرة أخرى. جعلتني كلمات الطبيب متفائلًا جدا، كنت موقنًا بحزم من صراحته ودرايته العلمية، لكنني لم أكن أثق بمناعة صديقي، فيما عدا ذلك اقتنعت أن صحته ستتحسن أكثر مما قبل رحيله، رايته من دون شك أكثر نوما وبدا لي رجلا، لكن حصانته الداخلية أشد خرابًا وجسده متهالك، فأنفه أصبح حادا وكأن عينيه تركت على الساحل سذاجة نظراتها البسيطة المتلألئة الحية، لم أفارقه على مدى أسبوعًا مضاه في الفراش ، كنت مستمتعًا بسرد تفاصيل رحلته الأولى إلى البحر، ووصفه للمحيط اسكرني كالمهدئ، بتموجاته وغضبه أحيانا وهدوئه ووداعته أحيانا أخرى ، ومرة أخرى قوي صلد، حدثني عن المراكب الشراعية والقواقع والنوارس، قص علي متعة الساحل الأشقر حينما تنساب علية الأمواج تحت الشمس، لقد توقف عند أبهى التفاصيل الصغيرة للسفن التجارية التي تعبر الأمواج قبل أن تضيع في التيارات المتلاطمة، تحدث ثم تحدث عن كل ما رآه مندمجًا بحواسه الخمس خلال هروبه الوجيز إلى البحر.

ذات مساء ركز حديثه على جانب ودي، تحدث عن والدته، لما أبتدأ الرحلة وعدته أنها لن تهمله وكيف أن قرارها ذهب أدراج الريح حينما جاء "الرجل" ذات مساء إلى الساحل معهما، وبكلمات عذبة ومقنعة أقنعها بضرورة أن تعود معه، أبدت والدته رفضا ضعيفًا ومترددًا وفي الليلة السابقة قبل أن يتهيأ للعودة أخبرت الفريدو أن ثمة أمرا غير متوقع اجبرها أن تغير خطتها، لذلك يجب عليه أن يمضي فصلا دراسيًا آخر في دار دون ماتيو، بالتالي أكد لي الفريدو انه تمنى لو أن الخطط تتغير كيلا تنفصل عنه. بعد أسبوع ونصف من ملازمته السرير نهض،

أدركت أنني لم اخطئ في تقييمي، بدا مظهر الفريدو كالشبح: كان طويلًا ونحيفًا وراسه يشكل زاوية مع جذعه، ما بين بداية الفقرة الأولى والعنق، لما استرجع قوته وخرج إلى الشارع ذهبنا إلى الصيدلية، كان الفريدو قد خسر كيلو ونصف من وزنه الأول، هذا النزول لم يقلقها بدا:
-أحيانا يكون الوزن كثيرًا ومرات أخرى اقل، أظن كذلك؟ على أية حال كلنا سنموت ووزننا أكثر من عشرة كيلو....
أما أنا لم أؤيده بل أقلقني هذا النقص في الوزن، استرجعت بقوة المخاوف القديمة وليالي السهاد، كنت أنام قليلًا لأطارد في الظلمة أي دليل مريب يمكن أن يوضح الحالة الصحية الحقيقية لالفريدو، أما هو لم يتأثر لقلقي، بدا واثقا من نفسه بسبب اكتفائه بقدراته الجسدية، كان يعطس، "كلنا نعطس"، أن نقص وزنه، " هنالك من يزن أقل منه"، لم تكن تنقصه الحجة. فالعوارض ....-الأفعال المرفوضة لشكي تتحول إلى "عوارض "- كانت عادية لأي شخص عادي ولن تشكل باعثًا للقلق ، لكن أنا- ابتدأت أتشبع بها- لم أكن شخصا عاديا.
لا، لا كان مثل البقية الذين يحيطون بي، تعمقت أكثر بالأشياء مثقلًا بمعاناة محتملة في المستقبل، ليس لها مبرر في كثير من الأحيان. (خطر على بالي أن فصول السنة قد تغدو مرة المذاق مثلي لتمنع وقوع الحوادث العابرة التي نميزها، فالربيع لم يعد ربيعًا ومهدا للورود والنجوم، حينما نقحمه على نحو مهلك بفكرة أن الثلج سيهبط شتاء) أدركت أن كل هذا مجرد حماقة، وأن حياتي غلبت عليها الصلابة، وقد تتزحلق لتواصل هكذا بحبل مشدود ينجرف نحو تكهن مشؤوم وهذه نتيجة منطقية. بالرغْم كل هذا، لم آخذ بعين الاعتبار هذا التأثير التشاؤمي بقوة لأقصيه عني ، تيقنت أنه خطأ لواقع خرج عن مداره، لكن مدار هذا الخطأ يجذبني ، حتى لو عرفنا أنه خطأ، كما تغوي أفواه الجحيم المفتوحة بالرغم من أننا ندرك أن الموت يختبأ تحته، بعد مضي أسابيع بدأت صحة الفريدو تتحسن ، ولى الصيف سريعًا و حماسنا لاقتراب الفصل الدراسي الجديد حثنا لأن نستثمر آخر أوقات الحرية، في تلك الأيام تملك الفريدو اندفاع متطرف لأن يركض ويلعب

ويمارس التمارين، ود أكثر من قبل أن يكون خارج الجدران الأربعة لغرفتنا، يتنزه ويستنشق الهواء، مستقبلًا الريح والشمس بأقصى طاقته ومشاعره، يبدو أن هذا الصنف من الحياة جعله يتحسن كثيرًا، في آخر أيام سبتمبر استعاد وزنه كيلو غرامًا ونصف الذي فقده في رحلته، خطي التفاؤلي بدأ مساره نحو الصعود. (كأنني تيقنت في داخلي صعود وهبوط عمود التفاؤل، خاضعا لتناظر مختلف كعمود الزئبق في ميزان الحرارة.)

في بداية شهر كانون الثاني من تلك السنة هبط الثلج، لم تتوقف نتف الثلج عن الارتطام بالزجاج، بدت ذبابًا متلفعًا بأغطية صغيرة، تهطل حشودًا فوق سطح الأرض، مساء في الثالث من كانون الثاني، توقف الثلج بغتة، وانبلجت نافذة محت غيوم السماء، أمست السماء صافية وشفافة والبرد كصدى بعيد يطوق العالم، بدا الفريدو في تلك الأيام متفائلًا، وجهه الشاحب كما هو عادة، اكتسى بلطافة تعبر عن صحته، قبل أن نرقد كنا نتأمل من النافذة الساحة الصامتة الخالية المغطاة بالثلج ، أشكال مغارة الميلاد تملأنا شغفا، هناك نمكث صامتين وجامدين كما دوما. فالمنتصرون والمهزومون يحملون فوق رؤوسهم نتف الثلج بشكل متقلب.

-لعلهم في العصور الوسطى لم يكونوا يشعرون بالبرد-فكر الفريدو

- أو على الأقل تعودوا عليه.

كان ذلك الوداع، أغلقت النافذة الداخلية ورقدنا، رأيت الفريدو متلفعًا بغطائه وبعد لحظات انتابني أحساس غامض منتعش أن جسده قد غفى. مكثت ساهرا مدة لقد اعتدت السهاد، نادرًا ما كنت أنام ليلا من دون أن أسمع أجراس البرج القريب، في تلك الليلة يقظتي أصبحت أخف قليلًا، نمت على هديل انطباع مقارن بأن الأرض تملك إحساسًا بالمتعة تحت طبقة الثلج السميكة التي تغطيها. لا أعرف تحديدًا ما الذي جعلني استيقظ، بالتأكيد نداء عقلي الباطن ليعلن عن فرصة الحصول على شيء كنا نطمح اليه كثيرًا، كان إدراكي الحسي الأول خط مضيء دخل من نافذة مغلقة، وضوحه جذبني أظن بنفس تأثير فراشة ليلية، نهضت

وسرت بخطوات نحو النافذة نصف نائم، فتحت المزلاج ثم فتحت النافذة الداخلية من دون ضجيج، فانتعشت بداخلي على الفور رغبة قديمة في تأمل المدينة القديمة المثلجة من ساحة كواترو بوستس، مضاءه بنور القمر، بدت لي تلك الليلة أنها تشبع تطلعاتنا أنا والفريدو، فالقمر بأشعته الفسفورية بدا ثقبًا مدورًا في السماء، وجهه المشرق، متخفيا في الفضاء، تجسد ذلك في الساحة، كأنها تنتزع من الثلج طيف قوس قزح، وتنعكس أيضا في رؤوس الأشكال المنحوتة في الكوة وكأنها تبعث نفسا حيًا.

مكثت هناك برهة، أحتضن صمت الساحة الوحيدة، تذكرت أن السيدة سيرفاندا والسيد فيليب، لم يعودا كما وعدونا، افترضت من دون أن أدرى ما السبب بأن السيد فيليب أحزنه الموت غير المتوقع لشريكته، تذكرت تقاطيع الأرمل، كان أرمل شاحبًا وصامتا كهذه الليلة التي تمتد أمامي، لست أدري أي شعور مشوه انتابني لأفكر أن الهروب إلى كواترو ليسمس سيعالج حالتي الذهنية، لربما سأعين الفريدو على تحسن صحته وأجعله أكثر استقرارًا، اقتربت من سريره وهززته فاستدار مرات عديدة قبل أن يستيقظ.

-ماذا تريد؟

- القمر ساطع ومدور كما قرص الجبن، هل تود أن نذهب إلى كواترو ليسمس؟

دمدم مرتين أو ثلاث مرات شبه نائم، ثم ألح مؤكدًا كالثمل:

-ماذا تريد؟

- القمر كامل، لنذهب إلى كواترو بوستس، هيا بنا.

فتح الفريدو عينيه من دون أن يفهم جيدا، وبغتة نهض من السرير قائلًا:

-القمر.... كواترو بوستس.

وكلعبة آلية ابتدأ يرتدي حذاءه، ثم رفع ناظريه نحوي:

إلى كواترو بوستس، حقًّا: لقد نسينا تقريبًا...

ارتديت ملابسي صامتا، منتهزًا نور القمر الساطع الذي يتسلل من النافذة الثانوية المفتوحة، يحفزني نشاط خاص مجهول، وكأنني أجد المغامرات التالية علاجًا لكل مساوئنا
-أنا جاهز كما تشاء...-شيء ما في داخلي ردد-تدثر جيدا.
واصلنا تحاورنا بهمسات خافتة، بالكاد تسمع، أمسك الفريدو بذراعي
-هيا بنا: أنا أيضا جاهز.
تأخرنا ربع ساعة لفتح النافذة، صريرها جعلنا نضطرب، اتقد في ذهني إحساس مبهم بالذنب فخطرت على بالي فكرة بليدة "أن تنبهوا لنا سنذهب إلى السجن".
توقف صرير النافذة الحاد في نهاية الأمر لكن كتلة من الثلج ملتصقة بالإطار سقطت فوق رأس الفريدو فاخترقت عظامنا أول نفحة من النسيم الجليدي. تسلقت النافذة ثم امتطيتها وبعدها قفزت خارجًا، فخفف الثلج القفزة، تبعني الفريدو حينما همست له:
-أغلق النافذة لكيلا يجمد الجميع.
-تزحلق الفريدو بعد أن قفز، فأنتزع كل الأوراق من النافذة التي انغلقت بغتة محدثة ضوضاء عالية
-هيا بنا... أركض...-همس-: لقد سمعونا مؤكدًا.
ركعت لأكور كرات الثلج بحجم معتدل لما سمعناهم انطلقنا نركض بلا توقف، عبرنا من أمام تماثيل الكوة القروسطية ورميتها بالقذيفة الثلجية، من دون أن أصيب أنوف بعض الأبواق.
أبتسم الفريدو حزينا.
-لقد صوبت بمهارة.
عطفنا الركن الأول من دون أن نتوقف، بعد ذلك هبطنا نزولًا بمأمن من عيون المتطفلين، التفت من حولي، كانت المدينة تكتسي في تلك اللحظة صورتها الأصلية، أول مرة تأكدت أن ابيلا يكسوها الثلج ليلا وينورها القمر، كانت هي بحقيقتها، تنضح بعبق القرون من دون أن يفسدها رجس الحداثة، بعاداتها وموضتها وتقاليدها التي تخالف جذورها العتيقة.

هبطنا مسرعين في شارع سانتو دومينغو، كان الثلج صلدا يخشخش حينما تدعسه أقدامنا الثقيلة، سواء من أمامنا أو خلفنا من دون أثر للحياة، جدران بيت السانتا الصفر تمتص رطوبة الأرض، وكأن كلبا سائبًا ترك هناك آثار أقدامه المؤسفة، بينما تعكس الفوانيس المتناثرة في الأركان على الأرض ضياءها الشحيح الضعيف، ترن خطواتنا فوق الثلج بطقطقة خاصة.
لما نجتاز الطريق الجبلي المنعرج الذي ينشق من الجهة اليمنى لسانتو دومينغو ندخل شارع ماغنا، حيث يسود الصمت نفسه هناك في كل مكان، أنه صمت القرية المريح الملتحفة بالحلم، نترك خلفنا إلى الجانب الأيمن الطاحونة السوداء المعزولة في سان سبستيان ثم نقصد قوس سان سيغوندو الممتد فوق النهر، فجأة قطع الفريدو الصمت.
-لنذهب إلى جسر بيخو القريب من المصنع.
غياب الحركة يتضاعف هناك على حافة نهر آداخا، فتيار المياه يجري تحت طبقة سميكة من السماء، وإلى الجهة اليسرى بدا المصنع فوق النهر كأنه جزيرة بلا حياة، لما طلننا من الحاجز عاودنا النظر إلى بنايتنا المفضلة، كانت الأشياء غافية كما الناس، فالنوافذ مغلقة كأجفان عيون مهزومة، لا يوجد أثر لضوضاء يدل على نشاط المصنع، لم نكن نكترث لما تغرق أقدامنا في المياه المثلجة، أنها مسالة تأقلم، فأسماك الحوض لو أطلقناها الآن في نهر آداخا ستصاب بالتأكيد بالزكام لأنها كانت مرفهة بسجنها الخاص.
عبرنا النهر بواسطة جسر بيخو وخرجنا إلى الحقل الكبير، بعدها أرتسم خيال ضعيف لكوترو بوستس، لما هبطنا التل استحوذت علي مشاعر دينية، تذكرت شرود دون ماتيو حينما تكلم عن المدينة وهي مكسوة بالثلوج تطل من هناك تحت نور القمر، تذكرت أيضا في تلك الليلة السيدة سيرفاندا والسيد فيليب، واندهشت لما فكرت مرارا أن السيد فيليب لم يتألم لغياب السيدة سيرفاندا، بغتة رأيت نفسي أمسك بالصليب الغرانيتي لساحة كواترو بوستس، ما كدت التفت وأبسط نظري فوق المدينة المغطاة بالثلج، ولما فعلتها انتابني إحساس عميق بلا ملامح،

انبثق من ورائي. كانت المدينة ثملة بنور القمر، منظر رائع من تناقضات كأن الأرض برعمت منها رسوم متناقضة من الألوان، كان منظرًا وضاء باهتا يسوده بعض الشحوب والوهن والحنين. برز برج الكنيسة من الأعماق كقبطان لجيش من حجارة، وحول الطواحين البيض والسود مثل برج بيلاسكو من بين برج الدفاع لكوثمان وميسون روبي و.... كانت ابيلا تنبثق من ثلج صوفي أبيض ناصع، كراهبة أو طفلة ترتدي لباس التناول أول مرة بطابعه الثابت وصفته الأبوية.
والدار الذي تتوسط ثراء حضاريا متكاملًا، كانت كدرع تفجر في اجتماع ملفق، تخيلت أنه لا يوجد مكان آخر في كل العالم يستطيع أن يكون مهد السيدة تريزا، لأن روحها تشربت بحجارتها.
ثمة شيء هندسي مثير في كل واحدة من الحجارة والأبراج التي تزين فتحات الأسوار، أنه شيء مختلف عن كل شيء، شيء كأنه روح بعيدة عن الخطيئة، فكرت حينذاك أن الأرض جميلة بحد ذاتها، لكن الناس يلطخونها باحتجاجاتهم وشهواتهم ومشاعرهم.
في غمرة غيبوبتي نسيت تمامًا الفريدو، لما التفت رايته جالسا على حافَة الصليب ينهكه الأعياء والإحباط، كان القمر يضيء نصف وجهه أصفر اللون وقد أستدار، أصابتني صدمة غريبة امتعضت منها أحشائي.
-ماذا حدث لك يا الفريدو، هل تشعر بالخوف؟
عبر عن نظرة فاترة بعينيه:
-ولماذا أشعر بالخوف؟
-نور القمر يضيء كل مكان....
أعاد نظراته بعينيه وحدق بي:
-وما يهمني من ظلال للقمر، أنا متعب، متعب بحق.
هذا ما خطر على بالي. أمسكت بكتفيه وجذبته نحوي:
-لا تقلق لقد سرنا سريعًا، هذا كل ما في الأمر....
انتابني هاجس أن الأمر ليس كذلك، قمت بحركة فطرية ساخرة لأحاول أن أبعث في نفسه قيمة تنقصني، استوى بجلسته بطيئًا:

- هل يمكن أن نغادر أن كان لا يهمك....
كان وجهه شاحبًا، طفر شعاع الشمس إلى القمر ونور القمر إلى وجه الفريدو. كدت أجد نفسي في دائرة أقمار مغلقة.
-وجهك مجهد...
-هيه، أنه انعكاس نور القمر،
سرنا باتجاه منعطف التل وقد شبك ذراعه بي وحرك رجليه النحيلتين ببطء، لما اجتزنا الجسر تنشط قليلًا.
-أظن أنك تشعر بالنعاس... أو قد غلبك النعاس... أليس كذلك؟ محاولًا أن أحفزه.
-لربما أنت محق، احسبها الآن الساعة الخامسة فجرا...
ابدأ دقائق ردة فعل.
-حقًّا، حقًّا أكيد، فكل الناس تشعر بالنعاس عند الساعة الخامسة فجرا.... أنا أحمق!
عثر على قضيب أنغرز في الثلج بجانب الجدار، لوح بها في الهواء وصاح بصوت أجش في الوقت الذي انطلق راكضا نحو الأسوار
-لنهجم!
وأنا تبعته، متوقعًا أن أراه يسقط في أية لحظة، تبعته ببرود ومن دون رغبة إزاء احتمال ذلك الهجوم الليلي، وصل قاعدة السور وتسلق الحجارة الملساء الزلقة، وبغتة جلس على بعض أطرافها، يتنفس متعبًا ومتشوقًا.... صوته أجش في وسط ذلك الجو المنكمش الخامل:
-أنه ليس حلما يا بيدرو... أنه... أنا مريض، لدي رغبة كبيرة بالتقيؤ...
ذهبت إليه، وكل مسامه من جسدي تتصبب عرقا باردًا، متضايقًا. لم أشعر ابدا بأهمية قوتي الغبية، وددت لو أنني حقنته بدمائي الشابة الجديدة وغير الملوثة..... تمنيت لو أنني تنازلت له عن قوتي العضلية إلى الأبد، وامنحه أعضائي المرنة والثابتة.... لكن ما الذي تجديه هذه التمنيات الطيبة؟ هنالك كان الفريدو/ مشبع برطوبة الثلج المائع بفعل حرارة جسده اللاهث المحموم....
-أنهض يا الفريدو، لأن برودة الثلج قد تسبب لك ألمًا...

-اتركني لحظة أرجوك.... لحظة... لأستريح.... تنفس رئتيه كشف عن بقية جسده، كل نفس يدل على ما في رأسه وفي أصابعه وفي بقيت جسده....
استحوذت عليّ رهبة غير محسوسة، فركت جبهته بأصابعي: أرتجف من جرّاءِ ذلك التلامس الخفيف، سحبتها مرة أخرى، فساورني قلق عميق وتصورات أخرى ممزوجة ومتشابكة مع بعضها، دق الجرس، بغتة ليكسر صمت الفجر داعيا للقداس، كأنه بهجة تقرع طربا لكن وضعي الداخلي حولها إلى كآبة تيقنت بعدها أن الفرحة تخص وضع الروح وليس نوع الأشياء، لأن الأشياء في داخلها ليست بفرحة ولا بحزينة، لكنها تتحدد بانعكاس النغمة التي نضمها في دواخلنا، سمع جرس آخر من بعيد اشد حدة، أدركت إلى أن قرع الجرس الأول جاء من برج الكنيسة الرشيق والنحيل، أما الجرس الثاني كأنه لدير روماني ثقيل يسحق الأرض، فقرع الجرسين يتناوبان في داخلي مع جرس قلبي الذي يدق للموت. طأطأت وسحبت الفريدو فوق كتفي ولم يحتج الفريدو على وضعه غير المريح، لقد دخل تلك المرحلة من الحمى، التي فيها " يُترك كل ما "هو شهواني ولا يشترط فيها الرقة ولا الرفاهية، وهو جالس على الأرض قال لي بصوت ضعيف:
-اتركني، أستطيع أن أسير على قدمي...
أنزلته على الأرض وأمسكت به من خصره، وبعد هُنيهة سرنا ببطء صامتين، طرأت على بالي في تلك المسيرة، آلاف الأفكار، كنت أريد أن أكتشف دليلًا سابق للتدهور الحاد لصحة الفريدو، ثمة عارض واضح أستطيع أن استقرئ من عن طريق خلاله هذا الانهاك الشامل، لكنني لم أجده بل على العكس، في الأيام المنصرمة وجدته أفضل من أي وقت كان، أكثر انتعاشًا وحيوية وحماسًا برغم ضعفه العام، لعله حسب علمي، كان يريد أن يجنبني هذه المشقة، تنفست الصعداء عندما وصلنا إلى الكوة لاحظت غير مبال أن جميع أنوار البيت مضاءه، لقد اكتشفونا، وافتقدونا، اللعنة على ما حدث تلك الليلة، تجاوزنا المغارة وقرع الأجراس مازال يرن في الهواء، لم يكن جرسان فقط بل العديد،

لربما ملايين تمتزج ذبذبات نحاسها بشكل غير متناسق، اجتزنا الهضبة بين أشجار الحور، كانت النافورة متجمدة، ملتصقة بالحجارة حيث يوجد جزء من المقرصنات المتحجرة بنسب صغيرة اقتربنا من البيت، ثمة خيال بدا لي من نافذة غرفة الأسماك، سمعت صوت السيدة غريغوريا:
-الحمد لله ها هما.....
أتذكر أنني لم أسمع كلمة لوم لما تقدمت في الممر أجر جسد صديقي. كانت السيدة غرغوريا ودون ماتيو ينظران لنا مرعوبين، مربيتي مكثت لحظة من دون أي رد فعل، ثم هرعت إلى سريرالفريدو وهيأته بسرعة.
-أستلق يا ولدي، ما الذي حدث لك؟
غطته بحنان، كان لون بشرة الفريدو أشد بياضًا من الشراشف، يطبق أسنانه التي تصطك، شدت مارتينا بنطالي لتشكرني على عودتنا، بغتة أخذ الفريدو يلهث من دون أن يتشنج كثيرًا ثم تقيأ فوق الفراش، فشدت مارتينا بنطالي بقوة، في حين تقدمت السيدة غريغوريا بلا تردد من المريض لتمسك برأسه بين يديها، عاد الفريدو ليتقيأ، مرة واثنتين وثلاث ومرات كثيرة....
-تعجل يا ماتيو لتبلغ الطبيب....
خرج دون ماتيو، في حين رقد الفريدو من جديد، الآن لونه الشاحب أخذ يتناقض وامتدت البقعة الحمراء فوق حافة الشرشف....

الفصل الثالث عشر

بعد أن نفث الفريدو دما انتابني إحساس بالهلع، كأنني سرت طريقًا طويلًا جدا، مفرطًا بالطول إزاء إمكانيتي المحدودة. كان الفريدو منهكًا، يبدو أنه نائم هادئ في حين السيدة غريغوريا تحوم من حوله من مقعد لآخر تبغي مساعدته كيلا يعوزه شيئا، مكثت جامدًا في المكان نفسه منذ أن بدأ يتقيأ بشكل مروع، لم أحد بنظري عن وجهه العليل الجاف، وكأن بصقات الدم جعلت آخر ذرة من صحته تهرب منه، إصراري على تأمله يغير أحيانا ملامح وجهه، التي تتبدل أحيانا بملامح الأرمل أو اللعبة الحجرية التي تلصق أنفها بكرة الثلج.

ولج ضياء الفجر من النافذة الداخلية، كان فجرا حزينا مرعبًا وتافها، أطل صبح تحت ضياء رمادي مرهق... تملكني انطباع أنني عشت بضع ساعات كنت قد عشتها، كأنني لا أتذكر سوى هذه اللحظات التي تعود لوجود آخر، ذائب في خيوط الزمن، غفت مشاعري، كانت عيوني وقلبي جافين كأن أحدا قد عصرهما حتى أستخرج آخر قطرة من مرارة أو دم، كنت أشعر بالراحة كلما لمستني تنورة السيدة غريغوريا وهي تغدو على أطراف أصابعها بجانبي، كذلك وشوشتها مع مارتينا أو لغة إشاراتها التعبيرية، أو صوت الشرشف النظيف حينما يفرشونه على سرير الفريدو.

(كانوا يتحدثون مع مارتينا بمعزل عن المريض، أظن لسببين أساسيين: الخوف من العدوى، تقديرًا منهم أنها ما زالت صغيرة لكي تحضر الموت، سمعتها الآن وهم يحاولون أن يشرحوا لها بقطعة شوكولاتة في الغرفة المجاورة، لمحت على تقاطيع وجهها رضا وبراءة أصرارها لأن تجمع في الجزء السفلي من الكأس آخر جزء من اللقمة، كانت ضربة الملعقة بالخزف الصيني تختلط بقرع الأجراس وكأنها جرس آخر عملاق يوقظ المدينة.)بدأت العربات تلف في الشوارع، فيتناهى صوت تأرجحها من النافذة المغلقة، كانت تسمع نداءات جامعي

القمامة، هيئ لي أن الطبيب تأخر قليلًا، توجد ساعة فوق الطاولة الصغيرة الليلة، جلبتها استفانيا منذ لحظات لحساب الزمن، كانت تحسب الثواني بإيقاع مسموع، كان اليوم يمضي بسرعة.
ومع ذلك، تغلغل الضياء من الزجاج ليلقي ظلا كاتم اللون، بدا وجه الفريدو شاحبًا أكثر من كل مرة وباهتا جدا، فوق جفنيه وأذنيه الضاربة للسواد بقعة بنفسجية داكنة، لقد تأخر الطبيب بشكل مبالغ به، كانت ثواني الساعة تمضي باعتدال، بدأت نتف الثلج تتهاوى بلطف في ذلك اليوم، نادني من عند الباب، شعرت بارتياح عندما لامستني تنورة السيدة غريغوريا وهي تمر من جانبي، سمعت بضعة أصوات عند الباب، لابد أنه الطبيب، كانت الوشوشة تبث فيّ الأمل، لاحظت أن تلك التعابير الرقيقة الخارجية كانت تشذب، بخنوع، أعصابي المتوترة.
دخل الطبيب، ثمة فتور أبطل ما في داخلي، دخل الطبيب أيضا على أطراف أصابعه ويتكلم هامسا، أعجبت به، اتجه صوب سرير الفريدو، دخل دون ماتيو بعد حركة تنم عن سخط كأنه يريد أن يقول" أحدهما يجب أن يدخل قبل الأخر"، أقترب الجميع من الفراش: الطبيب والسيدة غرغوريا
واستفانيا والسيد ليسمس، وأنا لم أبارح وضعي الأول كمراقب، فتح الفريدو عينيه وأبتسم من بعيد، " ابتسامة خالدة" فكرت، وضع الطبيب يده على جبهته، خيل لي أن هذه الحركة قد تحسن صديقي، تناول الطبيب سماعته من حقيبته في الوقت نفسه لا أدرى ماذا قال للسيدة غريغوريا،
سندت المربية الفريدو بساعديها في حين الطبيب فك أزرار بيجامته، كانت ضلوع صديقي تتراقص من تحت جلده، كأنها أوتار قيثارة غليظة، وضع السماعة على الجانب الأيسر من صدره ليسمع فحصا:
-تنفس عميقًا.
توجب على الفريدو أن يفهم أنه مضطر لأن يتنفس لان صدره كان يعلو ويهبط بسرعة لكن من دون أن يسحب نفسا عميقًا، فتح مرة أخرى عينيه وأبتسم، لعله فكر أن كل هذا لا يستحق أدنى أهمية: "البعض

يتقيا شيئا أحمر اللون، وآخرين أصفر اللون، والبعض الآخر أزرق اللون". " كما تتميز الأمم-قال بطريقة منطقية ساذجة-بأعلامها، فلا يوجد لون يحدد القوة أو الضعف ". " قد أكون متعبًا الآن، لكن من منا لا يتعب ولو لمرة؟". " من المؤكد غدا أستطيع أن أنهض وأركض وألعب كأن شيئا لم يكن".
جالت السماعة طولا وعرضا على الصدر الضعيف، توقف الطبيب عند بعض المواضع بحركة غامضة، نقر أصابعه فرن صدر الفريدو كأنه فارغ، كأنني أراقب كل هذا من خلال غمامة رمادية، كانت ممارسة بعض الأولويات لا غنى عنها للوصول إلى نتيجة متوقعة، في النهاية أستقام الطبيب، قامت السيدة غريغوريا بتدثير جسد الفريدو بالبطانية بعد أن ترخصت، عاد صديقي ليجول بناظريه ويبتسم، خرج دون ماتيو برفقة الطبيب إلى الممر، تابعتهم استفانيا بنظراتها، من دون أن تحيد برأسها عن الفراش، ثم ساقتني قدماي إلى خارج الغرفة تلقائيًا، فتوقفت عند باب غرفة الأسماك لأستمع، مرت من أمامي السيدة غريغوريا مسرعة، تسند قلبها بأصابعها و تمسك مئزرها بإبهام يدها، هذه المرة لمسة فستانها أثارت أعصابي، ودعهم الطبيب ملوحًا بقبعته وعصاه في يده:
-أنه صغير جدا لكي تسوء حالته، وفروا له راحة تامة وغذاء جيدا لكي نعبر إلى الجانب الأخر، وهذا-ضحك-لا علاقة له بمناخ ابيلا العلاجي... سأعود....
لما أنغلق الباب وسمعت خطواته على السلم بدا لي أنه تركنا لنواجه قدرنا، وأن حياة صديقي لم تكن تهمه كثيرًا بقدر ما كانت تهمه حياة زوجته لأنه كان متزوجًا، كان هذه بداية أيام اتسمت بالهدوء وأمل واه ويأس وضيق من جرّاء هيئته التي تبدو أنها ترافق الموت، في تلك الأيام تحولت إلى تابع للسيدة غرغوريا، فقلبها الطيب كان يستوعب حزني وطالما كانت تغذي أملى الضعيف بكلمات تواسيني بها وتملأني عزيمة.

-مناخ ابيلا يا أبني هو معجزة لهذا المرض، لقد رأيت آلاف الحالات أسوا منه وقد مرت بسهولة.
ما كدت أسمع هذه الكلمات حتى غمرتني الفرحة، فخبرة مربيتي في التعامل مع هذه المسالة تتميز بخبرة مطلقة، كنت أؤمن بها لأنني كنت متلهفًا لأن تكون على حق، كنت أريد تصديقها، لجأت إلى فراش صديقي لكي ابلغه جرعة تفاؤلي، لكن شروده صعقني لما رمقته من أول نظرة، جلست إلى جانبه على مقعد صغير متلفعًا بمعطفي الشتائي. (كانت أوامر الطبيب ألا نغلق النافذة ليلا ونهارًا، فتتبع كلماتي دوما نفس ضبابي).
- قال الطبيب أنت الآن أفضل يا الفريدو.
(لكن ما قاله الطبيب حقيقة أن مدّة الشفاء ستستغرق وقتا طويلًا، شهورا طويلة ولربما سنوات عديدة.) أبتسم الفريدو محركًا شفتيه من دون معنى ولم يترك عقد حاجبيه الشقراوين، لم نكن نشاء أن ننبس بكلمة أما هو فقد بدا مقتنعًا بصمته المطبق، وما حدث أثر به في تقبل وضعه الجديد الجامد والساكن، لم يتطلع مطلقًا لأن يسير أبعد مما هو مسموح له، هذه الطاعة أعدها أسوا فأل، لقد خبرت شخصيته البركانية المفتوحة المتهورة التي تحولت تحولا جذريًا..... وهذه الظاهرة تزودني بإشارة بديهية أن الفريدو كفرد يحكم على نفسه بالموت.
في زيارتي أنتهى بي الأمر أن استغرق في تأمل صامت لأسارير وجهه، لم أر صيغة تسمح للكلمات أن تتسلسل متتالية لتعبر عن شئ ما، فغياب الجواب والاهتمام انتهى بي إلى أن أجد نفسي أغرق في موقف لابد منه، حينذاك تضخمت ملامح وجهه فركلت فؤادي، وجهه أصبح كل مرة أشد حدة، فأتسم صدغه بملامح غاضبة. كانت الحمى مرتفعة وكنت أرى نبضه يرتجف، فيجري الدم متناوبًا بسيطرة من الصمامات، حتى ذلك الحين لم أنتبه إلى البقع الصفر المنتشرة على وجهه المائل للزرقة بشكل غير منتظم مثل نجوم في السماء، أحيانا أعدها أو أحاول أن أحصيها، كلما أفكر فيها تتسلط علي فكرة وحشية أن عدد البقع

الصفر ترمز إلى عدد الساعات التي تبقت له من الحياة فأغلق عيني، لكن دافعا ما لا أقاومه يجعلني أفتحها وأعاود العد مرة أخرى.
يتهيأ لي في مناسبات أخرى أن نبض قلب الفريدو لا يفعل شيئا وكأنه تكات الساعة، ولما يصمت رقاص الساعة ستنتهي حياة صديقي لانعدام الهدف. نهضت على عجل من مقعدي لأحفز الساعة القديمة وتبلغ ذروتها، فابتسمت لأن صديقي سيعيش في الأربع والعشرين ساعة القادمة.
برد الهدوء يضني أعصابي بشكل منهجي، فأخذ أملي الزائل يتلاشى في حضور الفريدو، اضطررت من جديد أن أبحث عن صوت محبوب ومحب للخير ومتوثب... كانت جميع الأصوات في الدار غير كافية، ونظراتهم زائغة.... فأرغم مرة أخرى السيدة غريغوريا لأن تستجيب لمساعدتي، بحثت عنها في الدار حتى وجدتها وعدت مرة أخرى لتدوير العجلة بلا نهاية: التفاؤل والفتور والكآبة.... هذه المراحل الثلاث حددت مجرى حياتي فيما بعد.
بعد مضي أسبوع تمامًا تدهور المريض للأسوأ، بدأ مرة أخرى يبصق دما وخفتت ضربات قلبه أكثر مما عليه، كان يستمتع بعشرة مستمرة رقيقة وناعمة كملمس الحرير، في تلك الأيام كنت أسعى لرفقة السيدة غريغوريا أكثر مما مضى، في حين السيد ليسمس كان دوما يداعبني، لقد انتبه أنني كنت لوحدي أقضي يومي وأصرف وقتي، ذات مساء قال لي بنغمة مقنعة:
-لا تقلق يا بيدرو، هذه أشياء عادية تحدث كل الأيام، فالفريدو محظوظ لأنه يعيش في ابيلا، فمناخ ابيلا أفضل من علاج الصيدلي، كان معلمي على يقين أن الفريدو سيتحسن تمامًا أن عاجلا أم آجلًا. بدأت أيأس من شفاء صديقي تمامًا.
مرة أخرى مناخ ابيلا! كنت محبطًا من ثقتي بشفاء صديقي من جرّاءِ أحوال الطقس لإقليم محدد، فنفحة الهواء-كما أظن-متساوية في كل بقاع العالم، أما الثقة بمناخ ابيلا لعلاج المرض أظنه يساعد على التقديرات الروسية حينما حاربوا ضد نابليون، فالروس حالفهم الحظ، لكن أليس

التأثير مختلفًا ما بين الحرب والمرض؟ أم لأن مناخ ابيلا الجاف والبارد يحتوي أيضا على قدرة خصوصية لأن يفض جيشا مدججًا بجراثيم مسلحة حتى الأسنان؟ أم لأن الثلج والوحل والبرد يؤثرون أيضا في الكائنات المجهرية؟ إذا كان الأمر هكذا يمكن أن نعد نابليون تاريخيا بجرثومة سل رئوي ويمكننا أن نؤكد مجازًا أن روسيا عانت من السل في عام 1812،(الآن عندما أشعر أن الفريدو يتنفس تدريجيًا هواء جليديا من غرفته، تتملكني فكرة أن مئات الصيدليات تنفض غبارًا فوق المدينة، من قمم الجبال العالية، أدوية وأجهزة استنشاق وقناني أدوية وحبوبا و قوارير التي تغص بها الصيدليات حاليًا. أظن أن مناخ المدينة صحي جدا!.....

كلما مضت الليالي أجد في مرض الفريدو تغيرا عميقًا، من دون أن أستبعد شكله الخارجي، بالرغْم أن الطبيب لم يحقق رغباتي لكنه أرغمنا على أن ننفصل عن بعضنا، فأنا أنام الآن في غرفة دروس الرياضيات ليلا، لقد وضعت استفانيا والسيدة غريغوريا فيها سريرًا تحت اللوح الأسود، وهناك تبدأ صراعاتي الذهنية المرهقة، يصعب علي أن أنام بلا ضياء، فكنت أوقده بالمصباح المتوهج فوق رأسي، أي بطريقة أخرى الخيالات كانت تخنقني فيجتاحني رويدا رويدا قلق يلتصق بي حد الأعياء، على أية حال كنت أشعر أن أعضائي متقاطعة بتيارات غريبة، أرغمتني بغتة على أن أتنزه بشكل تلقائي و أغرق بأحلامي، يبدو لي في بعض الليالي أن أرقي الهيروغليفي ينتقل إلى اللوح الأسود وهناك تقترن الحروف بالأرقام في عقدة مشرئبة بالمجهول.

حينما يستثمر ذهني قدرته الكافية لكي يتمدد بفتور، تكتسب الكوابيس نعومة دائمة، ولسبب ما تقفز حتى تصطدم بتأثير قاتل: الموت. عذاباتي تحوم دوما حول الأرمل، واللون الأسود للحداد، وطرق الحجارين، وأشجار الصنوبر المدورة بعطرها الفواح التي اختارها الفريدو كي يرقد تحتها إلى الأبد.... تطل علي باستمرار من خلال المقدرة على الانعتاق فبدأت أتفق معها تدريجيا. " كان يقول لي الحياة هي أن تمضي

ضائعًا، بالرغْم أنها تبدو فائزة، لكن على المدى الطويل ننتبه أن المنفعة المزيفة تتحول إلى خسارة أكبر. كل شيء خسارة في العالم، سواء للذين يملكون الكثير أو الذين يتأسفون لأنهم ليس لديهم شيء".
مساء يوم السبت أعترف الفريدو وفي صباح يوم الأحد حمله الخوري إلى التناول. لم يرد على خاطري منظر السيدة غرغريا وهي تنتقد ما حصل في برشلونة حين حملت السيارة القربان المقدس، تذكرت المواقف الخاصة بالسيد ليسمس، والسيد فيليب والسيدة سيرفاندا في تلك المسألة، أن نتائج وجهات النظر المختلفة يمكن أن توجز الحضارة بأنها حماقة ونجمة بلا وهج خاص، وهج زائف وميضه سطحي يمكنه أن يخدع الساذجين. هذا الأحد، في حين الفريدو يأخذ التناول انتبهت إلى فراغ الحوار الإنساني، حتى في أراض جادة، الحضارة نفسها لم تكن جيدة ولا سيئة، كل شيء يعتمد على التقدم الذي تتسم به. فالانتقال إلى الله بسيارة أو بطائرة ليس بحافز على عدم الاحترام بل على العكس هو تطبيق محدد للمعرفة الإنسانية، وتتداخل جدير بالثناء للحافز الحضاري في خدمة الذات الإلهية، حيث تفشل الحضارة في مساومة الإنسان على الموت، لو كنت طبيبًا مختصًا لن يهدأ لي بال إلا إذا وجدت علاجًا لأمراض معينة أكيل اللعنات من صميم قلبي للأطباء الذين يبددون الروح من دون أن يتأسفون لعدم تغلبهم على المخاوف، هؤلاء الأطباء المسرفين الذين يبددون طاقاتهم في الخوض بالوحل من دون أن يدركوا المعاني السامية لمهنتهم. (تأملت لاحقا هذه الحقائق على قدر مثابرة من كاد يبلغ الثالث عشر عاما. لقد استوعبت أن طفولتي مكثت ورائي، تحديدًا يوم رحلتنا إلى كواترو بوستس، لما رفع دون ماتيو أمام ناظري ستارة كشفت عن الحياة بكل ما فيها من مآس وبؤس.)
صباحًا تدهورت صحة الفريدو من جرّاءِ مرضه، فقام دون ماتيو بإبلاغ والدته في مدريد، لم نكن نعرف شيئا عنها فاتصلنا بها لما تقيأ للمرة الثانية واحتمال تدهور حالة أبنها، اجابتنا حينها أنها ستأتي سريعًا لتكون إلى جانبه في حين واصلنا أعلامها بما هو جديد، تمنيت بحماسة لو أن والدة الفريدو تصل لكي ترشدنا إلى "ذلك"، لان تلك ال "ذلك" ما زالت

قادرة على أرشادنا إلى الحل، في ليلة يوم الثلاثاء بعد مرور تسعة أيام منذ أن هوى خائرًا في فراشه.
-أظن أنني تحسنت-قال لي بصوت واهن: بدأت أستعيد قواي بطيئًا. لقد امضينا وقتا ممتعًا في كواترو بوستس! أليس كذلك!
لم أشأ أن اخيب أمله، لقد كان يحتفظ بذكرى جميلة لآخر ما تبقى لديه فأبديت احترامي له، كان الفريدو يجهل أن من بين كل الأيام السعيدة التي رافقته بصحبتي البسيطة، كان هروبنا إلى ساحة كوترو بوستس الأكثر مرارة كأنها تنغزني بمهماز بلا كلل وتعصرني ملامة قاسية.
-على أية حال-واصل الفريدو-لا تنس رغبتي لأن أسترح تحت ظلال شجرة الصنوبر، "أن كان ذلك ممكنًا".
أكدت له أنني سآخذ بنطر الاعتبار "ما هو ممكن"، ثم عبر عن امتنانه لي كاشفا عن ساعديه الضعيفتين ليطوق رقبتي وعانقني بقوة، أجبته بعواطف جياشة، ولما فك ساعديه كنا كلانا نذرف دموعًا بليدة على خدينا،
-لقد تحسنت كثيرًا....
إصرار الفريدو يثير شكوكي، هل كان يشعر أنه يوشك أن يفارق الحياة ويريد بأي ثمن أن يجعلني لا أتأسف لدنوه؟
-أعدك أنني عندما أتحسن سأزن نفسي كل أسبوع....
لماذا يريد أن يؤكد الخطأ؟ لماذا يريد أن يستعيد أكثر الأيام سخونة؟ لماذا كل هذه الطيبة وذلك الالتزام والامتثال لرغباتي، التي لم يبدها في أي ظرف من حياته؟
"يقولون إن الأموات ليسوا بشريرين-هل يبدو الفريدو لطيفا لأنه تكهن بالرحيل، ولأنه بدأ رحلة الموت؟"
-مؤكدًا أن أمي ستأتي هذه الليلة... رب ظروف شاقة أحيانا تجعل الأمهات! "والرجل" أن جاء لا تدعه يدخل... أنه شرير... وعندما يكون الناس شريرين قد أغفر لهم لو أنهم احتفظوا بشرهم لأنفسهم فقط... ولكن ألا يستخدموا أداة بريئة ليمسوا شريرين...

كدت أن أعده بذلك لما تنبهت أنه لم ينه كلامه، قال كلمتين ثم أضاف، بعد فترة صمت، وكأنه كان يتأمل شيئا خاصا:
-لقد أزعجني سابقا.
-حينها كان يعلم أو في الأقل يعتريه ارتياب بنوع حياة أمه، لذلك لم يبد تجاهها حقدا، كان ينظر اليها كضحية بسبب أنانية ووحشية الرجل.
" كان الفريدو في تلك اللحظات يبدو رائعًا -قال لي-لقد خرق روح "أنسان" بعمق غير مألوف، كما لم يفعلها بدا"
بغتة أستقام بطيئًا، وقد تدلى خداه مترهلين حتى فمه، فشكلا مع وجهه شكلا بيضويا، كانت تضيء خده وجنتان ناتئتان دليل على صحة كاذبة، يلمسني بيده الهزيلة ليقنعني أن أستمر بجانبه.
-أسمع.... ليجلبوا لي الأسماك... منذ مدّة لم أراها تتناول الطعام...
نهضت لتحقيق طلبه، مدركًا أنني يجب أن أنفذ وصيته قدر مستطاعي، كان دون ماتيو والسيدة غريغوريا يتحدثان بصوت منخفض، ومن همسهم الخفيف الذي أضحى الصفة الطبيعية لذلك المنزل، حمل السيد ليسمس حوض الأسماك فرحا بلا تردد لأنه أستطاع أن يواسي به قلب المريض.
-أحترس يا ماتيو، لئلا يمسك الطفل بالأسماك... من المفزع أن تتحول إلى ناقلة جراثيم...
جرحتني كلمات السيدة غريغوريا، وهي تردد كلمات السيد كاسبر" الطبيب الطلائعي"، لربما هي على حق، لكنني شعرت بالإهانة، لم أشأ أن أرى الفريدو أن يوصف بأنه خطر، نبحت فاني من باب المطبخ، أظن أن الفريدو سيكون ممتنا لزيارتها، مندون أن أفكر كثيرًا فتحت باب المطبخ قليلًا لأسمح لها بالدخول غير آبه لمراقبة مربيتي. قفز الحيوان الذي اشتاق قليلًا لمداعباتي العادية، بعد أن خمنت ما يدور من اضطراب في ذلك البيت، هرولت في الممر ولم تتوقف حتى ارتمت فوق الفريدو ثم لعقت وجهه بلسانها الطويل مداعبة إياه.
-فاني!

رنت صرخة السيدة غريغوريا كأنها صرخة الفريدو في الطريق حينما أصبحت عرجاء، كانت صرخة حذر وممانعة.... لم يأبه الحيوان الصغير لها وواصل قليلًا مهمته غير الصحية ما بين همهمة فرح من جانبه وبهجة الفريدو الدافئة من الجانب الآخر، أمسكت السيدة غريغوريا الحيوان من ذنبه وسحبته بضربة حادة. تريد أن تتفادى مؤكدًا أن فاني تتحول إلى " ناقل جراثيم" آخر. نبحت الكلبة فزعا وهربت وهي تعرج باتجاه المطبخ، أقترب أستاذنا من فراش الفريدو وهو يحمل بين يديه حوض الأسماك الأخضر، كانت الأسماك تسبح قلقة، تتأرجح من جرّاءِ عدم استقرار التوازن، لما فتح الفريدو عينيه، أخذت أفتت قطع الخبز بسرعة للسجينات، نظرن إلي مستغربات، وهي تجهل سبب أعطاها حصة مضاعفة في هذا اليوم. بعد مضي بضع ثوان تراجعت بهجة أقامة الوليمة ثم انقضت على فتات الخبز بشهية ظاهرة، كان الفريدو يرمقها، وعيناه مفتوحتان باتجاهها مبتسمًا، لما انتهت السمك من ابتلاع الطعام، أخرجهم دون ماتيو من هناك ثم ودعنا المريض حتى اليوم التالي.

ما كدت أخلع ملابسي حتى انهالت علي الأحداث والأحاسيس تكدست علي، أظن أن نظام التسلسل لهذه الأحداث كان كالتالي:

بضع خطوات سريعة على الباب ووقع كعب لأقدام أنثوية مسموع فوق الدرجات الأربع للسلم، وصرخة تطلقها أمرأة من مكان لا يمكن تحديده. دوت كلمات قليلة لتنشز الإيقاع الخفيف الذي يسود منذ تسعة أيام حوارات ذلك البيت.

رنت صرخة مدوية،

هرولة متهورة وهائجة في الممر،

نداء متشنج على الباب في الشارع،

ثم تلتها صرخة أخرى حادة،

تكرر النداء على الباب في كل مرة اشد هيجانا....

كنت أنتظر هذا منذ مدّة كما قناعتي انه لا توجد عضلة في جسدي قد تغيرت، أخذت أتكهن رويدا بتلك الأدلة الكافية لأشرح ما الذي حدث،

انقبضت نفسي ثم سرت إلى غرفة الفريدو، كانت مضاءه ويصدر منها صوت نحيب، دخلت وجدت الفريدو مازال مبتسمًا لكن فوق حافة الشرشف عادت للظهور البقعة الحمراء المرعبة، كان السيد ليسمس يضع مسمعيه فوق صدر الفريدو، ما كدت أدخل حتى أومأ لي برأسه إشارة "لا"، السيدة غريغوريا واستفانيا نحبا طويلًا لما رأيا أشارته، باب الشارع مازال تفتح وتغلق بلا هوادة.
خرجت استفانيا تجفف الدموع بمنديل متسخ، والسيد ليسمس ثنى طرف الشرشف وغطى وجه الفريدو الباهت، وفجأة ضج الموقف صراخا تلاه عويل امرأة، بالرغْم أنها كبرت لكنني عرفت أنها والدة صديقي، فصرخت بحدة أكثر لما رأت الجسد مسجى فوق السرير، ملطخ ببقعة حمراء، ارتمت فوقه وكشفت الغطاء، كان الفريدو مازال مبتسمًا فاحتضنته أمه، وضمته إليها، ولما أفلتته هوى نصف جسد صديقي جامدًا وثقيلًا فوق الوسادة وقد سال خيط من لعاب وردي من زاوية فمه اليسرى.
نظرت للأشياء وكأنني لست بأنا، عيوني كانت جافة، كنت أرى واسمع لمجرد الفضول... أطلقت فاني من المطبخ عواء ثم كررته لفترات طويلة على مدى الليل.

الفصل الرابع عشر

انتابني إحساس بالوهن في اللحظة الحاسمة لفراقي لألفريدو واستمر حتى لحظة دفنه، غالبا ما كنت اقارنه بشعور كالخدر الجزئي الذي يصيب فمي بوخزة أبرة طبيب ألاسنان، الاختلاف يؤثر فقط على الاسترخاء وعلى نوعية العضو المخدر، في تلك الأيام انعدام الإحساس يصيب نوعية العضو النائم، لكنه يحيا فقط بالمشاعر، حافظت تمامًا على قدرة فهمي، لكن مشاغلي لا تتجاوز سطح جلدي، ولا تجاوز جهازي العصبي، كنت موجودا كمشاهد نزيه لأي مشهد، كنت أرى، لكن الرؤية لم تترك بداخلي أدنى أثر، أبديت اهتمامي بكل شيء من دون أن يؤثر كل ذلك في حياتي الداخلية، الملغاة تمامًا والفاشلة والبليدة.
أذكر أن ليلة وفاة الفريدو كانت أكثرا الليالي تأثرا التي عشتها حتى الآن، لم أشك أبدا أن إلغاء أنسان من على وجه الأرض يطلق العِنان لسيل من النشاط مشابه لنشاط الأحياء، لقد تأكدت بعدها من فكرتي البدائية بأن الكثير من الأحياء يعيشون على حساب الموتى، فبطاقات الدعوى والصندوق والتقرير الطبي والخياطة وإذن المحكمة وأشياء أخرى كثيرة، جعلت بيت أستاذي في تلك الليلة في حالة جيشان كامل، تحركت استفانيا أكثر من المعتاد، بالرغْم أنها في عشية ذلك اليوم اشتكت كثيرًا من أزمة روماتزم قدميها، فتحركت استفانيا في تلك الليلة لتلبي طلبات الكل بسرعة غير عادية، من المؤكد أن أفضل علاج للروماتيزم هو أن نوليه اهتمامًا كبيرًا.
أتذكر جيدا كيف الفريدو تم تكفينه من قبل أمه والسيدة غرغوريا ببدلة زرقاء داكنة كان يرتديها في المناسبات الكبيرة. لن أنسى الصعوبات الكامنة في تلبيس شخص ميت، فالمفاصل فقدت مرونتها، وجميع الأعضاء أصبحت ثقيلة، فالصلابة حولت الجسد إلى هراوة بلا مرونة، كأنه قطعة واحدة. كل ذلك وضح لي أن جسد بلا روح هو ببساطة كفزاعة طيور، لما انتهت المرأتان من ترتيب الجزء الخلفي للبدلة

وتنسيقها بعدها ألبوسها للجسد الجامد، ما أن انتهوا من هذه العملية طفقت والدة الفريدو بالبكاء، كان جفنيها حمراوان وجمالها قد ولى بسبب البكاء الشديد الصامت، فكرت ما سيقوله "الرجل" أن تأمل الآن معبودته بكل أصالتها، تحولت إلى مادة بلاستيكية أتسمت بطابع الموت البارد والظاهر، لما جاء الفتيان بالنعش إلى الغرفة أصبح بكائها أشد حدة وتشنجنا وعمقا، كان صندوق أبيض اللون، فتقبلت أن الفريدو مات قبل أن يصبح رجلا، وفتيان الجنازة وضعوا جسد الفريدو في النعش بأنفسهم، كان وجه صديقي مغلق في تجويف الصندوق، يشبه كثيرًا أحد محاربي الكوة، وشكرت أنه لم يكن أحدى الذين داعبت أنفهم بكرة الثلج، شاءت المصادفة أن يكون مشابهًا لأحد المنتصرين.

عند رؤية الفريدو ممدا في التابوت، توجهت أمه صوبي مندفعة وقبلتني وحضنتني مرات عديدة، ونادتني "أبني"، شعرت باشمئزاز في خدي لا حدود له كأنه لعاب أوحرقة، وكأنهم قربوا من وجهي حيوانًا وحشيا ودودا وناعما. أتذكر أنني تركت موكب صديقي لحظات ولجأت إلى الحمام حائرًا، فضلت ألا أشعل الضياء كيلا أرى وجهي، أتذكر أنني بحثت عن منشفة متلمسًا الأشياء ثم مسحت بها وجهي مرات لا تحص، حتى أنني شعرت بوخز حاد في خدودي، جلست حينذاك أحمل المنشفة البيضاء ودفنت وجهي بيدي ثم جثوت على ركبتي هُنيهة من الوقت مكثت هادئًا وشاردًا، قابعًا في الظلمة، لكن عواء فاني أعادني إلى الواقع، نهضت فانتبهت إلى أن شيئا خانقًا مازال يحرق خدودي، فكرت بقبلات تلك المرأة فراودتني من جديد حالة من التقزز، سكبت دلو الماء في المغسلة، ثم دلكت وجهي بالصابون مرات عديدة لكي أنزع عن جسدي الأثر الحامض لآثار القبل والدموع، بعد أن انتعشت غادرت الحمام وقد عزمت ألا أترك نفسي للهواجس.

عند حافة التابوت ما زال بعض النسوة يبكين، السيدة لينور وجارتنا في الطابق العلوي الذي نزلت منه لترى من كثب خفقان الموت لجسد شاب يوارى الثرى، كان ألمها عميقًا على "المسكين" تردد عبارات بنبرة خافتة حتى انتهى بها الأمر لتقول "ترابا" بالكاد تسمع، كانت تتأسف

لكن حزنها كمن فقد طائر الكناري، لكنه أمر لا يثير الدهشة، لأن السيدة لينور كانت أمرأة جيدة قاسية القلب، مكثت هناك بضع ساعات تتظاهر بتلك الأحاسيس المرضية ولربما تتلذذ بالمصائب التي جلبتها لها عذريتها.
لما أنصرم الليل رويدًا، أتخذ التجمع الباهر هيأه مختلفة، قال أحدهم في الوقت المناسب بالرغْم أننا ذرفنا الدموع لكن هذا لن يعيد الحياة "للولد" ويظن أنه من الأفضل أن نرفع توسلاتنا إلى السماء لرحمة وشفاعة الروح، لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي سيدوم، بعد ذلك ابتدأ الجميع بالتسبيح تتصدرنا السيدة غرغوريا. مكثنا على هذه الحالة حتى الفجر، تواصلت الصلوات برتابة، لترتفع بهدوء إلى السماء، فالابتهالات الطويلة تشعر النفوس التي ثكلها الألم بالاسترخاء، فهمت في تلك المناسبة بأن الصلاة هي أكرم فعل نقدمه لمن توفى، وكل ما تبقى هو مجرد أنفجار لا ينتهي لأنانيتنا.
في اليوم التالي، ترجت والدة الفريدو السيد ليسمس أن يتولى كل الإجراءات المتعلقة بالدفن، كانت تود لو تنجز كل إجراءات الجنازة في يوم واحد، فوجود الفريدو بلا حراك كان يثير اعصابها، ولا تطيق أن ترى ذلك المشهد ولا الهوس الذي ينتابها حين رؤية جزمته المتطلعة إلى السقف.
عاد دون ماتيو في وقت تناول الطعام وقد صدّق جميع الأوراق، عند الساعة الرابعة سار موكب الجنازة، كان يومًا من أقسى أيام الشتاء، لقد أثلجت صباحًا، والآن تقدمت العربة ببطء فيصدر عنها صرير كلما دعست الأرض، فتتأرجح وتهتز، سرنا خلفها برفقة القس ودون ماتيو وأنا، وخلفنا مجموعة من الرجال يتكلمون أشياء غريبة ومواضيع غير مستساغة، أمست العربة بيضاء، في حين الثلج كان ينثر على وجوهنا مظهرًا سخيفًا.
لما مررنا معًا من أمام البيت الجديد، أطلت سيدات ريكاتيلو في الشرفة، شعرت بالأسف لأنني لم أستطع أن أخبر الفريدو أنهن رسمن علامة الصليب حينما رأين النعش، على عكس ما كن يفعلنه حينما يشاهدن

جسدا حيا، خيل لي أن أحد الصبيان الذين يرافقون الفريدو تحرش بهن، وأظن أن سيدات ريكاتيو ضحكن وشعرن بالسخط من طيشه ومن أوهامه الثملة مجرد التفكير بأن جاذبيته كانت قوية حتى للرجال الذين يتولون دفن الموتى، مما لا ريب فيه أن العالم يتواصل...
عند أستدارة الشارع لمحت " الرجل" في وسط الجمع الذي يرافقه، خيل لي بأن الفريدو سيمقت ذلك المشهد وكذلك أنا سأمقته أيضا، لربما تلك الصدمة جعلت أحاسيسي تستفيق، فتأثير "الإبرة" أخذ يتلاشى.
فأدركت أنني أرافق الفريدو في رحلته الأخيرة، وأن التابوت مغلق ولن أراه مرة أخرى، انتابني قلق وشعرت بدوار وأنهاك.... وأدركت إلى أن مخاوفي قد تحققت في مدة قصيرة، بالرغْم ذلك فأن ذهني لم يعد لصفائه تمامًا. ما زلت غير قادر على قياس أبعاد استيائي ولم أفحص مدى رفضي، تناهى لسمعي حوارًا من خلفي، محادثات فارغة وشاذة عن الحدث وغير مناسبة له....
تحدثوا عن الروس واليابانيين وميناء آرثر، وأشاروا إلى نتائج محتملة لانتفاضة جماهيرية في سانيترسبيرج، قال أحدهم إنها البداية "لأمر جسيم".
أجابه الآخر أنه أمر منطقي ومقبول لأن في القرن العشرين لا يمكن التسامح مع العبودية.
في غضون ذلك كان الفريدو يواصل طريقه إلى حتفه في القبر، ولم يعد يهمه شيئا، كان أقل من حبة رمل، واصل الرجال حوارهم القاتل عن ميناء آرثر ومطالبتهم المميتة للحقوق وللمطالب الاجتماعية. أما موت صديقي فلم يهتم به أحد، بل حتى التصفيق أو الذكرى لأعماله، لربما تمثال في ساحة عامة له ملامح أكثر هيمنة. لكنه غادرنا متوفيًا، صامتا، وشاحبًا في سريره، (لربما سينتبه العالم بأنه يوجد أبطال قضوا نحبهم في فراشهم، فأبطال من هذا الصنف لا يبحثون عن موت الآخرين ليقنعوا رغبات ليست نزيهة دوما.)
خرجنا إلى طريق المدفن، تحملق بنا الأشجار على جانبي الطريق، لا تقدم الآفاق سوى ثلج في كل مكان.... لمحت ظل الأرمل يسير في

الطريق نفسه: خيل لي أن مظهري الحالي قد يحتفظ بالعديد من النقاط المشتركة مع الخيال الذي أحيته ذاكرتي. أشعر أنني أطوف في فضاء أبيض، يرافقني صديقي الوحيد والأخير في رحلة نهايته، وشوشت أذني ضربات الحجّارين، فولدت لدي انطباعًا إن كل ضربة تنتزع كسرة من جسدي، كان الخشابون يعملون فوق الجليد، قد يخطفه الموت في عمله بأية لحظة، وتحفظ تلك الحجارة المصقولة قبره، فكرت أنه أمر جميل أن نزخرف بأيدينا مضجعنا الأخير.

أرى الآن سياج المقبرة من بعيد، فتذكرت أنني كنت أسير فيها قبل بضعة شهور تملئها ضحكات الفريدو، لكنه الآن يرقد بلا حراك يلفه الكفن الأبيض وتحمله العربة، من خلفي يتواصل الحديث عن الروس واليابانيين وميناء آرثر، لقد أتنهى كل شيء، لا يوجد احترام للموتى، ولا حتى شيء من الرحمة لتلك ألاثني عشر عاما المحبوسة في صندوق أبيض وكأنه بضع غرامات من الحلوى. توقفت العربة بقرب السياج، تولى حمل التابوت أربع رجال، فوقف القس ليلقي التحية بترنيمة كئيبة، فرأيت شجرة الاكاجيا العتيقة قد خدرت من جرّاءِ الثلج وتحت ظلال شجرة الصنوبر سيرقد الفريدو ليستريح.

تقدمنا في الممر الرئيسي تتقدمنا صلبان القبور، من الجهة اليسرى واليمنى وأمامنا... صلبان وشواهد قبور تغطت بالثلج، هنا يرقد مانوليتو كارثيا الذي كان ضحية يوم مشؤوم بسبب مرض الزحار الفظيع، شعرت من جديد بالتقزز وبصقت على الثلج، انتبهت إلى أن "الرجل" لاحظ حركتي ورمقني حذرا، تأرجحت أشجار السرو كأشباح، تجمعت تحت غطاء من الثلج. تذكرت الثمرتين اليانعتين اللتين نضجتا على أغصانها وذات يوم ستظلل رأس الفريدو الأشقر الذي طالما تأمل الموت.

لم نعد نجد أمام القبر المفتوح: "قبرا"، لقد اكتسبت المفردة معنى رهيبًا "وراء عالم آخر"، يفتح حلقه بسبب الجوع ليلتهم جسدا بفظاعة، شعرت بالخوف، وتأسفت لأنني سأترك هناك بقايا عزيزة عليّ، في اللحظة التي توقفنا جميعنا أمامه، مر على خاطري زمن السنوات المنصرمة التي لا

توصف كوميض البرق، "فالإبرة" فقدت رويدا كل تأثيرها، جعلتني استرجع بقوة جارفة كل أحاسيسي المألوفة، تراءى أمامي الفريد وهو يتحرك ويتكلم ويومئ بحركاته الفرحة المعروفة، وخصلة شعره الشقراء تتدلى على جبينه بشكل مثير للإعجاب ومتألق.
"على أي حال أود أن أستريح تحت ظلال شجرة الصنوبر، لأن ظلالها شيء آخر، أكثر عبقا وأكثر إنسانية.... أكثرها ودا في كل الأحوال.
"أنها مجرد عبارات، لكن الأموات حيث وجدوا هم أكثر صحة من الأحياء حيثما وجدوا أيضا، أنه أمر غبي، هل تفهم؟ " فالعالم يجب أن يكون هكذا، بعضهم سمين والآخر نحيف، بعضهم طويل والآخر قصير، بعضهم ثري والآخر فقير، بعضهم شرير والآخر طيب القلب.... هل تعرف لو أن الأشياء مضت بطريقة مختلفة لأمست مضجرة؟". ايه، كل ما يبقى على قيد الحياة سيبقى قريبًا مني وفي داخلي! أكد الفريدو عباراته بنبرة خاصة، ومسد حاجبه الأيسر بيده اليسرى نفسها...
أراه –يا إلهي-يتجول مسرورًا ومندفعًا نحو المدينة، يجري حافي القدمين فوق الرمال الرمادية للمنخفضات المائية ويجتاز نهر آدخا مشمرا عن بنطاله حتى عضلتيه....
أراه يثب ويقفز، نشطا! يومي بإشارات من خلف تنورة السيدة غريغوريا عندما تطلب شيئا أو تنتقده، يثير قلقلي بسبب وزنه، مبتسمًا حينما يصف لي غضب التجار حينما ينقلبوا إزاء أمواج البحر حيث مصب النهر.... كان قريبًا مني، كنت أشعر بدفئه وواقعه، كلما رمقت القبر المفتوح بنظراتي لا أصدق أن ذلك الفراش البارد وتلك الأرض التي حرثت للتو، ملأها العديد من الحشرات جهزت له.
سيضع الرجال الأربعة ذلك التابوت في الحفرة، أطلق أحدهم كلمة غير مؤدبة حينما أحتك الصندوق بحافة القبر، ما زلت أسمع من خلفي حديثًا عن ميناء آرثر وعن الروس واليابانيون، لتحل اللعنة على الروس وعلى اليابانيين! كأن العالم لا يثقله في تلك اللحظة سوى خطر جسيم كنفحة قاتلة قد تخمد كل نشاط فوق سطحه؟

لقد امتعضت أحشائي من اللامبالاة المحيطة بي، لا أقوى على تحديد أي دافع حركني، أتذكر فقط بأن أحد شدني كانت مداعبة دافئة لدون ماتيو حيث جرني إلى النعش الأبيض وأخذ ينادي لصديقي بصوت عال،
أتذكر أن الموقف استدعى مجموعة رجال ليفكوا عناق اللحظة الأخيرة ولما غضبت على الذين يحاولون أن يمنعوني، كأني رأيت أولا أن ذلك النموذج الكريه "للرجل" كأنه ينتزع لحمة بيديه الكريهتين، غلى دمي للحظات، فتحجر غضبي وألمي ووحدتي الرهيبة إزاء تلك العيون المستهزئة، خصوصا تلك الابتسامة الناقصة التي تنم عن الاحتقار، واجهته وأنا في ذروة سخطي.
-وغد! بسببك حدث هذا.... أنت من سببت كل ذلك، لكن لتعلم أن الفريدو لم تسره رفقتك إلى القبر، الفريدو يمقتك وفوق كل هذا، يعدك شريرًا وأنانيًا... تلقيت على وجهي صفعتين مدويتين، بالأحرى صفعة ذهابًا وإيابًا جعلتني اتمر جح، تدخل دون ماتيو فيما بيننا، ليكتم على حدث غامض، وكرر كلمات واضحة، فناداه "بالجبان" وأشياء أخرى، أحترق وجهي لكن قلبي كان وديعا، خيل لي فيما بعد بأن الفريدو سيرقد بسلام في قبره. لقد عرف "الرجل" ما كان يود هو أن يقوله له، لعلي أعده انتقامًا له. مكثت أنا والسيد ليسمس فقط بجانب ضريح صديقي، أما بقية المرافقين فقد اختفوا، مؤكدًا أنهم ما زالوا يواصلون حديثهم عن الروس واليابانيين وميناء آرثر، أو لربما حول هدوء البروليتاريا التي اشتعلت غضبا في سبيريا، والأسوأ من ذلك بالنسبة لهم، الأسوأ لهم أنهم لم يفكروا ذات يوم انهم سيقومون برحلة الوداع نفسها، سيجلبون لهم عربة كما الفريدو وسيكفنون بأحكام، لكنهم سيمكثون هناك بلا عودة، ومن يرافقهم سيتحدث أيضا عن الروس واليابانيين وميناء آرثر غير مبالين لذكراهم.
ليلا بدأت تهبط من السماء نتف الثلج بهدوء من جديد، أما دون ماتيو ..... فقد ركع كأب لنا عند حافة القبر، لما أجابه، شعرت أن مقدمة نعش الفريدو شمخ كشجرة صنوبر جذعها مستقيم رأسها ممتلئ، تزينها أوراقها المعمرة والمسننة.

" في فصل الربيع والصيف-فكرت-ستظلله الظلال كما السيدة سيرفاندا، لو أنها ولدت شجرة. بدلا من أمرأة..."

الفصل الخامس عشر

لما عدت من المقبرة لم أتقبل موت الفريدو حتى مررت بالكوة، ولما دخلت دار السيد ليسمس ولجت غرفتي البسيطة التي كانت تفوح منها رائحة المطهر فاقتنعت بمدى تعاستي. أول شعور خالجني هو فراغ متجهم وفظ وشديد الوطأة... فيما بعد أندمج شعوري هذا مع إحساسي بالخلود، فسنوات عمره المقبلة لم تصلح هذا الفراغ، أي سأكون لوحدي وإلى الأبد. ملاحظة ثالثة راودتني منذ لحظة، هي ألا أنسى الفريدو مطلقًا حتى لو حاولت ذلك.

خلقت هذه الانطباعات الثلاثة معًا من حولي جوا خانقًا لا يقاوم، لربما لن أقوى أن أتكيف مع تلك الحياة الجديدة غير المترابطة دون علاقة روحية تربطني ببقية الناس، كأنني أعوم في الفضاء، بلا رباط تمامًا سواء كان عقلانيا أو غير عقلاني. فهمت عمق حقيقة كلمات السيد ليسمس حينما قال" ما بين الخسارة والربح فهو يفضل الأخيرة". بعد أن تذوقت صداقة الفريدو يشق علي أن اتجاهلها، وكأن السنتين الأخيرتين مرتا كالحلم، الموت ليس بحدث سيء لمن فارق الحياة، طرقت مفكرًا، لكنه أمر شاق لم يبحر خلف أثر سير خطّه الآخر بلا عوائق، فيتحمل حياة طويلة مترهلة مسلوبة الحافز....

خيل لي أن قلقي سيتضاءل لو أن صديقي حلق كاملًا إلى أقاليم في الأعالي، لو أن الرحلة الكبيرة شملت الجسد والروح بشكل متناغم، لو أن جسده حلق ساكنا لكنني أعلم أن بقية جسده المتيبس مكث ليستريح في حماية حجر من الغرانيت، أكاد أفقد توازني حتى أشعر أن جسدي يحلق جليا بلا وزن في الفضاء ويدور كقمر غريب في فضاء الكون من دون أن يتعب.

تآلفي مع الحياة الخارجية في تلك الأيام يتحمل عبئه بيت أستاذي الذي لم يعن لأتخلص من ذلك الشعور الفظيع بالوحدة، لقد غيّر الموت دار السيد ليسمس بصورة حساسة. كنشاط متوثب يستند إلى جدار متأرجح

ناعم كملمس الحرير تمركز حوله قلقنا في أثناء مرض الفريدو، شيء من قبيل هذا الهاجس القلِق كان يراود حياتنا بإصرار وبعمق، توقفنا عن الاستماع إلى صندوق الموسيقى بعد وجبات الطعام، وتلاشت نشوة مرح فاني، وتفاؤل استفانيا، وثرثرة الصغيرة مارتينا المشوهة، ولم يعد تقديم الطعام للأسماك احتفالًا جماعيًا بل نقوم به لمجرد إشباعها، فقدت الأشياء تناغم ألوانها، كذلك الجدران والأثاث، ثم تلاشى وميض صداقة حارة في ريعان شبابها كانت تلون أعماق الدار التي كانت جافة الأجواء.

ما زال ظل الموت قائمًا متشبثًا بسطح الأشياء، لم ينحجب بالرغْم اختفاء الجثة، بل على العكس فأن ابتعادها جعله يطيل وجوده، أنه حزن ما بعد الوفاة وكأن الموت خلف له طفلا في منزل يسوده الحداد.

كان يتفاقم في أثناء وجبات الطعام فيسبب ذلك الغياب لي ألما كتدفق البخار، بت افتقد تآزر وتلاصق العائلتين محتشدتين حول المائدة سواء بشكل طبيعي أو مصطنع، بدون الفريدو كنت أشعر أنني منفصل عمن أنا بضيافتهم وهم يشعرون أنهم بعيدون عني، ومحاولاتهم في التودد بدت عبثا بل تكرارها من قبل السيد ليسمس بدت مزعجة، أنا أعيش معهم بموجب عقد وهذا العقد يوحد مصالحنا لكن القلوب لا تبارح ما أنابها من بلاء، لرب شرارة تؤجج شروط العقد، وقد تجعل من مادية الروح غذائي وقد أدرك عقد الثمانينيات؟

أنها فعاليات دون ماتيو الشهرية بالرغْم ذلك كانت تلك شرارة التي حملها لي الموت، لو أنني أقوى الاعتماد على نفسي لما مكثت هنا وقتا أكثر مما يتطلب دفن الفريدو وغادرت هذه الدار حيث كل حركة وكل ملمح وكل صرير باب تهيج ألمي حينما تفتح أو توصد وتثير ذكرياتي واشتياقي له.

فحضور النفس الغائبة تدرك من دون أن يبهتها الزمن، كان بالنسبة لي كإله في كل مكان، حتى أنني ظننت أنه الروح وقطعة من الخلود يجعلها الخالق في كل أنسان حينما يبث فيه الحياة، خيل ألي بفضل هذه المعجزة

أن بقاء الإنسان في الأرض يمضي إلى ما أبعد من الموت، ولا يتلاشى إلا بعد خمسين عاما حتى الجيل الثاني أو الثالث.
لقد أدركت أن جسد صديقي قد نما بنوع وجبات الطعام نفسها، فكل مئة ريال تدفع شهريًا تشكل الجدار الأساسي لهذه الدار، أنها القاعدة الاقتصادية المتينة، أما الآن فروحه لا تدفع أجرا من أي نوع للسيدة غرغوريا، بالمقابل يجب أن يتواصل دعمنا الجسدي. فتوجه القهر الاقتصادي نحونا، حتى فاني شعرت بعدم اكتفاء المعدة من جرّاءِ عضات الجوع، بالكاد شيء صلب كالخبز يبلغ أفواهنا، ولما يصلنا يكون ثقيلًا وبمقدار ضئيل حتى باتت تغذية الحيوان بتضحية من حصتنا. ومع ذلك كان جوعي في الأيام الأولى ضئيلًا كما أوهامي، فتمكنت فاني أن تسند جسدها الضئيل من جرّاءِ انعدام شهيتي وكرم نفسي.
أتذكر أنني أمضيت بقية العام ببذل جهد شاق وعنيد لكي أتكيف مع الأوضاع الجديدة للعيش، كان أمرا صعبا، وصراعا شديدًا، وعند اللحظة الأخيرة تحول إلى خواء مثبط للهمم، فالفريدو يواصل حضوره من دون أن تتردد هبة وجوده المرافقة لروحه لأن تظهر لي كل لحظة. كانت تأسرني بإلحاح، فغيابه حاضر يؤكد يتمي، كأنني أراه وأسمعه في كل لحظة فيرسم هالة تعكسها ذؤابة شعره الشقراء. لم أكن أستطيع عمل الكثير في ذلك الوقت لأن تأثيره لا يبارحني، كانت ذكراه في كل الممرات المميزة لتاريخنا المشترك، فتنعش تفاؤله وقناعته بخلود الشباب، وأيمانه الطموح بأنه سيكون ثريا ذات يوم ويتحرر من قهر تلك الجدران ويحرر والدته من قمع آخر.
لقد عادت والدته لتهرب، مما لا شك فيه ستحرر لكن بشكل مخالف بما حلم به الفريدو لكنها طليقة في النهاية. (الألم الذي أعتصره سيتلاشى كما زخات مطر ت فوق أرض رملية، فيتغلغل سريعًا ليبلغ مكانا عميقًا ومجهولًا من الجسد، ولن يبعث ضياء. هناك يمكث ألمه مستترًا وصامتا ويختنق وجعا بالرغْم سلوكه العبثي والسطحي الذي دفعه لأن يقبلني ويحتضنني وكأنني أبنه.) لقد هربت مع "الرجل" الذي يتظاهر أنه

سندها الوحيد والمناسب ليحافظ عليها ويزيل عنها رطوبة محنتها. لم نعلم مطلقًا ماذا حل بها، تجاهلت ذلك حتى النهاية، لماذا سارت المنعطفات متشابكة ومتخفية أمام حياتها لينتهي بها الأمر إلى خيانتها السوداء لأبنها ونفسها.
لما تحسنت الظروف، لاحظ دون ماتيو وضعي فسمح لي بالخروج للتنزه مساء حيثما شئت، اعتدت أن أقوم بذلك مرتين في الأسبوع، وفي مثل هذه المناسبات تقودني قدمي تلقائيًا إلى المقبرة، فأشعر بالراحة هناك، ما أدري أن كانت تلك رفاهية المهوسين، لكنني كنت أجد راحة بين الأموات أكثر مما بين الأحياء. كأن سوء مزاجي غنج مروع لرد فعل أنثوي وجبان تجاه الأموات، لماذا نخشاهم أن كانوا هم المخلوقات الوحيدة التي لن تسبب لنا أذى؟ أنهم يرقدون هنا بهدوء، يرقدون تحت ظلال الأشجار وهم بحالة محايدة من الحب والكراهية والجشع، أي الدوافع الثلاثة التي تولد فينا حيوية متوقدة، والأسباب الثلاثة التي تحرض الإنسان وتوعز إليه لأن يترك حالة السبات، كل شيء هنا ينطق بالسلام والصمت ترافقه موسيقى راقصة أيفاعها عميق يعزفها الحجارون حينما يقطعون حجارتهم. (تساءلت أن كان أنسان القرن العشرين على علاقة وثيقة بإنسان العصر الحجري الحديث) هنا الشعور بالفريدو يكتسب بريقًا أشد واقعية، فحقيقة وجوده تكتسب سمات أصيلة حينما تطل على الحفرة التي تضم رفاته، وذلك يولد عندي انطباعًا بأن الفريدو لم يبتعد كما ظننت، وأن فراقه كان مجرد فراق وقتي لديه نهاية وحدود وقيود كما أي وضع أنساني.أحس بقربه وبنبضه وحرارته، أصبح المدفن لي كعلاج عام لكل أنواع الأمراض، أنه مشفى عملاق يستريح به الناس من ذلك القلق الحاد الذي يولده الخوف من الموت في بعض الحالات. كنت أعاين من زياراتي له نمو شجرة الصنوبر التي تحرس جسده، لقد تدورت أغصانها كأنها أحشاء رجل خمسيني لتنحني وترعاه بالغريزة، في أيام الحر يتصبب جذعها عطرا من تصدعات قشرتها، كان عطرا فواحا، عبقه ساخن وثاقب، اعتدت أن أحتمي تحت أفياءها من أشعة شمس التي لا ترحم، كان ظلا خانقًا مضببًا لكنه

مناسب لتأمل البرد القاتل للمكان المسور. كنت أمكث هناك غير مبال وأترك الوقت ينزلق من فوقي فأشعر كل مرة بالفريدو وبروحه. ذات يوم دفعني حماس شاعري غير مألوف فرسمت على لحاء شجرة الصنوبر أسماءنا الفريدو- بيدرو واحدًا تحت الآخر، لما فرغت منه راودني شعور عن قناعة عميقة، شيء ممتع كمن يضع عنوانا تحت كتابة واسعة النطاق، لقد جسد ذلك النقش على لحاء شجرة الصنوبر صداقتنا كرمز واضح ومتميز، حيث شاركت الطبيعة- بقوتها وخصوبتها وثباتها - بخصوصية وجودنا، شعرت بقناعة ما قمت به ذلك المساء بعد أن فرغت من عملي، لذا كلما زرت الفريدو كان يسرني أن ألمس جذع شجرة الصنوبر الساخن، وكأنه نسخه أرتوي من الباطن ليذوب في بقايا ماضينا المتميز. ذات مساء صيفي غيرت مسار خطواتي وقصدت الراسترو من دون عمد، لم أذهب إلى هناك منذ نصف سنة، لقد هيجت الصرخات الرقيقة والحادة المنطلقة من خلف الأسوار عواطفي المترسبة بكل ألوانها، أحيانا أتذكر الفريدو وفاني حينما نطل على سهل آمبلس الخصب، وبشائر الصيف. الآن لما أقوم بهذه النزهة، تملأ رئتي نفحة نسيم جبلي بشكل تلقائي، فيجلب لي الهواء عبق الأشجار ونضارة الثلج، ويبعث فيّ راحة ويمدني بغذاء لا غنى عنه ليسند نبض قلبي، لكن كلما يراودني شبح الفريدو السقيم وهو مستلق على وسادته، ألقيت نظرت مشبوهة إلى سلسلة الجبال، فأوبخ نفسي لأنني لم أبذل جهدا حينما سرق الموت حياة عابرة، حياة بالكاد كادت تبتدأ.

ابتعدت ذلك المساء عن أماكننا المألوفة وأخرى لطالما لهونا بها أنا والفريدو معًا. هبطت نحو ضفة نهر آداخا وسمحت لرمال ضفافه المتسخة أن تداعب قدمي الحافيتين ثم خضت في النهر كما في تلك الأيام.

ولكي أكرر الأجواء القديمة، توجهت إلى المصنع لكي استرجع مجددًا عمل الطاحونه بحيويتها وهدوئها، كان كل شئ يسير على مايرام، لكن أشياء كثيرة في داخلي تخبرني أن العالم يتواصل، وكل شئ بالأرض لين العريكة إلا الوقت الذي يستحق كل شئ. عدت إلى البيت عن طريق الكارمن، ولما بلغت احتفالات المواشي، قفز لمخيلتي وجه لا برونا الرهيب، رأيتها تحرك شفتيها المتشنجتين تلقائيًا وتصرخ لتولج في روح كل مستمع طعنة باردة بأغانيها الحساسة، فتراءى لي الفريدو يرمي بقطعة نقدية إلى قبعة الرجل الضرير المتهرئة ليطلب أغنية الطفل المحبوس في الصندوق، كان بوسع الفريدو أن يروي نزوته من دون تبذير، ومن دون أن تتلاعب لابرونا بتطفل روحه المولعة بفكرة أن تستهل أغانيها بقصة الطفل المخطوف، كان الفريدو يصغي متشككًا للقصة الرهيبة تعلوه ابتسامة متكلفة خاصة بالناس الذين " على الجانب الآخر".

حين أعود إلى البيت أجد أن أحياء ذكريات أفضل الأيام لن تمنحني الراحة، كنت أفضل سلام شهر آب في المقبرة، ذلك السلام الذي لم يكدره سوى طرق الحجّارين المتواصل، في حين كانت الأشياء الأخرى تثير في نفسي صورة الفريدو نشطا وحيا ومتكاملًا، فالمدفن

يعينني على أحياء ذكرياتي، لكن صور ذكرياتي تلفها خلفية من معاناة مستنزفة ووجع وعودتي للحاضر الراهن لم يعد يثير شجني، فهو خاو بلا راحة، في يوم الأحد التالي أعود للمدفن فأنتشي فرحة لَما أرى أحاديث صديقي يحرسها جذع شجرة الصنوبر التي أصبحت أكثر تدورا وعطرا عن آخر مرة رأيتها.

الفصل السادس عشر

ما أن انصرمت شهور الذهول الأولى وعدم التوازن بدأت أدخل مرحلة باردة، الآن أخذت أرى أن الموت يلف العالم بخرابه، شعرت بضيق جسدي يغلف اضطراب روحي، جسدي يتكهرب أحيانا بلا سبب ظاهر وحينذاك أبحث عن الهواء النقي لأهدئ جسدي وروحي، أخجل الآن من أن أعترف أنني أستشعر بنهاية وشيكة لحياتي، لن أخجل حينذاك، ليس من المعقول أن يستمر جسدي بحماية روحي بلا تناسق بينهما مدة، مما لا شك فيه أنه يوجد في تصوري خطأ أساسي، لا يوجد تجانس بين العمودين الذين يسندان وجودي، لأن انفصال الواحد عن الآخر سيجعلني بحالة لا علاج لها، فكرت أنها لامبالاة إلهية، لخالق ليس لديه روح بهذه المواصفات مجهزة لي، لكنها اندمجت في جسدي من دون اعتبار للمقاصد العليا، ومن هنا ولد صراع أصم وغامض وغير محسوس، يجذبني ويحملني بمسارات غير مرغوب فيها، في حين أنا بكاملي أحضر هذا الصراع كمشاهد مريض سلبي.

مع ذلك كنت ألاحظ أنني لم أكن استثناءً، جميعنا ينطلق من أتزان أساسي يتزايد فيما بعد أو يضعف على مدى توالي فترات حياتنا وأن كل شيء يعتمد على صندوق موسيقي فوهته إلى الأعلى أو الأسفل، جميعنا يحمل حافزًا يحثنا من واقع مفهوم زائل، لكن هذا الحافز لا يملك الآن فعالية نسبية، لا يجذب الإنسان ولا يحمله كلعبة بلا أرادة، لا يصنعه ولا يسيطر عليه بل يمنحه أتجاها ما.

الإنسان بإرادته يستطيع في كل لحظة أن يتغلب على حتمية نسبية تنبثق من خصوصيته من طبيعة الأشياء ذاتها، لكنني أظن أن عبء بقية الناس مختلف عني، فالعالم مختلف بالنسبة لي، لا يفكر أو يشعر مثلي، حتى عند الناس الناضجة والمقتدرة ألاحظ دوما نقطة خلاف، لا اعلم أنا خارج حياة مزدوجة بسبب الموت، فالموت يمضي دوما، وذكرى الغائب تضعف كما تلك الألوان التي تهلك بلا تحول وتضاؤل تدريجي،

الموت لا يفترض للعالم شيئا جوهريًا، انه مجرد حادث بسيط. " الحياة تتواصل". إنها المعادلة التي تحت سيطرتها تنتظم السنوات والعقود والقرون، بالمقابل كنت أشعر كل مرة أنني مأخوذ أكثر بفراغ بلا مشاعر وبلا علاج بسبب اختفاء الفريدو. مضت الشهور والأعوام لكن قوة غيابه تواصل قهري، من حولي أرى إن مسيرة الحياة تسترجع طبيعتها وتتشابك بلطف طرقاتها العادية، بل حتى للآخرين مثلي الذين عرفوا الفريدو وأحبوه.
فالسيدة غرغوريا عادت بعد حدادها إلى صندوق الموسيقى وإلى سلسلة سمرها بعد العشاء، أما مارتينا بعد أن هبط تفاؤلها عادت لتزاول ما هي عليه قبل رحيل الفريدو، لاهية ومرحة وثرثارة، والسيد ليسمس نفسه، كان منتكسًا من الداخل ومهتزًا مدّة لكنه في النهاية تماسك وعاد إلى حياته الرتيبة الحزينة، لكن بطريقة خاصة حزينة عادية أيضا، أحيانا كنت أفكر أن السيد ليسمس يقوى على إخفاء مشاعره أفضل مني لأنني كنت صغيرًا، لكنني اقتنعت ن دون ماتيو لن يعاني كما أنا طالما أنه لم يكن صديقًا لمن رحل، وكذلك فاني واستفانيا لقدت ناسوه بسهولة، ولهذا فأن شخصياتهم كما يبدو اتخذت منحى آخر، نعم هكذا يواصل الجميع حياتهم، أما أنا فهي ما أشعر به، لكن للآخرين الذين نسوه الآن كالسيدة لينور وفاني والأسماك في الحوض الأخضر فالحياة بالنسبة لها تستمر بالوتيرة نفسها، فتبدو للبعض بطيئة وللآخرين سريعة، بالغة السرعة وغاضبة.
وجدت لاحقا سكينة نفسية في دراستي، كنت أحتفظ في أعماقي دوما بذكرى الفريدو، لكنني لاحظت بأن طيفه الأشقر أخذ يرحل، كل مرة يبتعد أكثر، بيد أنني لم انسه، بالرغْم أن ملامحه بدأت تتلاشى مع مرور الزمن.
درست خلال تلك السنوات بنهم، وكأن وجودي يتغذى فقط على موكب متواصل من حروف سود ومن جمل وكلمات. كنت أقرا وأكتب في كل الأوقات، بحماس لا يشبع للمعرفة والتعلم وسبر غور العالم المعقد والمتنوع والمتشتت، عام بعد عام بدأ جهدي وحياتي الجديدة تتسم

بشواخص فكرية، لتتحد وتتناغم في ذهني فروع المعرفة من دون أن تترابط وهكذا استمرت حتى نهاية الفصل.
لكن الحياة تستمر للجميع بالوتيرة نفسها، أحيانا رب حدث ما يمنحنا سببا أو دليلًا على انقضائها. ذات يوم تزوجت إحدى سيدات ريكاتيو فأومأت السيدة غرغوريا برأسها إلى السماء مولولة "لم كل المومسات لديهن حظ". وخلال عشرة شهور حملت سيدة ريكاتيو وانجبت أبنا، فأبدت استفانيا رأيا منصفًا، كان جميلًا كما نجوم السماء.
ذ ات يوم أصبحت الأسماك ميتة في الحوض الأخضر، وموتها كان بسبب إهمال مدبرة المنزل، فنافذة الغرفة ظلت مفتوحة طوال الليل في الصباح جعلت الدار تغلي، ذهبنا حيث صراخها فرأينا الأسماك الحمر كانت جزءًا متكاملًا مع كتلة ثلج مدورة الشكل، انهمرت الدموع، فبكت السيدة غرغوريا ومارتينا واستفانيا، أما دون ماتيو أكتفى بالنظر إلى راحة يده اليسرى السمراء، مبتسمًا بحزن، لكن بالرغم من ذلك تعشينا تلك الليلة سمكا مع بطاطا مقلية كطبق ثانوي.
في يوم آخر أيقظنا صراخ هستيري متتال ومثير للسيدة لينور، لقد سرقنها، لقد سلبوا منها كل مالها منتهزين فرصة صلاتها في كنسية سان بيدرو، لجأت السيدة لينور إلى الشرطة، بعد مرور سنتين لم يعد أحد يتذكر الحادث سوى ذكرى مشتتة لمجرد تبرير انعدام وجود التفاصيل الشخصية، لفت نظري أن ما سرق منها يتزايد ثمنه وقيمته وجماله كلما مرّ الوقت.
وفي يوم آخر أصيب الجد بالشلل، فانتقلت السيدة غريغوريا أسبوعًا كاملًا إلى بيته، كان الكهل يستلقي على الشراشف بنصف جسد حي في حين النصف الآخر كان ميتًا تمامًا، حتى لحيته من الجانب الأيمن فقدت بريقها الحي، كلما حاول أن يضحك تتحرك شعيرات الجانب الأيسر فقط مثل أعشاب ضارة جافة تهتز من جرّاءِ النسيم، مضى أسبوع من دون أن يبدو على الكهل إشارات الموت ولا الحياة، عدنا إلى دارنا وقد غشى قلوبنا ألم جديد بسبب وضع السيدة غرغوريا، مع ذلك فقد تكيفت مع الألم بالرغْم شخصيتها اللامبالية. فإيقاع الحياة يستمر بلا هوادة،

بطيئًا بالنسبة للآخرين، لكنه متساو موضوعي للبعض. كانت المدينة تطبع بصماتها اليومية من زاوية محددة، كنهر تناثرت بقايا مساره يسارا ويمينا بعد مروره فيتوسع، يولد البعض ويموت الآخرون ويهوي الآخر، ومنهم من ينهض وآخرون يثرون، ومنهم من يفقد صحته والبعض الآخر يشفى، أنها لعبة من التوازن المفروض المتناسق والثابت، فالحياة بمجمل مداخلها ومخارجها تحتوي على" لغز" هائل متناسق الألوان متناغم، فمن يعوزه شيء قد يفيض عند الآخر، والتوافق بين ما ينقص وما يفيض يولّد التوازن البشري، ولا شيء أكثر وأيضا لا شيء أقل، فحياة المدينة تنطوي أمامي وكأنها تهرول في طريق طويل لسيارة مكشوفة ثمة أشجار عالية تقطع المسار المنتظم للطريق بشكل دوري وتصلح علامات دالة، ومعالم للتميز.

هكذا انقضت المرحلة الأولى من حياتي، تمتد بطيئة صامتة كما يفنى ويتلاشى اللهب بعد أن يمر بمراحل من التوهج والتألق ثم يبهت وأخيرًا يمسي أزرق اللون، فأذبل ما بين أيقاع مارتينا الروتيني وهي تعزف البيانو، مارتينا التي بدأت تكبر لتصبح أمرأة رويدا رويدا....

وخلال مدّة دراستي الطويلة كان صوتها فقط يعكر الصمت الذي يلفني. ترن أنغام البيانو في الصالة ثم يتناهى صوتها، صوتها المشوه غير الناضج لطفلة ما زالت تعيش طفولة مهذارة مختزلة. ولما مضت السنوات، أمسى صوتها رائعًا وبارعًا ومرنًا:

فرو، فرو، فرو...

بحبك مجنون ...

الفصل السابع عشر

هكذا مضت الأيام الأخيرة من السنة الدراسية، من دون أدراك مني ولا قصد بلغت هدفي في المرحلة الأولى من حياتي، تأملت بلوغي بلا أوهام ولا قلق بل ببساطة كأي عمل طبيعي لم يولّد في داخلي لا برودة ولا حرارة.
كتب لي عمي بإصرار من برشلونة ليشجعني أن أتخذ قرارًا بشأن مستقبلي، أن كنت أميل صوب جهة من دون الأخرى وبمطلق حريتي، لكن من دون أن أتأخر باتخاذ القرار حتى آخر لحظة، لكيلا نختار طريقنا وفق عواطفنا بل وفق مسيرة نلتزم بها. أجبته بثبات أن يتحلى بالصبر لأن الأمر يتطلب وقتا وفي اللحظة التي سأتخذ بها القرار سأبلغه على عجل. من جهة أخرى كان السيد ليسمس يحثني بالاتجاه نفسه، كان يجدني بارعًا في الأرقام فأنصبت كل جهوده لأن يجعلني أستاذ رياضيات كبير، ويدفعني إلى الهندسة المعمارية أو الهندسة عامة، فلا أجيبه بنعم أو ما كنت أصغي إليه ببساطة من دون حافز لأن أجادله أو أن أرسم وجهة معينة، كنت أصغي اليه بلا مبالاة، مقتنعًا بداخلي بأن كلماته لن تغير رؤيتي أو آخذها على محمل الجد، ويبدو أنني لم آخذها بعد، لما يتعب دون ماتيو من إسداء النصائح لي يمضي بعدها ليتركني وحيدا.
على إثر هذه الزيارات أخذت أطرق مفكرًا والكتاب مفتوحًا أمام ناظري حول مصير مستقبلي، أعترف بأن الطموح لم يكن يضايقني بأغرائه الملح، أعتدت أن أجعل من تكويني النفسي المشتت كنقطة انطلاق، منتبهًا إلى أن تناقضات شخصيتي واهتمامي المباشر يحثني لأن أجد مهنة ما لا تتناقض مع خصوصية شخصي، بل تتبناها بطريقة منتظمة ومرنة، انتبهت إلى هاجس ديني يتملكني في تلك الأيام، لاحظت أن في السنوات الأخيرة تصاعدت لدي حياة التقوى لأنها بلا تردد تقربني من الفريدو وتسمح لي أن أعمل شيئا يمنحه الراحة في

الحياة الأخرى، لكن بعد ارتياب كثير وأفراط في التفكير قررت أن أتجاهل هذه الفكرة، لقد أغواني العالم، فإقامة حواجز بين وجودي والزمن الذي أحيا به، أو أن امحي جذوري الأرضية الجديدة إلى الأبد قد تولد أفزازات تسبب لي ألما جديدًا، لكنني شعرت بالجبن –جبنت إزاء احتمال عيش حياة تأملية بأفراط، أو أن تقع على عاتقي مسؤولية التعليم أو ربما أنجز عملًا تبشيريًا لأجلب للخالق أرواحا أخرى لم أكن مندفعًا نحوها.

لطالما استحضرت فكرة دون ماتيو عن الحياة بالرغم من أنه في المدّة الأخيرة كان قد نساها، مما لا ريب فيه" أن لم تكن فتمتع بما فيه الكفاية بالسعادة الأرضية".

كان أملي، بالرغْم انه متقيد بقول بائس، يشكل بشكل موجز وعيا واضحًا لما قد تكون عليه الحياة

كنت أشتاق لهدوء روحي، حالة محايدة تجاه الناس والأشياء، ونية غير مبالية تجاه العودة إلى نفسي في مدة نوعا ما طويلة، كنت أعلم أن " السكينة العليا يمكن تحقيقها بالقليل وبمجرد اقتناء الأساسيات".

من هنا اتخذت تأملاتي هيئة أولية وأخذت اسعى لمستقبل كحالة من الاستقرار الداخلي بالرغْم أن المظهر الخارجي لم يكن فرحا أو أن أترك شيئا ليس لدي رغبة به، أن سر هذا الاستقرار يكمن في " أن تقبل بالقليل"، قال دون ماتيو ذلك أيضا "لما يرافقنا الخوف من فقدانه فهو يولد القلق نفسه وكأننا لا نمتلك شيئا"، ثم أردف السيد ليسمس" ينبغي أن نلاحظ غزواتنا الأرضية كما نراقب أنفسنا".

كان أستاذي على حق في كل النقاط التي طرحها خلال إقامتي معه، فدروسه المستمرة لم تكن مرتبطة بنهاية الفريدو، أمر أظهر لي الفرق بين "الخسارة" و" عدم البلوغ"، والفرق العميق ما بين "عدم الارتباط" و " أللارتباط".

ما أن ركزت على مستقبلي انطلاقًا من هذه الزاوية-كان وضعي النفسي هو ما يهمني-كانت النتائج تحسم بالنتيجة ذاتها، في الأقل متجانسة.

كانت مقدرتي على الانعتاق قاسية وبلا تحفظ، وأن لم أبذل جهدا لأمنح مناقشة الحياة أدنى مرونة كفرد عادي. أتكلم عن تماسكي وعن أبداء رأي مسبق حول أفعالي قبل أن أطبقها وأراقبها ليلا ونهارًا لأتجنب سلسلة عواطف قد تكلفني عبئا.

هذا النمط من التفكير وآخر مشابه شغل مساحة كبيرة من ساعاتي في الشهور الأخيرة من إقامتي في دار دون ماتيو، منغلقًا على نفسي بين جدران غرفتي الأربعة، كان ذهني يعمل بهدوء وبرود من دون اندفاع، بعد قليل الفت مارتينا معزوفة موسيقية عن سهادي، لكن صوتها الدافئ والشفاف لم يعكر تفكيري مطلقًا، بالمقابل أظن أن موسيقاها وأغانيها تنشط قدراتي الذهنية حتى أنها تجعلني أرى حلولًا دقيقة وحاسمة،

فرو، فرو، فرو،

أغنية جميلة

أنا فرو، فرو....

شعرت منذ أعوام بتغير داخلي للتيارات التي تنشط نفسي، لم أعد طفلا وتحولت إلى رجل، ولكي أبلغ هذا العمر شديد الْخَطَر أي البلوغ، حيث رياح الأهواء تتقاطع في صدورنا لتضع حاجزًا متماسكًا تقريبًا برغم كل الاعتبارات الروحية الأخرى. أدركت أنه مع انصرام الزمن يأخذ الجسد بالتغير ويتطلب تكاملا فيزيائيًا، تكاملا أبعد من التكامل القلبي النظيف، بلا قيود حيث يتم اكتشاف الرغبة الجنسية وفي النهاية سر لما خلقنا إليه. هذه النقطة يتركز حولها الآن كل قلقي، قررت أن "لا أتناول ولا" أمسك " بأي شيء قد يؤثر على أحاسيسي، وألا أحب أو أنحب، ولن أترك نفسي لأن تسحبها غريزتي بقوة، فهمت أن الحل الوقتي يكمن في حب خالص بلا خداع، وفي تبادل الطاقة والمخاوف، لكن العقبة تكمن في الحل الوقتي نفسه، وفي محدودية العلاقات الإنسانية، في نهاية المطاف كل شيء يموت وينهار وينتهي بأن يفككه الزمن، ثم" أحدهم يدفن الآخر".

لقد أعانتني تجربة الفريدو أن أتخذ عبرة من هذه اللحظات المهمة، لم تكفني خمسة أعوام لكي تتلاشى ذكراه، ليس ذكراه الفيزيائية بل تأثيرها علي وعلى روحي، انه حب كبير واهتمام متكامل
يختلج في داخلي فيتلاشى ارتيابي الكبير الذي قد يفضي بي إلى الخيانة العظمى لله: الانتحار

فرو، فرو، فرو
أغنية جميلة
أنا فرو، فرو....
بحبك مجنون.

كانت مارتينا تقرأ أعماق نفسي بمهارة لتنشدها كأغنية ثم تحطمها، ثم تغض نظرها عن أهميتها الواضحة، تجعلني أحملها مكتئبًا للحظات وبعدها أستسلم لأحضان أغنيتها، وبصورة غير مباشرة يسترجع ذهني نشاطه وكأنني استبدلته بذهن جديد آخر، طري ومقتدر لم يدشن بعد.
عند حلول المساء قبل أن أنهي امتحاناتي بثلاثة أماس توصلت إلى حل نهائي، بعد أن اقتنعت بانه لا يمكن أن أختار اتجاهًا لمستقبلي بتقييم مهاراتي فقط، فقررت أن أختار اختصاصًا يُبقي تواصلي مع العالم، ويسمح لي في الوقت نفسه أن أغادره. قررت أن أعمل بحارًا تجاريا، إنها مهنة تضم كل طموحاتي، صفاتها متغيرة، التنقل المستمر للأشخاص وتغير الآفاق يتوافق مع تكامل رغبتي في تجنب تعاملات وعلاقات متكررة ومستمرة، لما اتخذت قراري بدا لي أنه القرار الذي طمحت إليه طوال حياتي تلقائيًا، تذكرت السيد فيليب وقصصه الرائعة عن حياة البحر، وتذكرت بأن فكرة البحر هي التي دفعت بالفريدو ليعاود زيارة الساحل، ولدّت عندي أحساسا هو الذي رسم شخصيتي الحالية، كان أحياء للأحاسيس التي تملكتني سابقا. أغلقت الكتاب لأنه الوسيلة الوحيدة التي تمنح قراري الجدية المفروضة، كمن يمارس طقسًا فرديا لكي أزين قراري الصامت والبارد.

كانت مارتينا تغني في الصالة كما في كل الأماسي نهضت من مقعدي بهدوء من توقف عن عمل طارئ مجهد، كنت بحاجة للراحة، لأن استنشق حياة جديدة وأترك التفكير بحوادث لا تعنيني، بالرغم انها بسيطة كرؤية مارتينا منهمكة في عزف البيانو، دخلت بصمت إلى الصالة ولاحظت ظهر الطفلة المستقيم، اقتربت منها من دون أن تنتبه، وأخذت تغني فجأة

خلف زجاج تلك الشرفة

هنالك عيون أعبدها

روحي متعلقة بها

أن كنت لا تحبيني

سأموت كبدا

كانت أصابعها الصغيرة المرنة تعزف بمرونة كأنها سلسلة من سيقان أنثوية ترقص بمهارة فوق سطح من المرمر، تساءلت كيف سمحت السيدة غرغوريا لأبنتها الصغيرة حينذاك أن تنشد هذه الأغاني الغرامية بدارها، وكأنها كتبت عن عمد تملق لغنج لسيدات ريكاديو الرقيقات، استمرت مارتينا تعزف البيانو بتناسق ملحوظ. كانت تحني أطراف أصابعها الرقيقة والسريعة والوردية نحو الأعلى لما تضغط على المفتاح، نبهتني مارتينا لوحدها لشيء يذوي تنطوي عليه نفسي لكن بلا علاج، تنبهت إلى تسرب الزمن الجميل الذي يهرب ويفر من دون أن يلتفت ألينا بناظريه، تيقنت أن الأشياء تعجبنا حينما نحمل على مغادرتها. حملقت في ورق الجدران كأنه شيء يخصني، وكأن دواخلي غلفت به.... في تلك الغرفة نفسها أستقبلني السيد ليسمس قبل أعوام، كنت حينها مجرد صبي مفعم بالنشاط لكن حيويته مقترضه بلا خصوصية ولا قدرة على تعقل الأمور، بيد أن الأشياء تغيرت الآن في الأقل بت أعلم أن المجتمع منقسم إلى نصفين، وأحد يدفن الآخر حتى يهلكه. لم أكن أعرف أن المادة تتفكك وتتلاشى وتنتهي نهائيًا بلا حدود، كنت أعرف أن ظلال السرو وارفة وتقطع كما السكين، كنت أعرف.....

خلف زجاج تلك! الشرفة
عيون أعبدها.....
كنت أعرف أن الإنسان فيزيائيًا كما النبات ينبت في التراب وينتهي إليه.... أنه لأمر مريع أيضا...
كتبت إلى عمي في برشلونة في اليوم التالي لأعلمه عن قراري العفوي، بعد أيام تلقيت ردا يخالفني بشكل غير معقول، قال لي من بين ما ذكره، أنني لا أقدر ما قام هو به، وأنني أقع تحت وطأة خيال طفولي لا يتمتع بجدية رجل بلغ السادسة عشرة عاما لأن حياة البحار بالإضافة إلى أنها قاسية لن تساعدني لأستثمر كل مواهبي الفكرية التي أثبتتها درجاتي في شهادة البكالوريوس وتقارير دون ماتيو المفصلة والمطولة: تأمل بهدوء تلك الخطوة الخاطئة لأنها ستجعلك كمن يقبع في ركن ما من الحياة، أو يفقد إيقاعها وتوازنها ثم يقع في .... لا تقل لي أين يمكن أن تسقط إن كان السقوط سيكون قاتلا بسبب الحاجة أو لا. عدت لأكتب له إصراري على الطريق نفسه الذي رسمته، مؤكدًا له أنه لو لوى ذراعي سأكون مستاء منه كما استيائي صوبه لمنعي دخول المدرسة البحرية. أجابني " ليكن ما أنا أرغب به"، رافقه ضغط السيد ليسمس الذي أقترن برأي عمي لأكف النظر عن هدفي. لكن التلاعب والمراسلات "الخفية" تراجعت إزاء اصراري وعزيمتي وإرادتي للمضي قدما في بناء مستقبلي بما يتفق ومبادئي التي يوعز بها ذهني بشكل مباشر. لذلك ما كنت قد قررته في خطتي السابقة أنهت كل الصعاب.
خصصت الأيام المقبلة لأتخلص من تلك المحنة لكن بكرامة، أول رد فعلي هو أن أذهب إلى المقبرة لأودع الفريدو، كانت شجرة الصنوبر مفترشة أكثر من قبل والجرس لا يكف عن الغناء. وأسماؤنا التي نقشت على لحائها نمت بنمو الشجرة، قلت وداعا لمانوليتو كارثيا (أسم العائلة) الذي كان ضحية لمرض الديزنتري وشعرت بالشفقة نحوه مرة أخرى، ظلال شجرة السرو وارفة بأوراقها الإبرية وقد شطرت إلى نصفين. تبادر إلى ذهني أن الأشياء الطويلة والحادة أكثر حزنا من المدورة، كان الفريدو على حق لاختياره مكانا يستريح به تحت ظلال شجرة

الصنوبر، أدركت أنها أحيانا تبدو إبرا وأخرى تبدو كما الكشتبان، وفي فترات تبدو كالقواطع وأخرى تبدو مضيافة خيل لي أن ظلها صمم ليحمي الناس في الحياة كما في الممات. أدركت أن الظل الذي يقتحم قلبي كان ظلا وارفًا رقيقًا مثل شجرة السرو، مماثلة لشاهد قبر مانوليتو كارثيا المنقسم إلى جزأين....

غادرت أبيلا في اليوم التالي، لما خرجت من البيت أحمل حقائبي إلى المحطة، اجتزت الساحة لأودع تماثيل الكوة كانت جامدة كما دوما وغير مبالية بمرور الناس والأشياء." فالحجارة تدوم في حين الجسد ليس كذلك "هذا ما خطر على بالي ثم ودعتهم بإيماءة من يدي، فجيلنا يعبرها من دون أن تتحرك، أيقنت حينها أن وداعي لها ينطوي على وداع مؤلم للمدينة بأسرها.

رافقتني السيدة غريغوريا واستفانيا ومارتينا والسيد ليسمس وفاني صامتين، كأن الناس ترمقنا بفضول متعاطفة معنا وتخمن أنهم يودعونني، فاحت المحطة برائحة الفحم بعد أن تحملت سنوات مرور القطارات فوقها، لاحظت عقدة سميكة نهايتها تسبب لي وجعا في منتصف رقبتي، أدركت أنها تنمو ويكبر نتوءها الجارح كلما نظرت إلى من يرافقني، خفضت بصري وتجولت على أطراف أصابعي لأحصي البلاط محاولًا أن أعدها كما في يوم أحصيت النمش في وجه الفريدو. دوت صفارة القطار فشعرت بساعد السيدة غريغوريا يخنقني وهي تحتضن عنقي، كانت زوايا خدها ندية "أحترس يا ولدي وأكتب لنا"، (لا أعرف ما أقول إن كانت تلك الكلمات دخلت من الخارج أو غادرتني من الداخل، كانت خافتة وضبابية جدا....) بعدها طوقتني يدي استفانيا، استفانيا التي أعجز عن وصفها و التي لا تحب نوم القيلولة.... نمت العقدة في حنجرتي ثم نمت... أقصد أنني أصبحت كما شقوق لحاء الشجر، كأسمائنا المحفورة على لحاء شجرة الصنوبر... قفزت مارتينا متعلقة بعنقي وقبلتني وهي تبكي، لو أنني تأخرت سنتين لامتنعت مارتينا عن عمل ذلك... لاحظت من بين ساقيها دخان القطار، في حين قفزت فاني أكثر من مرة صوبي، ضمني أليه من دون ماتيو، مرة

أخرى دوت صفارة القطار، فوجدت نفسي مرة أخرى أتسلق النافذة لأطل بوجهي من بين وجوه عديدة مجهولة وأقول وداعا بإيماءة من يدي، وانهمرت الدموع ثم الدموع ثم الدموع... أصرت حنجرتي على خنقي ولم تسمح لي بالتنفس، اهتزت أرض العربة ثم تحركنا، شعرت بوداع ودي لأنني تركت مجموعة من الناس وأنا ما زلت على قيد الحياة. هيئ لي أن الظل الذي يحمي قلب دون ماتيو كان مدورًا ووارفًا كما شجرة السرو وكذلك ظل السيدة غريغوريا... وظلي... تمنيت ذلك لمارتينا، مارتينا الصغيرة، كانت ظلا كاملًا ومدورًا....
كان مسير العجلة فوق سكة الحديد المتقطعة يلبي رغبتي، هنالك بعيدًا لمحت منديلًا أبيض يلوح كان شديد البياض كأنه نتف من الثلج ما زالت عالقة عند أعلى قمم الجبال....

الجزء الثاني

الفصل الأول

ليس من المستحسن أن يبقى الإنسان وحيدا
سفر التكوين

انصرمت السنوات في مسكني الجديد وتطورت رؤيتي عن العالم الخارجي، تعرفت على البحر والحياة العامة والأجواء الخاصة، كل هذا أنثال فوق كتفي من دون أن أغير قراري العنيد بمغادرة أبيلا. خلال دراستي في المدرسة البحرية في برشلونة حيث أقمت في دار عمي، الذي أنتعش كثيرًا اقتصاديًا ويعيش ببحبوحة بلغت حدا من الترف، عكس ما تخيلت أنا ببلادة، لكنه أيضا يعمل كأجير من طلوع الشمس حتى غروبها، لم يكن يجاملني، رحب بي على مضض ليس أكثر، أدركت أن الزمن قد مضى وأنا الآن في عمر السادسة عشرة ففطنت إلى السلوك الأخلاقي للناس الذين يحيطون بي، لربما في بعض المناسبات يحاول أن يبدي مودة ومحبة بفكرة مغلوطة أنني لم أفتقد الحنان الذي افتقدته في حياتي، لما يقابلني يحضنني ليؤكد لي أنه تغير كثيرًا في الأعوام الأخيرة الذي تركني فيها، بعدها حاول أن يثنيني عن عزمي بدخول المدرسة البحرية لكنني مكثت مصرا على ما أنا عليه، وبعد أسبوعين من تحليل موقفي العنيد بلا تراجع، قرر ألّا يمنحني الحرية الكاملة باختيار مستقبل حياتي كما أشاء. لما وصلت حديثًا من ابيلا أتذكر أن برشلونة أحدثت لي انطباعًا حادا، كأنني قفزت من هدوء دير زاهد إلى ورشة عمل عملاقة بحيويتها ونشاطها، هنا الناس يتحركون كما الخلية، كل واحد منهم تثقله همومه، لكن من دون

أن يملك في كل زاوية نصبا تذكاريًا قديمًا باهتا ليذكرنا دوما بأن الجيل الحالي يدعس بقدمه ثلاث طبقات تاريخية، في برشلونة أجتاز التاريخ كل شيء ولم يترك شيئا كما في ابيلا مخلفات وبقايا قديمة، فكرت لو أن السيد ليسمس مكث هنا سيبقى ضائعًا وحيدا، لربما لو أن دون ماتيو ولد في برشلونة، لأصبح اليوم خبيرًا بالقماش ولأسرته حمى التجارة لكنها لم تحدث وهجًا داخليًا سيتأجج من دون استثماره.
لقد فتنتي آفاق المدينة كما تكوينها، لكنني افتقدت نزهاتي في أجواء ابيلا، أذ لم يكن يستغرق لف المدينة كُلَّهَا سوى بضع دقائق، هنا يجب علي أن أتجول بشوارع عديدة لكي أعود إلى الدار متعبًا أما في أبيلا ذلك لا يحدث ولو قمت بخمس دورات حول أسوارها، درست كثيرًا في تلك الأعوام، بالكاد كنت أختلط مع رفاقي بالصف، هم يعيشون حياة مريحة وسهلة، بمظاهرها أكثر من بواطنها، مواقفهم لطالما أربكتني، لم أكن أفهمهم ولا هم كذلك.
كنا نعيش في محيطين منفصلين، لكننا كنا قريبين من بعضنا حتى إن في كل لحظة يمكن أن يحدث صدام بيننا، ذات يوم جاء أحدهم فجأة، أعتاد رفاقي أن يقضوا أيام السبت يخططون ليلهوا معًا ويتباهوا ويتفاخروا بقية أيام الأسبوع. ذا صباح من يوم الإثنين تعمد زعيم المجموعة أن يعاملني بوقاحة مسيئًا إلي:
-كم مر من الوقت ولم تذهب لفسحة؟
-ثمانية عشر عاما.
لم يقتنع في بادئ الأمر بل على النقيض أطلق مباشرة ضحكة صاخبة وضربني بخشونة على ظهري براحة يده.
-أنك عبقري-ثم أضاف-لماذا لم تصبح راهبًا؟
-أفضل ذلك.
-هل يريد أن تخبرني أنك محافظ "بحق" في هذه الحياة؟
كان يحيط بي خمسة أو ستة من الفتيان من دون سبب، أحدهم بدا أكثر غباء وضعفا من البقية، كلماته مضحكة وكأن كل كلمة تنم عن طرفة.
-في الأقل لما أبلغ عامي الثمانين، وفيما بعد سأفكر بالموضوع.

عاد ليطلق ضحكة مدوية دون أن يلتفت ألي، وكرر أقرانه ضحكاتهم.
-لا ترغمني لأن أفكر أنك ...
مرت لحظة فقدت بها وعي، فاستجمعت قبضتي اليمنى ولكمته على خده، فأرتد إلى الوراء مذهولًا ولم يصدق أن أحدا ما تجرأ عليه، في حين توقع رفاقه وقوع شجار فأوسعوا المكان متراجعين، أظن كانوا جميعهم في أعماقهم يتمنون غلبتي، أما بقية الفتيان فقد انتابهم شعور مهوس في تحطيم صورة ذلك الصنم، كانت تتملكهم رغبة غامضة في تهشيمه (في هذا النوع من الصداقة يوجد بناء هرمي، يعتليه واحد ليصبح فوق الجميع، وثمة أمنية خفية وسرية أن تأتي الساعة لأن يهوى ساقطا، وينهار، من شخص ليس ذي أهمية أو بارز من المجموعة، أنها المتعة المريضة نفسها التي تدفع بالناس للتصفيق حين يسقط الديكتاتور الذين هم مكنوه ذات يوم من قوته.)
وقد أستجمع قبضتيه، حاول أن يكون هادئًا وباردًا وأنه هو قائدًا، لكن تكشيرته الحاقدة التي تطل من بين شفتيه كالأرنب كانت تفضحه، أدركت توتره صوبي، كان يمارس هيمنته وسيطرته وبأنه هو الفائز بسبب علاقاته القذرة وتجاربه النسائية، أنا لم أبد أي رد فعل، حافظت على هدوئي كطالب متأهب لما هو قادم، وسكينتي برفقة أصدقائي، حاول أن يضربني بكلتا قبضتيه لكن حماسه جعله يسدد لكمتين في الهواء، تراجع إلى الوراء مجددًا تحسبا لرد فعلي، أنا مكثت منتظرا، لما تقاربنا مرة أخرى شعرت بلكمة على حنجرتي وبألم حاد في مفاصل قبضة يدي اليسرى لقد ضربته على فمه بقوة وهو أخذ يبصق دما، أحدهم أراد أن يفصل بيننا، لكن الفتوة أمره أن يبتعد معنف إياه، تناهى صوت من ورائي:" أتركهما"، بدت على خصمي ابتسامة تهكم، في حين طفحت شفتيه ببصاق من دم كان يتحرك من دون أن يسقط تمامًا، بغتة جاء الفتوة صوبي وأخذ يخبطني عشوائيا بلا انتظام أو هدف أو يسدد لكماته بشكل صحيح، بل مجرد ضربات تتوالى بلا توجيه، وهل عشرة كشتبانات هي أكثر فعالية من سطل لنغرق فيه قطة. تماسكت قدر مستطاعي وتحملت انهيال اللكمات بصبر، فظن أصدقائي بلا شك أن

الأمر قد حسم، لابد أنهم فكروا أن ردي يجب أن يكون فورًا، لكنهم اندهشوا لما قفزت بغتة إلى الوراء وأصبحت بعيدًا عن لكماته فتبددت في الهواء آخر أربع لكمات-اثنتان لكل قبضة يد-في الهواء، انتهزت ارتباكه لأسدد له ضربتين خاطفتين قويتين وحاسمتين، أهتز الفتى كالثمل لكنه عاد ليقترب غير آبه بضرباتي، عدت لأسدد له براحة يدي لكمة على معدته ولما هوى ارتمى بجذعه فوقي، فصوبت نحو ذقنه لكمة أخرى رائعة فظننت أنها الأخيرة.
لكنه أستجمع قوته فتعجبت من قدرته على المقاومة، أستدار لمواجهتي وليكشف لي مستسلمًا عن اللون الأبيض المشرق لوجهه، فضربته على أنفه بقوة ثلاث مرات فأستسلم لضرباتي بلا مقاومة مترنحًا....
توسعت حلقة الرفاق الملتفين حولنا، وكادت تتقطع أنفاس المتفرجين مأخوذين بلهاثنا كمنفاخ قديم، كان "القائد" ينزف بشدة ولم أعرف أي جزء من وجهه أمسى مجروحًا، فجأة شعرت بالسأم وشعرت بالحاجة لأن نسوي الأمر، وشعرت بالخوف لعل أساتذتنا يندهشون لهذه الواقعة وقد يتطور الشجار، بعد أن حققت ما أصبو أليه، أنهيت الهجوم بقوة، تحت وطأة ألم ضرباتي الخفيفة أنحنى الفتى فانتهزت أنا نقطة الضعف لذلك التردد فبسطت يدي لألكمه بقوة على ذقنه المستسلمة، تنازل الفتوة على الفور، في حين رأسه أنحنى إلى الوراء ثم سقط مترهلًا مهزومًا وواهنًا كدمية من قماش. من المؤكد أن الأشياء القديمة أخذت حيزا من هذا الشجار لتغيير ألوان سترته، لقد سقط الطاغية وأنسحق، لم يعد يستدعي الأمر أن ينكمشوا إزاء تبجحه، ولم يعد يغتر بمباهاته السخيفة من هذيانه لمغامراته النسائية، لقد تحرر الجميع من كل هذا، وبخاصة رفاقه المتزلفون العبثيون.
لقد ساعدني هذا الحدث ساعدني لأن اثبت أن الشباب في المرحلة الثانية من الحياة، يستسلم لثقافة تكاد تكون وثنية إزاء قوة اللكمات، بعد ذلك رحب رفاقي بي وحظيت باحترامهم وإعجابهم لشخصي، أظن أن فوزي من دون قصد مني قد أخذ صدى بعد أن تراجع الفتيان، لكنني لم أشأ أن أستغل نصري حتى تلك النقطة، يكفيني أنني أمنت هدوئي والحياة

المتحدة والمنعزلة التي أحب أن أعيشها. أظن أن هذا الشجار أزال أغصانا جافة من طريق حياتي، وسيمكنني في المستقبل من المضي في طريقي برأس مرفوع من دون خوف أن يسألني أحد إلى أين أذهب، ومن دون أن يحثني أي دافع لأن أمضي هكذا، لا أحد فعليا يتدخل في حياتي الشخصية، قد يثير سلوكي استغراب البعض وإعجاب الآخرين، لكن لم ينتقدني أحد فيما بعد أو يكرهني على شيء اخترته بعناية فيما يخص أفكاري وأفعالي.

وهكذا بعنادي وبهدوئي، أتممت دراستي في المدرسة البحرية في برشلونة، لأتهيأ لمرحلة زمنية جديدة. لما انهيت دراستي التحقت بمركب نقل خضروات لأكمل المدّة التدريبية البالغة أربعمائة يوم، أسم السفينة سان فولخنثيو وتحمل ما يقارب ثلاثة آلاف طن، كانت سفينة نشطة، نادرًا ما كانت تقف بالميناء من دون تحميل، فتفرغ حمولتها ثم تُحمل مرة أخرى، لذلك كنا نبحر دائمًا لنتجول شمال إسبانيا وغرب فرنسا والمنطقة الجنوبية من بريطانيا.

تعلمت أن أرى اليابسة والبحر، وأن أبحر وأجول العالم، بدأت أقتنع أن التنقل في الأرض يولد تحولات لا تحدث حين عبور البحر وأن خوف سكان الأرض من البحر يعود قبل كل شيء إلى ظاهرة الوسوسة التي تدعمها بفكرة الهوس بضخامة العمق والطول والعرض. لكنني رويدا رويدا تغيرت لأصبح رجل البحر واليابسة التي تصيبني بالدوار أكثر من الماء، وأشعر بالدوخة من الناس بسبب مشكلاتهم البائسة المحتشدة وهذيانهم المتدفق وطموحهم وكراهيتهم، وتبصرهم الفائض لحيوية فائضة لا تقيدها حدود. لقد وجدت أن البحار تجلب السلام للروح، سلام مسكن طفيف، يتحلى به فقط من ليس لروحه موانع ولا حدود في فضاء الزمن.

كانت علاقتي الأولى في تلك الأيام مع الآفاق الواسعة والسطوح السلسة بلا حدود، فظننت أن مخاطر التهديد ستتلاشى بسهولة فتجعلني أتأرجح فتمنعني من انحراف محتمل نحو طريق قاحل مترد، اعتقدت ببراءة أن مرضي بلا جراثيم يمكن أن يُعالج باستلهام سلام الطبيعة

والاسترخاء متأملًا، فأبني جدارا ما بين السماء المديدة والبحر المنبسط فأمتلئ بامتداده وسعته وانتظامه.
كنا نطوف الساحل أحيانا وبعد ذلك نجد السماء تلتئم مع البحر في نقطة محددة لتساعده في مهمته الشاقة، كنت أحب جدا لما يبحر مركب سان فلوخنثيو ليطوف الساحل، حينذاك تجعل اليابسة للبحر تأثيرًا كشيء جميل جدا نتخيله فقط كقاع لزخرفة مصطنعة، فالأشياء والناس تفقد ملامحها الحميمية وتقدم لنا تناسقا من ألوان حية متعددة مبهرجة، كان كل شيء موجزا ويمضي تلقائيًا. يتميز بقوة الخيال فيبدو جميلًا، يواصل المركب سيره متعرجًا يلج المواني أو الفنارات ليرسم خريطة في هذا الخط الغامض الذي طالما أثار دهشتني حيث يمتزج الجانب الأصفر أو الأحمر أو الأخضر للسواحل باللون الأزرق الغامق للبحار.و يرسم شريط من الألوان السمر الحدود ما بين المياه واليابسة، وعلى مبعدة يبرعم اللون الأخضر بدرجات غير متساوية أو متماثلة، في خضم هذا الاضطراب من الفوضى والانتظام في الوقت نفسه فالخالق وحده قادر على أن يبدع عملا كهذا، في مناسبات أخرى، عندما نجتاز الساحل الشمالي لإسبانيا، أمضي ساعات منهمكًا في تأمل ساكن، فتلك الأشياء تكتسب قيمة جمالية تبعث على التفاؤل، فاللون الأزرق و الأخضر يجتمعان في شريط داكن منقسم ليرمز إلى الكرة الأرضية بأسرها بألوانها المتناغمة، فلا لون يخالف الآخر لأن التناسق ينبثق من طاقات حيوية تزين ساحل اليابسة تلقائيًا، فتمتد غابات متراصة وكثيفة وواسعة لتنحدر إلى الأسفل ثم تتوقف على مبعدة خطوتين من البحر، غابات أشجار الكستناء واليوكالبتوس والصنوبر....
غابات وغابات تفترش سفوح رياض خضراء فتغزل نسيجًا من ألوان قوس قزح شفاف، من دون أن تتنافر ألوانها وبريقها بل تتجرد بطيئًا لتبلغ لونها الخاص، فتنصهر مع بعضها، لتمتزج مع الضياء الذي كاد يحتضر لتتنازل من أجل شكل خاص ومادة مميزة.
المشهد يفرز نسمات منعشة من الكلوروفيل الأخضر، أنه سلام أخضر، متكامل متألق، يطل أحيانا بيت أبيض اللون وسط روض تحيط به أبقار

حلوبة بيضاء وسوداء اللون، أو قطيع من أفراس عارية هامدة.... فيتناهى إلينا وقع صهيلها من دون أن تعدو هائمة، ومن على مبعدة تجلجل أصوات أجراس الأبقار الصاخبة وصفارة الراعي لبهيمة ضالة. انعطفنا بعدها حول خليج أخر فأكتسب الأفق بغتة لونا معتما كبرية بكر، حواف ساحله متكسرة كأسنان تهددنا، في حين تطل قمم الجبال الصخرية على البحر كمسخ من أعال شاهقة، تتكسر الأمواج صاخبة على حافات المياه وقد تطفو على السطح، فيكتسب أصوات النوارس نبرة خاصة ليتغير لونها على الجرف، وفوق أنقاض القمم تحوم الغربان تنعق بخشونة، حينما نرى النوارس تتوجه منحدرة فوق المركب كأنها تبغي جناية شيء جميل، أما الغربان على العكس لم تفتر عزيمتنا، كنا نشعر صوب البحر بخوف فطري، يسكن بين التقاء اليابسة والبحر، هم يولون ظهورهم لهذا، لا يتوقعون شيئا منه، سوى أن يلقوا عليه نظرة من الأعلى لتأمله وليس أكثر من ذلك.

تركنا خلفنا الجزء الأسفل من المركب غارقا في الماء وكان شكله يثير الإعجاب ويتموج بحدة، رافقتنا النوارس برهة ثم تفرقت ولم تعد تتبعنا، وجهت بصري لليابسة من جديد بدت متموجة منتفخة، تنوعت نباتاتها بألف شكل أخضر سائب، غابات جديدة من الكستناء والصنوبر والكالبتوس....

لَمَّا ينحن الساحل قليلًا تطل قرية الصيادين، حيث شيدت عشرات البيوت البيض حديثًا وقواربها ترسو أمامها، مربوطة إلى ميناء صغير أساسي، أحيانا يومئ لنا سكانها بالوداع وهم يلوحون بمنديل ملون من النافذة، وتارة أخرى نتعثر بالمراكب المنهمكة بأعمالها اليومية تهيئ شباك الصيد، لكن بعد قليل تتوارى القرية والمراكب والصيادين وراءنا لتضيع في الأفق أو لتتلاشى بالخط الذي يبرزه أثر مركبنا.

لما نبحر في أعالي البحار أدرك أن مشاعري تتباين لكنها تعيد لي شيئا من الهدوء المفقود، كأن لتكامل المنظر وقعا إيجابيًا على تكويني الداخلي المعقد، فتشذب أطرافه وتهذب خشونته وتقربه ألي وتنظم منظومتي العصبية المتدهورة، بدا لي البحر ذات يوم كورقة زرقاء بلا

زوايا، وفي مرة أخرى يقف منتصبا ليترنح كأرض تخللتها الشقوق، في هذه الأحوال يتكيف معه مركب سان فولخنثيو ويلاحظ عثرات السطح واحدة تلو الأخرى، كما تلك الطيور الجارحة التي تعبر مجموعة بيوت لتؤشرها بكل تفاصيلها بأصبعها أو بالطباشير، في بعض الحالات تقفز الأسماك من الجانبين كأنها تقلد العصافير، تجتاز نسيمًا عابرًا-عارضا، فنشعر بمرورها من دون أن نراها، فهي لا تصدر ضوضاء كنجمات آبقة، تلمع السماء فوقنا فتغطي البحر كمظلة عملاقة، للحظات يبدو كلاهما –السماء والبحر-يتنافسان، كأنهما يناقشان أبعادا ومعايير، في نهاية الأمر انتبه أنه لا يوجد صديقان حميمان يحتضنان بعضهما كما يفعل كلاهما عند خط الأفق الممتد، هكذا مضت الأيام تتدفق بانتظام زمني رتيب من دون هفوة، مكثت أنتظر من دون أن أدرك جليا ما الذي أنتظره، لربما استعدت توازني الداخلي، لربما شيئا أشد هولا غير متوقع، شيئا ما بلا ملامح مرغوبًا به لدقته نفسها. لدي أمل في داخلي أن أشفى من الداخل، وأن الزمن والطبيعة كفيلة بأن تضعف الدائرة الهزيلة التي طبعت حماسي بعربة الموت وأن أستطيع ذات يوم أن أقول "كنت مجنونا" وأضحك حتى يغمى علي من جنوني، وأن أستطيع أن أقول للعالم وأنا اضحك ملء شدقي: "سيداتي لم أفكر بالزواج أبدا واليوم بلغت: خمس وعشرين عاما. "لكن بعد كل شيء كانت مجرد أمال ملتبسة غامضة، حتى أنني نفسي لا أجرؤ على أن أعترف بها واعيًا، تعصف بي فكرة قاتلة:" يمكن للإنسان أن يغير كل شيء-قلت لنفسي-بل يتحول حتى فيزيائيًا ويصلح حياته وغرائزه وعاداته لكنه لا يقوى على تعديل الضياء الذي
يحمله في داخله فيفحص بنقائه خطواته التلقائية، فالإنسان يمكن أن يختار طريقه بحرية لكنه لا يقوى أن يغير عفويًا الضياء الذي يسير بموجبه." في غضون ذلك الوقت، أواصل منتظرا-متأملًا (لا أدري ماذا؟ ، شيء ما بلا ملامح وبلا تناسق، لكن أواصل منتظرا....

الفصل الثاني

الله لوحده يعلم ما إذا كان في ذلك الوقت لدي أمكانية تعديل العالم بأفكاري، بالرغم من ذلك أن ظهرت هذه الإمكانية إلى الوجود، لدي قناعة مطلقة أن الحرب هي التي سحقتها وجعلتها تتلاشى تمامًا. ما زلت أبحر في سان فولخنثيو لما اندلعت الحرب، وككل الحروب كانت غير متوقعة ومفاجئة، لمجرد رجلين معروفين أعطياها أسبابا اقل مما هو معتاد.

-أسمع هل تريد أن تدخل التاريخ-قد يقول لي أحدهم ذلك

-هل تقصد حضرتك "الحرب"؟

-نعم الحرب.

-لتكن الحرب، لأنك تريد ذلك.

(حقيقة، كلا الرجلين كان يريد تسوية خلافاتهما والسلاح باليد، المهم هو إخفاء تلك الرغبة كيلا يراها المقابل، يجب أن نربح الرأي العام أولا قبل الحرب، موجز القول كانت تلك فكرة في نهاية المطاف تقرر الدعوة، والرأي العام لن تكسبه حينما تتفوه أولا بكلمة "الحرب"، لأن الحرب مكروهة لمن لا يحب القتال) في حين جمع من الرجال طفق يصرخ برفقة مجموعة أخرى ضد شيء ليس له وجود حقيقي، المجموعة الأخرى أجابت أيضا بالصراخ، كلا المجموعتين أنخفض صوتها بتراجع واضح، ذات يوم بعد جلبة كبيرة وكثير من الدم، تبين أن إحدى المجموعتين لم يبق لها أثر، أما الأخرى بقي منها بعض الشيء، هذا القليل على ما يبدو لم يُبقِ شيئا من المجموعة التي تقابله، شرع كلاهما يصرخ عاليا ليؤكد نصره، لكن هل حققا نصرا في الواقع؟ هل من تلاشى عدده كاد أن يختفي، يمكن أن يقيم نصرا لمجرد أنه عزل الجمع الآخرأي الخصم؟ الحقيقة حزينة يتعذر الاعتراف بها، لكنه أمر أكيد فالمجموعة المهزومة عانت من هزيمة مروعة، لكن المجموعة الناجية تعاني أيضا الهزيمة، ولكن أقل. في أعماقي كنت

مقتنعًا أن كلا الجانبين لأسباب خفية قد تشاجرا لوجود مشكلات عديدة بينهما، لكن أيضا يجب أن نعطي الرأي المناسب الذي جعل الآخر يعلن الحرب لكي يمكنه أن يقول ذات يوم:" أننا لم نفعل شيئا سوى صد العدوان"، هذه هي الخطوة الأولى نحو الانهيارالأدنى في الحروب المعاصرة، أي الناجين، بالرغم من أنها متعثرة بعض الشيء، كانوا ينادون متفاخرين "بنصرهم". الحقيقة أن كل المشاكل الموجودة تباعد بين الجانبين كيلا يجتمعا ولو من بعيد ألا بالحرب. أي إن الأسباب التي تسبب الحرب هي أمور تافهة وغير ملحوظة حين نقارنها بالقضايا الهائلة التي تولدها الحرب. (بعد كل شيء يكون حلًا إنسانيًا، فالإنسان قادر على أن يبقى عاريًا ليتكهن بمكان الغسالة التي انتزعت منه سرواله الداخلي، فهو يفضل أن يفقد كل قدراته قبل تنتقل لجيرانه القاطن في البيت الذي أمامه.) فالميزات الرائعة للحرب لا تشكل مشكلة ومع ذلك هل الحرب تنشب لتحاول أن تحل المشاكل بأدنى حد لتأجيج الاختلافات فيمَا بينها. أنها نظرية الشر الذي طبقت بالعكس، أي نظرية الشر بكل ما تحتويه من تشوهات وسخافات.

لقد اندلعت هذه الحرب لكي تشتتني، لطالما فكرت أن حربا من هذا النوع فيها معتدٍ ومهاجم، أحد يهاجم وآخر يدافع، أحدهم يعدها حربًا مشروعًة وعادلة والآخر يعتبرها سخيفة ومتقلبة وفاسدة، لذلك يشق علي أن احدد من الاثنين في هذه الحالة أهمل أولا طرق السلام وأصر على اندلاع الحرب، أن تبريرات أنظمة "الاختلافات العميقة" لا تقنعني تمامًا، كنت مقتنعًا أن الحرب حدث برغم فظاعته يملأ "فراغ تلك الاختلافات"، لكن ليس من اللحظة التي تفتح بها الحرب "أعمق" الاختلافات بالمستقبل القريب، فيضم كل المتنافسين في حلقة مفرغة لحروب كل مرة أشد انهاكًا و"تبريرًا".

ليس ثمة وسيلة تمكننا من تحديد بشكل حازم من هو المعتدي، فالجانبان يريدان "الحرب"، أحدهما يسعى إليها ليحد من نمو الآخر، في حين الآخر ليتجنب توسعه، وتوسعه يبدو أكثر رمزيًا وليس واقعيا، ويخص

الاقتصاد حصرا، وأخيرًا كلا الطرفين يسعيان للحرب لا لمصلحة شخصية بل لقص أوهام الآخر.
في التاريخ الماضي، لطالما فكرت أن أراضي أكثر وضوحا، حيث يوجد دوما معتدون ومهاجمون، طموحون وطماعون، مهاجمون ومدافعون، تتزامن دوما بين القوي والضعيف، لكننا نتعرف عليها فورًا، و أضافه لذلك هم لا يخفون دوافعهم الجشعة مطلقًا، سواء كان المعتدون رومانا أو بربرا أو عربا أو فرسا أو تركا، فهم يتحاربون مدفوعين بطموح بلا حدود، ليبلغوا أوسع الأراضي، و آفاقا جديدة، وللبحث عن بحار عسى أن تكون بأراض داخلية أو للبحث عن أراض تشكل شريطًا ساحليًا، لكنهم يمضون بوضوح إلى ما يريدون، الآن أصبح كل شيء مختلفًا، يمضون إلى حقول واسعة وأفاق جديدة وأساليب اكثر مهارة وأكثر مِراء وأكثر دبلوماسية... الآن يضيع المتنافسون من جرّاءِ التقاذف العقيم بذنوبهم ليظهروا للعالم أنهم منخدعون مساكين، وأن المعتدي الحقيقي بلا ضمير، قاتل النساء والأطفال، كان الجانب الآخر أي الخصم. لكنني أظن أن في الزمن الغابر لا توجد رؤية مشتركة لما يخص الحروب القديمة، "لربما- فكرت-أن تلك الآفاق التاريخية وظواهرها تؤثر بشكل متساو على الحروب الحالية عندما تمضي القرون على العالم."
لقد عشت قريبًا من تلك الحرب، أكثر قربا من المتنافسين أنفسهم، هم قريبون جدا، لكنهم لم يستطيعوا أن يروا ولا أن يحسوا بالتشوه الغريب الذي أصاب الأرض في تلك الأعوام، ولا ببحر الدم الهائج من الذي أحاط بالحضارة من كل جانب، لكنني رأيته وربما من قريب جدا وبشكل حي جدا وبلونه الأحمر. قدم مركب سان فلوخنثيو في تلك الحرب كما بقية المراكب الإسبانية خدمات إنسانية كثيرة، ذات يوم انتشلنا من البحر ثلاثة طيارين قاوموا بشراسة بمركبتهم القديمة كمينا لسرب العدو لكنهم وقعوا في شراكه، أغاضتني تلك المشاعر العمياء تجاه الإنسان، أنه القتل من أجل القتل وليس ثمة هدف آخر. تذكرت كلمات السيدة غريغوريا وهي تتكلم عن "المنطاد" كإنجاز مذهل،

يستعملانه الآن هنا بكل عنفوانه وطاقته يوظفه الإنسان بشراسة ضد الإنسان الذي اخترعه من العدم، فتبادر لذهني أن الحضارة سلاح ذو حدين إن لم يبادر الإنسان لتحجيمها، فالحضارة تبدع وتهدم في آن، وتترك الإنسان يقف في نقطة مهلكة لا محالة، خاضعة لعلاقة مهينة وتفرد دائم.

أتيحت لنا فرص أخرى فأنقذنا العديد من غرقى المراكب التجارية التي نسفتها الغواصات، كانوا تسعة رجال يصارعون الأمواج بصعوبة وهم على متن زورق صغير، منهكون وجائعون يحافظون على بقائهم بفضل أعجوبة واحتياطات لا تحص مكنت الإنسان أن يبلغ أقصى الحدود، ما أن انتشلناهم واصلنا بحثنا عن رفاقهم.

كانت سواحل إيرلندا قريبة منا، بدت باهتة في ذلك الأفق الرمادي البعيد لمساء شتوي، كأن ريشة رسام خففت ألوانها، وقد وثب البحر هائجًا يزمجر عاصفًا بسبب الريح العاتية، كانت الأمواج تتلوى منتفخة غاضبة فوق سطح متقلب فتنفجر متوالية كالسيل، في حين مركبنا سان فلوخنثيو بدا مستاء من هذا التأثير، كان البحر يلاعبه ليهبه حركة مستمرة غير مستقرة، وتصطدم الريح بسكونه لتحدث ضجيجًا غريبًا كصفارة قوية مشؤومة، أستمر انحرافنا في مسيرنا نشم هنا وهناك، ككلب صيد يتبع أثرا، بقي معنا فقط غريان كأنهما يرشداننا في ذلك البحر الغامض المنتظم، رأينا بغتة طائر نورس محلقًا بهدوء ليهوى فوق البحر ولم يستطع أن يطير، وذلك الموقف ينم عن معنى لنا، لما اقتربنا منه لاحظنا أن الطائر الأبيض استراح فوق شيء مشوه... يطفو ليقوم بدوامات فوق الأمواج الصاخبة، أقترب منه مركب سان فلوخنثيو ببطء، تملكني أحساس :كأن أحدا جلدني بسوط عندما أكد من يقف بجانبي أنه غريق، لم يأبه طائر النورس لما اقتربنا منه، بغتة أدركت بوضوح مواصفات الجسد الميت الذي سبق أن خبرته ككتلة عديمة الشكل بلا تناغم، لقد شوهه غضب البحر فأمسى جسده أسود اللون مائل إلى الزرقة كأنه شجرة مريضة، بطنه منفوخ وكروي الشكل كأنه حزام النجاة حينما ننفخه، تصور طائر النورس أننا ذهبنا إليه كوليمة وفي

نيتنا منافسته على وليمته، لوى منقاره ونقر بطنا كبير الحجم، أطال النظر للمركب الذي يقترب، عاد لينقر فخرجت إلى الخارج أحشاء غريبة تشبه جسد بلا حياة كأنه أفعى،عاد ليحرك رأسه ويرفعه لكي يتفحص تقدمنا، شعرت باشمئزاز كريه تجاه تلك الحيوانات، فكرت مدى خطئنا بأبداء احترامنا لهم، عدت لأؤكد فكرتي القديمة بأن قليلًا من الكائنات في العالم تتظاهر بما هم عليه إلا أن الحرب توقظ الغرائز وعند الحيوانات تبدو أكثر تفاهة واحتقار، كانت الأمواج تسيط مقدمة المركب وترتطم به، فكاد أن يغرق، أصدر طائر النورس زعيقًا واهنًا كمن يرفض تلك المتعة المحطمة، وليخبرنا أنه تخلى عن وليمته السوقية.

هبت على المركب ريح شمالية عنيفة، سمعت ضربة جافة، كأن جسدا متيبسا ضرب مقدمة المركب فتوقف في منتصف البحر، هطل مطر خفيف فتوقفنا، كان البحر يتموج مهتزًا ومتأرجحًا، أقترب بحاران من الحافة لأنزال المرساة المعقوفة الأطراف، ثم سحبها البحارون من الماء وكأنهم يصيدون برمح، زعق طائر النورس من جديد وقد وقف على المدخنة، غاصت مقدمة المركب بالماء ثم مؤخرته على التوالي، حركة مركب سان فلوخنثيو العشوائية جعلته يغوص في البحر فانتابنا قلق، فعضت طرفا المرساة المعقوفتان الجسد المتعفن، جذبه أربعة بحارين اليهم وبغتة تمزق اللحم وعاد الجسد ليغرق في البحر فحاولوا رفعه حتى السطح، عاد الخطاف يعض الجسد المتيبس، لكنهم عادوا لرفعه من جديد فوق سطح البحر.

شعرت بضيق جامد وخانق، كالذي اعتراني أول مرة لما جلست بجانب قبر مانوليتو كارثيا(الفريدو)حينما زرته في المقبرة في ابيلا....

كان الغريق أمامنا، هيأته محطمة بلا ملامح بشرية، ونكش طائر النورس أحشاءه، لقد فقد أذنيه وشفتيه، كأنه يبتسم مكشرًا بفظاظة مقتنعًا بوفاته، أنسلخ جلد أصابعه عن اللحم فتدلت الأظافر زرقاء اللون كأشلاء مقرفة كأنها أحشاء خنزير ذبح حديثًا، شعرت بالغثيان، حلق طائر النورس في الأعالي ليرسم دوائر حول المركب وأصدر زعيقًا شرها

وغاضبا ومستاء... تعرف الناجون على صديقهم فورًا، ولم يبق سوى القليل لعمله، ربطت قدماه الحمراوان بمرساة، ورمي مرة أخرى إلى البحر، ليستريح إلى الأبد في أعماقه الهاوية.

بعدها انتشلنا ثلاث جثث ثم منحناها للبحر فيما بعد، لما سرنا باتجاه سواحلنا لاحظت في روحي ملامح رمادية اللون لا تمت بصلة للواقع وشعورًا من عدم الارتياح، أثقلتني تلك الجثث المشوهة للرجال الأربعة، تدهورت حتى تعفنت بشكل مريع، لم يعد البحر بالنسبة لي مكانا هادئًا، وواحة سلام مسطح ومصقول، بل أصبح رفيقًا للموت، رفيقًا نشطا منافقًا ومهلكًا. خطر على بالي أيضا أن أولئك الرجال الأربعة وبقايا ستة آخرين لم نجدهم-لديهم عوائلهم وأصدقاء جدعت الحرب أعضاءهم بغتة، حاولت فك شفرة الحافز الذي يدفع الإنسان لأن يدرك في نهاية المطاف الصداقة مهمة غير مجدية، فالناس تقتل بالغريزة... الحرب مرفوضة وتمسي فكرتها سخيفة لقمع حركة عدوان غير مشروعة وحقيقة،" تكتسب صفتها القانونية والتعويضية-قلت لنفسي-حينما تكون نواة لما هو لعبة، حينما تكون حالة شرعية للدفاع ضد معتد حانق وبلا ضمير."

لم تولّد تلك الأيام النشطة والمذهلة خللا في نفسي، في الشهور التي تلت نهاية الحرب، شعرت في داخلي إحساسًا مختنقًا من عدم الراحة ومعتما، يرهبني التفكير بالأحياء بسبب الأموات، لا أقوى أن أفهم كيف أن مئات المنازل المشوهة تستطيع أن تندمج بالحياة الطبيعية من دون أن يشعروا بأعضائهم المبتورة، بالنسبة لي تلك الحرب كانت تأكيدًا لبرودة الإنسانية، فالإنسان لا يقص جناحيه سوى عيار ناري فيقتله، فهروب ملايين الموتى الكبير يؤجج حساسية الناجين. عجزت عن استعمال ذهني ليال كثيرة لأبحث عن حجة لأبرهن على عدم مبالاة الإنسان الجليدية صوب الإنسان، لا يوجد اختلاف في مشاعره، فالإنسان لاحقا أم آجلًا ينسى على الدوام، لقد أثقل كاهلي وجود البطل الحالي، فأنا لطالما اعتقدت بسذاجة خلوده، فالواقع القاسي للحياة علمني أنه ليس كذلك، ما عدا استثناءات بناءة، فمنزل البطل يولد فوق حطامه

فيسعى لحياة دنيوية أكثر من قبل، ويبحث أراملها و أيتامها عن عزاء عاجل لآلمهم، وليس كالشعوب التي ترتقي فوقها لتستعرض ذريعة قوية لتبرير مطالبهم، كنت أرى في النهاية أن ألم العالم كان غائبًا وأن أثر الأموات كان زائلًا وعابرًا كالتي ترسمه صارية المركب في المحيط الواسع.
حدث كل ذلك لما أنذرتني روحي الزائلة، فأدركت أنني تشكلت بشكل خاطئ، ولا حديث عن سبب الحياة خارج الحياة نفسها، وجدت نفسي بموقف واضح ومنفتح على العالم، عالم فظ وكثير النسيان، ويستهزئ من مخاوفي المضحكة.
كانت انفعالاتي كبيرة فبحثت عن ملجأ لشري في خصوصية كتابتي النثرية المشوشة، فكرت أن أؤلف كتابًا، مجرد محاولة لترشيد المحور المنحرف، لأنقل إلى صفحاته كل حقوق الأموات كي أبلغ عن سلوك الأحياء.
اتخذت من عملي كوهم للتجديد، غلت في داخلي شعلة متوقدة ترغب في نظام وتعبير، تقلبت في رأسي الآف الأفكار، أمضيت ساعات كثيرة منكبًا على الورق، تقدمت في عملي، لكن ذلك النداء المقلق للعقل تجمع جملا غير مكتملة بالرغْم أنها انطبعت في حمى قلقي، عاودت تأمل نفسي بأنصاف، وأكست روحي بفتور مؤثر كما أعتدت أن أفعل، فوجدتها غريبة مقهورة أجهدتها انطباعات الطفولة التي تطورت فيما بعد على أيقاع تطور جسدي، عدت لأتذكر السيد ليسمس أستاذ محنتي الذي كان على خطأ مثلي لأنني صنيعته، لكن ذكراه تتبرعم في داخلي باحترام، وكأنني أرى في وسط قناعتي الداخلية ضياء لحقيقة هالتها تنم عن ظل هزيل، فهمت أن العالم يمضي وفق قنوات مفروضة وأنا ودون ماتيو كنا نصر على أن نسبح ضد التيار.
عذبتني كوابيس غريبة في تلك الليلة، كنت أنا ودون ماتيو نشكل طاقم مركب سان فلوخنثيو فقط وأبحرنا في بحر من دم، من حين لآخر تقفز من بين الأمواج أسماك لها وجوه بشرية وتضحك بشكل مدوي، وجوه تلك الأسماك كانت مجهولة، لكن عددها يتزايد باطراد حتى تحول البحر

إلى قهقهة متشائمة، تأملنا أنا والسيد ليسمس المنظر الغريب مستندين إلى سور السفينة،
بغتة عبرت من فوق رؤوسنا إحدى السمكات، لما رأينا وجهها صرخ دون ماتيو، أنها مارتينا، لكن الطفلة تحولت إلى سمكة، لم أبال لها، القت بنفسها في المياه الحمراء من دون أن تتوقف ثم أطلقت ضحكات مجلجلة، بعدها شاهدت مفزوعا كيف أن وجه أستاذي تغير ببطء إلى رأس حمار، وبعدها أخذ يصرخ بنبرة مقلقة وهو ينعى الأسماك بالجنون، التي تضاعف عددها وضحكاتها وتقترب منا أكثر في كل مرة، انتبهت أن أستاذي فقد عقله فاضطررت أن أربطه كيلا يتخذ سلوكًا ضدي.
في صباح اليوم التالي حرقت فصول كتابي، فأدركت معنى حلمي بسبب صدى أفكاري في الأيام المنصرمة، ومن جديد مكثت وحيدا في مركب الحمولة الذي يفوح بعطر التفاح الطازج، لا أملك أبسط أتصال مع كتابي الذي يمر بخاطري في لحظات معينة من أزمتي وارتيابي، فأجد نفسي مرتاح نسبيًا حينما أكون فقط في البحر، بين أمواجه الهائجة المضطربة، في تلك الساعات غالبا ما أطل من المركب في حين الأمواج المتكسرة عند مقدمة السفينة تلعق وجهي المحتقن، راودني حينذاك أحساس ساكن إيقاعه منتظم ما بين كياني وطبيعتي التي تتملكني، لم يكن هنا تناقض أو نزاع، ولا كرب متوتر للقدرة التي أحيانا يثقلني، حينذاك أعد لي أبن مالك السفينة سفينة جميلة في زجاجة، كالجمل الذي مرّ من سم الإبرة، أنه أمر محال، استحالة مادية مطلقة لكن أدلتها مربكة بل متناقضة، يرفضها الإنسان أولا، بعدها تفضي به إلى التحلي بالصبر، صبر مسيطر عليه بقوة، لأن تلك السفينة في داخل زجاجة كانت كما الابن في أحشاء أمه: كأجزاء تندرج على التوالي، لكنني أعجبت بهذه المأثرة.
حللت تركيبة المركب الصغير، تيقنت انه لا توجد قطعة حجمها أكثر من نصف حجم المسواك، اكتسبت أشياؤه ثباتًا وتناغما بفضل اهتمام فني خارجي، قدرت منذ الوهلة الأولى أن في ذلك العمل نقطة تقارب

مع شخصيتي، لم أستطع أن أحدد ما هي، أو ما تحتوي، لكنها تمثل علاقة غامضة مراوغة ومخفية، لطالما كنت أتسلى حينما ألاعب شيئا صغيرًا بين أصابعي.

ذات مساء انتبهت بغتة إلى ترابط ما بين حياتي والسفينة الصغيرة السجينة في الزجاجة تكهنت انه يوجد في داخلي سفينة مشوهة، أقل رشاقة وأناقة من تلك، فالهوى الهائج توغل في داخلي ليحفر في دواخلي بالطريقة نفسها التي تقوم بها السفينة سجينة الزجاجة، تدريجيًا في كل أجزائي بشكل مستقل لم تكن تعني أي شيء.

شعرت بالهدوء بعد هذا الاكتشاف، وحاولت في النهاية أن امسك بزجاجتي "المسكونة"

بلطف وبحنان يكاد....

الفصل الثالث

احترمت قراري في تلك الفترة بعد أن تأملت بعمق السنوات المنصرمة، تجنبت الاستمرار بعلاقاتي الشخصية بل حتى التعمق في روحي لأنها لسبب ما كانت لصيقة بي، كنت أهرب من كل تماثل محتمل، كنت أعيش حياة مستقلة ومعتمة نافرا من الناس، لقد استبعدت العالم عن نفسي، لا أنا أطأ قشرته ولا هو يتجاوز سطح جلدي، أنهيت دراستي التطبيقية في آخر عام للحرب، و عملت بالعنوان الوظيفي كقبطان في مركب يقوم برحلات منتظمة عبر البحار، أتذكر أنني في تلك المرحلة فقط تمسكت بعلاقة مع شخص ما وكانت نسبيًا مستمرة، قمت بذلك وأنا مدرك ومقتنع لعلني أجد بيننا تيارًا من الود، ببساطة كان حواره يسرني. تعرفت عليه في مقهى في مالقه بموقف مثير، كان مقهى أتردد عليه دوما وانجذبت اليه لهدوئه وجدية زبائنه التقليديين. ذات يوم أقترب مني ذلك الرجل، يحمل حقيبة تحت ذراعه وقلما ثبته على أذنه، يرتدي ثيابا رثة بالية.

سأرسم لك كاريكاتيرا يتناسب وتركيبتك النفسية-قال لي وقد أستل قلمه من أذنه وورقة من الحقيبة، نظرت إليه بفضول، كان نموذجًا غريبًا، بلعومه ناتئًا يتحرك كلما تكلم، خصلات شعره الكثيفة والطويلة حشرها وراء أذنه كأنها ذنب طويل، يبلغ تقريبًا الخمسين عاما، حولت نظري إلى الورقة البيضاء التي يرسم عليها، رأيته يرسم دائرة فارغة ثم يتسلى بملئها باللون الأسود، وضح ضاحكا بلا مراوغة بالكلام.....

-أنت من الداخل ليس سيئا على الإطلاق، حقا؟ أنتظر لحظة لأقيس تأثير جرأته، كانت ابتسامته صادقة وصافية بلا نية سيئة، فابتسمت أيضا لأعرب عن موافقتي....

-عجبتك أليس كذلك؟

-لم أفهمها.

-أنه أمر سهل، أنت تتحرك في دائرة سوداء بلا أوهام... أليس كذلك؟

أعترف أنني أعجبت به بالرغْم أنني حينها لم أبد أي تعليق
-لكن من أنت، عراف أم رسام؟
-قليل من كلا الإثنين، واحدة تكمل الأخرى.... هذه الأشكال الكاريكاتيرية نادرًا ما أقاومها، أنظر هل ترى تلك السيدة التي تتناول الشوكولاتة مع والدها وتجلس على الطاولة المقابلة...؟
-نعم، لماذا؟
حرك يديه بخفة فوق ورقة خالية وبعد نصف دقيقة أشار لي.
-أنظر أليها.
كان قد رسم برعم زهرة أوشك أن يتفتح تزينه تويجات كأنها تقتحم الحياة بكل معانيها.
-هذه "هي" من الداخل، يبدو عليها أنها عاشقة.... لربما انتبهت إلى ظل من الريب في إيماءاتها، موضحًا:
-كأن عينيها تتحركان كباب دوار منذ أن دخلت هنا، مما لا شك فيه أنها تنتظر دخول أحد، لربما خطيبها، واليوم الذي سيتزوج به سيصبح زهرة ولربما لن يصبح كذلك....
ضحك ضحكة رنانة:
-لم تأبه لي، هذه حماقات، أنها وسيلة لنقد هؤلاء الذين يتحدثون عن رسم كاريكاتيري نفسي، والذين يتحدثون عن صور وضعت على ورقة تبين الملامح الحيوية للشخصية الكاريكاتيرية....
لحسن الحظ يومًا بعد يوم، بت أعرف بأن ليس للروح ملامح....
رسم رسمين على الورق ثم رماها تحت الطاولة، وأردف قائلًا:
-لنتحدث بجدية، أريد أن أرسم لك كاريكاتيرا حقيقيًا، يحمل صفاتك الحسنة.
أستدار بوجهه بطيئًا نحو الجانب الأيسر، ثم أستل من حقيبته ورقة جديدة ومكث محدقًا برأس القلم الذي يخطه فوق الورقة البيضاء، ليخط دوائر صغيرة في الهواء...
-هل لديك رسم كاريكاتيري....

خط برشاقة خطوطا عديدة فوق الورقة، ثم توقف مرة أخرى ليرسم في الهواء دوائر غير مرئية بينما كان يلاحظني.
-لحظة... أكاد أن أفرغ منه.... – نظر إلي مجددًا ثم عاد ليرسم خطوطا ثم يحدد بعضها بخطوط أغلظ-... وهكذا... ثم هكذا...-بغتة ناولني اياها-.
حدقت بها لعلي أتعرف عليها... بصراحة لم أتعرف عليها. لم يثرني الفضول لأتعرف على جانب وجهي أو صورة له، ولأتخذ أي نقطة دالة على شكلي لا يتطابق بأي شكل معها.
الذين يهتمون به يتعرفون على أنفسهم بعض الأحيان، وبفضل تبصرهم فيها، يقتنعون أنهم هم فعلا من رُسِموا على الورق. لكن أن اضطررنا أن نقول الحقيقة، فأنا أتفق أن "المريض" لا يستاء، لكن في بعض المناسبات مرت مصائب حقيقية بسبب هذا الدافع الغبي، في أحد معارضي....
توقف أحدهم ونظر إلي ثم قال:
-أظن أنني أثقلت عليك-قال بغتة-. أن وافقت عليها فهي تكلف خمسة ريالات...
دفعتها له مباشرة.
-أنا لست مستعجلًا-قلت له
لقد أثر علي بكلامه.
عاد ليجلس بالوضع السابق نفسه.
جال بنظره في الصالة ثم أضاف بنبرة واثقة:
هنا الشغل قليل، أنها دوما الوجوه نفسها... ولكنهم قد يسمحون لي بالدخول وأتناول القهوة مجانا كل مساء...
مكثت متأملًا الرسم الكاريكاتيري، من المؤكد، لا أدري أن كنت مقتنعًا به، فالملامح تدل على وجه يشبهني بلا شك، خط الأنف بدا جريئًا، بضربة واحدة دقيقة واستدارته معبرة. تكاد كل الخطوط تكتسب هذه الصفة: الجرأة والنظافة، توافق دقيق ما بين ما فعل وما كان يريد أن يعمله.

-هل أنت شجاع...
نهض ثم نظر إلي بنظرة عرضية
-من لا يملك شيئا ليخسره لديه نصف الطريق ليقطعه كي يكون شجاعًا ...
لذلك الرجل مهارة ليعبر بجمل موجزة مبطنة وكأنها كاريكاتير للغة نفسها.
-هل هذا ما تظنه-واصل حديثه-لو كنت أملك شركة متخصصة ولها ثمن هل أتجرأ أن أبوح بهذا الرأي؟ بالتأكيد لا، حينذاك سأحرص بمفردي على تجميل "مرضاي"، وفي نهاية الأمر هذا هو مفتاح النجاح: تستمتع بالعالم وتمدح خيلاءه الغبي.
مر النادل فناديته، شعرت بغتة بانطباع غريب لأنني أشكل جزءًا من العالم الذي يستثمره الفنان، وبخمسة ريالات بائسة اعطيته اياها لن يعاني من الجوع هذه الليلة.
-ماذا تريد أن تتناول؟
رمقني لحظة بشيء من الشك ثم أردف في الحال:
حقا، شكرا...-نظر إلى النادل-أجلب لي قهوة بالحليب.
مكثنا صامتين لبضع دقائق، أثارت هيئته البوهيمية فضولي، وطلعته الوسيمة، وبخاصة تقييمه للعالم من وجهة نظر إيجابية كاريكاتيرية، سألته:
-هل تعيش هنا منذ فترة طويلة؟
عقد ساقيه وطلب مني سيجارة، لفها بسرعة فائقة وتذوق الدخان مستمتعًا، وبعدها نفثة بسلاسة بطيئة ليرسم في الهواء وجه امرأة من الدخان.
-أنظر...أستطيع أن أرسم وأنا نائم، هذا ما تعلمته في حياتي ولم أتعلم شيئا آخر...
-هل ولدت رسامًا؟
أبتسم.

-ولدت... ولدت... الإنسان ينمو حيث يزرعونه كما الأشجار...أنا الابن الثاني عشر لبواب أكاديمية الرسم.
عاد النادل، لما ملأ الكأس، خبطها بمقبض دلة القهوة فانسكبت على ساعد الفنان، وتلقائيًا وقف على قدميه لينفض عنه السائل الذي سال على سترته، ضحك مبتهجًا:
-حسنا أطلب لي واحدة أخرى: لأنني لن أستطيع أن أشربها...
جلس إلى جانبي على الأريكة ليريني البقعة الندية.
-أن جفت-قال-سيصعب علي أن أتعرف على البقعة، أن كانت على الكم أم على بقية السترة....
بدأت رغبتي في سبر أغوار ذلك الرجل تكبر، راقبته بإصرار من دون أن أضيع حتى تكشيرته المتكررة.
-أن موضع البقع لا يمكن التحقق منه، بهذه السترة أستطيع أن أفعل شيئا الآن: أزيل البقعة أو اللطخة ببقع مماثلة، لربما الخيار الثاني أرخص كلفة ليس من السهل أن يبقى اللون قبيحًا، ألا تظن ذلك؟
-لديك وجهات نظر شخصية جدا.
دخن آخر ما تبقى من سيجارته بنفس واحد وشفطة واحدة، ثم رمى بعقبها على الأرض ونفح من فمه ما تبقى خرج من شفتيه دخانا على شكل حلقات مدورة.
هكذا يجب أن تسير الأمور، من المؤسف أن نسير في العالم من دون أفكار خاصة، تفزعني الناس التي تحدد مسيرها في أخدود، وأعجب بالمقابل من الذين يفتحون دربا آخر حتى لو كان ملتويا وناقصًا.
-لكن" بالأفكار الخاصة" لا يأكل...
ملأ النادل بحذر فنجان قهوة آخر لصديقي، فرشف منه رشفة.
-وماذا بشأن القناعة الداخلية؟ ألا تظن أنه يمكنك أن تكون قنوعًا من دون أن تجرب لقمة ذابلة لمعدة ممتلئة؟ صدقني لا أحب أن أرهن حريتي، بل أن أربح كما الآخر ولدي وقت لأقضيه وليس كما الآخرون أخضع لتعسف الإنسان أو الآلة.
- لا تخصني بهذا الكلام.

-بل أخص به نفسي فقط، فالعالم يشمل أناسا متشابهين، لا يوجد أنسان أصيل سواء من الخارج أو الداخل، فالعالم معقد جدا كما أظن. تناول حقيبته التي تركها على الأريكة إلى جانبه. فتحها ليخرج منها أوراقا كبيرة-. لدي بعض الرسوم الكاريكاتيرية التي تثير الفضول حقا، لاحظت ذلك-ناولني إحدى الرسوم وقد كتب على جانب أحداها "العالم". كان العالم لصديقي في النهاية كبرتقالة وقعت بيد بخيل ليقشرها ويستخرج منها كل عصيرها، إحدى يدي البخيل تقول له "استغلها" واليد الأخرى "استثمرها"-. أنظر لهذا أيضا...-هذا رسم كاريكاتوري " للإنسانية". مثل رسم دجاجة إلى جانب كومة هائلة من علف مستصلح، فهي تأنف عن اللجوء إليه لتنقر من مزابل البهائم-. نظرت إلى الرسم الآخر، " السياسة"-في وسط الورقة صمم تخطيط لآلة لعب القمار وصف من الرجال ينتظرون دورهم، لدفع الصدقة، مستمتعين بسماع جمل مجوفة ورنانة تخرج من بوق الحاك، وبعدها أظهر لي رسمًا آخر "التجارة" حيث يصور جلادًا يقف بجانب خوذة حافاتها بارزة وسيد أنيق يمسك برمانة في يده اليسرى يرتدي قبعة عالية وسترة طويلة
بعدها يتقاسمها مع اليد اليمنى، حبة حبة، لجمع من المحتاجين كبديل لقيمة التذكرة التي تستحق أكثر من التي أعطاها للرجل الأنيق صاحب الرمانة كلها. ثم أراني فورًا رُسُوم كاريكاتيرية كثيرة وأصليه ومتباينة، تمثل أشكالا مختلفة من الحياة ومؤسساتها الحالية أو التاريخية، كلها تتميز بمذاق واضح ولاذع ووقح. لما فرغت من رؤيتها قال لي متشجعًا بسبب ثنائي عليها:
-هذه أيضا للبيع، خمسة عشر ريالًا للواحدة.
-لا أريدها
-يمكنك أصلاح تلك الأمور، فاليوم الذي تعطيها " لمحترف " وتخبره أنها عمل قيّم سيعتبرها كمجموعة.
أصراره جعلني أعتقد أنه مثل الجلاد بقبعته ذات الجوانب البارزة في رسمه.
-ليس بسبب ذلك، لكنها لا تعجبني.

نهض فجأة وهو ينظر لرجل حسن الملبس دخل للتو.
-أعذرني، لا أستطيع أن أضيع هذه الفرصة.
ثم صافحني بفتور.
-أنت تعلم الآن، خوان رويو، دوما بخدمتك. هنا يمكنك أن تلتقي بي دائمًا أن أردت.
لملم أغراضه التي يحملها وأتجه مباشرة نحو الرجل الذي دخل للتو.
دفعت ثمن مشروباتنا ثم خرجت من المقهى وأنا احمل بيدي صورتي الكاريكاتيرية وقد طويتها بحذر.
لما ألفيت نفسي في غرفتي تأملتها مرة أخرى، فكرت ماذا لو كان العالم بحق كما يراه خوليان رويو، إذا كانت شخصيتي الحقيقية غير ما أراه الآن وليست التي أراها الآن تنقر خجولة بأطراف أصابعها، لو كنا ما نراه يوميًا بعيوننا سيكون أكثر من اقتراح نبتدعه لشيء غير موجود، أن كانت حيوية الحواس الأخرى ليست على قدم المساواة بل مجرد وهم بسيط، فالعالم في النهاية سيفتقر إلى شخصية موضوعية وحقيقية وصادقة لكي يصبح شيئا خياليًا وضاء فقط بشخصية فردية يسعى أليها كل أنسان.
احتفظت بالرسم الكاريكاتيري لأقنع نفسي بأمل خفي لعلنا ذات يوم سنقتنع بأن خوليان رويو هو وحده من يقص الحقيقة، وبأن الإنسانية هي هكذا منبسطة وغريبة ومعيبة، كما يراها هو.
عندما يرسو المركب بالرحلات المتعاقبة في مدينة مالقه لا أتخلف عن لقائي بصديقي الجديد، وفي كل مرة أقتنع أكثر أن ما بين قلوبنا لا يوجد رابط، كانت محادثته تؤنسني، كنت أتسلى وأسكر ولكن ليس أكثر من ذلك.
ذات مرة، وصلت إلى مالقه بعد مرور أربعة عشر شهرا لم أجد له أثرا، أكدوا لي أنه منذ أسبوعين لم يره أحد يمر من هنا وأن اختفاءه جاء مع وقوع ثلاث سرقات جريئة ومذهلة في المدينة، تذكرت حينها ما قصه علي خوليان منذ بضعة شهور بأنه "لا يرهن حريته مقابل أي شيء"، وربطت ذلك مباشرة بتأكيده لي " في كل الأحوال أن ساءت

الأمور سأطلب مساعدة البحار لأتجاوزها". لقد عرفت عمق فلسفته السقراطية للحياة" دعه يمضي، دعه يمر، فالعالم يمضي من تلقاء نفسه"، لم أشك في مشاركته بتلك الجريمة التي أكدها غيابه.

بعد أعوام عدت لأراه في مدينة بوينس آيرس، كان أكثر فقرا من جرذ، وأشد جوعا وبؤسا مما تعرفت عليه، فأموره ساءت حتى جعلته يعيش واقعا يائسًا، فأدركت أنها اللحظة المناسبة ليرى العلاقة بين السبب ونتيجتها على العمل والطعام، ويتذكر دينه لي، لكنني نصحته لأن يكسب عيشه بطريقة شريفة، لم يخيب ظني به، فقد أصبح محترمًا ووفيا دائمًا، لكن من دون أن يتخلى عن رغبته في الاستقلالية.

الفصل الرابع

مضى الوقت هاربًا، من دون أن يلتفت بناظريه ولو مرة، وهكذا حصلت على مرتبة القبطان فوجدت مستقبلي في آنتراسيت، كان مركبًا لنقل الفحم، وبعد فترة وجيزة تغير مالك المركب فتغيرت أيضا مهمته: لقد تخصص بتجارة ما وراء البحار، وبخاصة تجارة الفلين، واصلت حياتي في تلك الحقبة بالوتيرة نفسها وبالظروف ذاتها أي كنت مع نفسي فحسب.

لم يكن النشاط الخارجي يحفزني لأنني كنت أجهله: كنت أرفض كل تلك المحاولات المحتملة حتى جاءت لحظة ظننت أنه يجب أن أتبع طريق رسمته مسبقًا بلا تردد لمجرد أمر بسيط، لم أكن أشتاق اليه، لقد اعتدت أن أعيش هكذا وأي تغير عابر يتعبني لأنه يثير في نفسي ما تبقى من تشاؤم، وبهذه الطريقة بلغت الاستقرار الذي كنت أبحث عنه من سنوات خلت: أن أعيش مستقلًا، بلا روابط ودية وبلا تأثير.... فالارتباط الوحيد الذي يربطني بالماضي كانت ذكرى الفريدو ودار أستاذي وأهله الرائعين الذين يسكنون فيه، لكن أيضا هذه الذكرى بدأت تتلاشى في داخلي، خلال أقامتي في المدرسة البحرية كنت أتراسل دوما مع السيد ليسمس، بعد ذلك بدأت مراسلاتي تقل تدريجيًا من دون أكراه، لابد أنهم ظنوا أنني أناني وجاحد، لم أكن أملك تبريرًا ولا تحليلًا دقيقًا بالرغْم أنني لم أعرف أن أحدد صفاتي المتهمة، كنت أجد نفسي لغزا يتلاشى في دوامة مضطربة مدارها يدور في ضميري الشخصي الدائخ، تملكني شعور غريب من الضبابية يمنع تصوري بطريقة إيجابية ومقنعة وجذرية، فعرفت بمفردي أنني كنت فردا مجردًا من حكمة القدرة على فقدان ملكيتي والتخلي عنها ومقدرتي على الانعتاق، ولدي إمكانية أبراز الآثار السيئة المحتملة، آثار كالأنانية والجحود فتضع حاجزًا لا يمكن تجاوزها لفسح المجال لنزعة من التعايش الأجتماعي.

لكن في أعماقي كنت راضيا بتلك الحدود المحصنة، لما أصارح نفسي أعترف أن وجودي يمشي أكثر هدوءًا من دون أن أعرف نهاية الأشخاص الذين أحببتهم، والذين مازالوا يحبونني، كنت أفضل العيش بشكل مجهول وقاتم وأشعر بالسعادة التي في نهاية المطاف تتنقل وتتباين أمكث أحيانا منعزلًا في حجرتي، أنظر إلى الرسم الكاريكاتيري الذي رسمه لي خوليان رويو والسفينة في الزجاجة التي أهداها لي ابن مالك المركب، كنت أفكر أن كلا العملين يكتملان ليجعلاني أولد من جديد كفرد مشوه ودبق ومعقد، كنت أرى ملامح خوليان رويو كتفسير أولي لكنه كان صادقا حيال شخصي المشوه، كنت أرى في عمل أبن صديقي صاحب المركب القديم واقعا بديهيًا، أصله ومسيرته مجهولتان، لكنه يرمز إلى حصيلة فنية دقيقة لمركزيتي وما جبلت عليه، بعد مضي وقت قصير افتتحنا خط ملاحة بروبيدنثيا (جزيرة في بحر الكاريبي)، فقبلت بذلك الخط عن قناعة وقد أتاح لي الفرصة لأن أتفرد بحياتي البحرية المستكينة بلا تأثير للحياة العامة ومن دون احتكاك بمزاج أشخاص تركيبتهم النفسية لا تتوافق ونفسيتي، بعد مرور ست سنوات أقمت علاقة جديدة مع العالم، أنها علاقة تتربص بنا من دون توقع تحفز وجودنا بشكل عصبي محفز فتشكل محورا وسببا للحياة الخاصة.

جاء شهر نيسان، خيم الليل على يوم رمادي مضبب، تراءت فوق المحيط سواحل أمريكا من بعيد بلا ملامح أو تعبير، كأنها نظرة مشوشة لشخص مصاب بقصر البصر، تلاشت واهنة بلا أدراك وبلا حقيقة ولا حياة. تلوت أمواج البحر متكورة واسعة تهزها حركتها الداخلية بمهابة ذليلة كأنها لمعان شرشف احتوى ألف طية بسبب حركة نشطة لحيوان صغير أختبأ تحته، يتأرجح هنا وهناك لكن من دون أن يهشم الأشياء، بينما أسراب الطيور البحرية تتقاطع في الفضاء وتمضي باتجاه الساحل لتبيت ليلة بين الصخور الوعرة كمأوى لها. أما مركب آنتراثيتا فكأن هيجان البحر المخيف تدغدغه في أعماقه. (يقال إن في أعماق البحر غريزة أمومة متدفقة تتلذذ بمرجحة مركبنا وكأنه مهد طفل حديث الولادة.)

قبل إشراق اليوم الجديد كنا قد بلغنا بربيدنثيا، ينبض هذا الإدراك مع كل حركة على سطح المركب، يموج ويتراءى بالرغم من العزيمة آنتراثينا نفسه شاهد على مسافة بعدنا عن ميناء الاستراحة، تزايد نشاط البحارة لاقتراب الأيام كأنه نسيج متراخ ليولد حافزًا لأمل ساعات أفضل بالرغْم أنها متخفية بسلبية سلوكنا العادي، فبلوغ بروبيدنثيا يعني التحرر من الغريزة، والانفلات من طوق النظام القاسي، وتغيير حياة متقشفة ومقتضبة وضيقة بأخرى مبهجة وطريفة ومتحررة من حياة الميناء.

أنهى المساء ضياء النهار، كنا نعيش لحظة انتقال غير محددة، ظهر خيال يخت يتأرجح فوق خط الأفق واهنًا وبطيئًا من دون أن يتمكن أحد أن يتكهن بتموجه بشكل غير متوقع، كان مركبًا نحيلًا هيئته كصورة طائر أكثر مما سمكة، ومركبًا معتدلًا كهيكل كلب صيد تم أنشاء بنيته على هذا الأساس، وأكثر وضوحا من رؤيته هو التكهن بشكله المدبب – متصدع وكأنه ظل خيط يجتاز البحر بمقدمته المدببة، وانحرفت آثار مسيرته لتبتعد عن مسيرنا، وببضع دقائق رسمت آثار المركبين العابرين تقاطعا عملاقًا ومزبدًا في البحر، انتبهنا بعد قليل أن أتجاه اليخت كان غير متساو واعتباطي، وأن دفة مقوده يتولاها رجل سكير، شرعنا بالصلاة ثم توقفنا تحثنا غريزة التحفظ.

ولى المساء سريعًا، لاحظنا في غضون دقائق آخر شعاع للشمس، أستخدمنا جهاز المشماش (لإرسال البرقية) لليخت لكي يبعث لنا بتقرير سريع:" انقاذ، لقد تهنا." فهمت حينذاك مسير اليخت المتعرج، أسرعت بإصدار التعليمات المناسبة، عملت على أن أستثمر بقية اليوم لأنجز المناورة، اقتربت بمركبي من اليخت التعيس، كان قد أستنفد وقوده ومكث ثابتا وهادئًا، ينعطف بطيئًا بدفعات البحر العميق، أقترب زورق الإنفاد من السلم ثم ألتصق به بمساعدة عصا كأنها متشوقة لوخزه، كانت لحظة حاسمة وبعدها قفز أحد رجالي فوق سطح المركب المتآكل، تكهنت أن ذلك كله سينجز في لحظة، لقد أكد الرجل أن اليخت له حبل سميك وشغل طاقمه المقعد الخلفي لزورق صغير حملهم إلى أنتراثيتا، كان طاقم اليخت يتكون من أربعة أشخاص رجلين وإمرأتين، أحدهم

متوسط العمر والآخرون الثلاثة كانوا شبابًا، لما شكرني تأكد لي ظني أن الأربعة كانوا أمريكيين.
خيم الليل علينا ومن حين لآخر ينبئ وميض أحمر اللون بأن السماء ستلد قمرا رائعًا، بدرا منشرح الأسارير، أستأنف مركب آنتراثيتا مسيره متأخرًا كجرو مترف، بينما اليخت الخفيف والمرح أذعن له مرة أخرى. أبحرنا ببطء لنتجنب تصادم محتمل بين المركبين، كان الأمريكان الأربعة يتحدثون فوق الجسر مع لويس بوليا، مساعدي الأول، بينما هيأت لهم مبيتهم في مركبنا في تلك الليلة.
أوضحت الفتيات الاثنتان خلال العشاء أن عطل اليخت، سبب لهما غبطة وحماسًا مثيرًا من دون أي تشنج لمغامرة غير متوقعة زودتهم بباعث أخرجهم عما هو مألوف في رحلة بحرية يومية مختلفة. لما تقدم الليل استلقى ضيوفنا لكي يستريحوا، صعدت إلى سطح المركب وبعدما تأكدت من سلامة عربة المقطورة وقفت مستندًا إلى الجانب الأيسر، أطل القمر ككرة تتوهج كمهرجان في الاعالي، تنثر انعكاساتها فوق قمم الأمواج، فتبرز تحت ضياء متنافر للظلال المتموجة، خط ارتفاع القمر أثرا وضاء على شكل نقاط متلألئة، وضعت راسي بين راحتي وغطست في بحري الذاتي، ذلك البحر الجارف والغامض الذي يبهر ذهني فيغلق أي إمكانية للحوار. تثقلني حياتي المنعزلة والمصطنعة، التي أخبئها في تجويف صدري، فتثقلني كل مرة أكثر وبخاصة عندما تهيئ لي الظروف الفرصة لأتصرف بشكل طبيعي، فالحياة مستني كما كل أنسان بمهماز الأشياء الطبيعية التي تدخل في حيازتها.
-أهلا!
اقتربت مني إحدى الفتاتين واتكأت أيضا على السياج.
-ألا تريد أن تنام في ليلة كهذه-أضافت-فالنوم ينقص تلقائيًا الكثير من الساعات التي يجب أن نحياها. كان شعرها مسدلًا فتوهج تحت شعاع القمر فوق رأسها. ساد صمت طويل جدا فيما بيننا، حينذاك انتبهت بأنني لا أجيد التعامل في هذه المواقف، ألفيت نفسي كمحارب ليس على

وفاق مع العلاقات الحياتية، انتبهت غريزيًا أن مرافقتي كانت جميلة وجذابة، تتكلم اللغة الإنكليزية بنبرة أيرلندية.
-أنت قليل الكلام-بادرت بضحكة-لقد لاحظت هذا أثناء العشاء....
- من الصعب التحاور حينما نفتقد النقاط المشتركة في تاريخ حياة كل من الطرفين.
أمسكت بالشراع بكلتي يديها ومالت إلى الوراء، فتوهجت يدها اليسرى لما لوحها وجه القمر، انتبهت حينذاك أنها تلبس خاتمًا في أصبعها الوَسَط تتوسطه ماسة تشع بريقًا، رفعت يدها التي يزينها الخاتم عفويًا لتزيح خصلة شعرها التي تدلت على جبينها.
-أه! لدينا فائض من النقاط المشتركة.
رمقتها بغضب.
-في هذه اللحظة توافقنا في الزمن وهذا أمر مستطاب، فلوجود العالم تاريخ من سنوات كثيرة.
-نعم حقا، أنا وأنت كنا موجودين في مصر في حقبة الفراعنة.
-بالتأكيد.
عادت لتضحك ويتوهج مرة أخرى بريق من أصبعها الوسط.
مازال هناك المزيد-أضافت.
-المزيد؟
-كولون.
-كولون؟
-كل واحد منا يقبع على طرف ما حققه من أعمال.
ابتسمت وأعجبت بتعبير صديقي الملتوي
-ما رأيك بكولون؟
- كان مكتشفًا عبقريًا.
- لا بأس به...
- لا بأس به؟
- لا بأس به، ألا تثير جرأته الإعجاب؟
-نعم، بالضبط.

-هل يعجبك أن يتحلى الرجال بصفات أكثر من الجرأة؟
ارتبكت ثم ابتسمت وانتبهت للجانب المرح في هذه المحادثة، فأخذت بالحسبان الظروف التي وقع بها الحدث.
-وفقا ل...-قالت في النهاية-إذا كانت الصفات عبقرية ومستقيمة ستتحول إلى أمر جاد. ألا تظن ذلك؟ بالمقابل، لو أن كولون أخطأ برغم جرأته لما حقق شيئا.
-شهرته تكمن في مزاياه.
-ومزاياه أتت بنتيجة.
-وألا لما عرفهم التاريخ...
-لربما بصفته مجنونا....
كشفت شفتاها الغليظتان عن ابتسامة استهزاء، وما فتئت أصابع يديها الرشيقة البيضاء تمسك بحافة السور ومن حين لآخر تميل بجسدها إلى الوراء بمساعدة مرونة يديها.
-أو لربما كما ترى تدخلت الطبيعة في عمل كولون...
-في الأقل أوجد قارة ومن بها اصطدم مع...
-هذا أمر ليس بالقليل.
ضحكت بطلاقة.
-ألا ترين أن وجهات نظرنا تتفق في نقاط مشتركة في رؤيتنا التاريخية.
ابتدأت أجد مذاقًا غير متوقع في محادثات غير مجدية لطالما كرهتها، لمحت أن الحياة لبعض الناس هي طرفة وهذه الطرفة يجب أن نتعامل معها إذا كنا لا نريد أن نصطدم مع تناغمها المتماسك. لاحظت أنني استمتعت في ذلك الجدال وبالطرف الخفيفة، فجعلتني أنسى مؤقتا، وابتعد عن الظلال التي تطوق روحي وأمضي برفقتها إلى أفليم هوائي لا جذور له، وأتغلغل في منطقة متأججة واضحة وخصبة تساعدني لأغادر أتزاني التقليدي. تحدثنا على مدى ساعة في أمورا ليست على ذي بال. أثار منظر مقدمة ساعديها الصقيلين النحيلين رهبة في داخلي وولدت لدي رغبة متنامية لأن أدغدغها مرات عديدة من راحة يديها، وأقص شعرها من الأسفل إلى الأعلى ثم اسرحه حتى مرفقها المكتنز.

داخلتني قناعة غير مفهومه أن اناور تلك الفتاة لكي أطيل محادثتنا الحميمة حتى آخر الوقت، حتى حدود واقعنا الإنساني.
واصل القمر يرمقنا من الأعالي، ليبعث وميضًا متوجهًا كأنه سلاسل تتخلل الهواء، لفحنا النسيم البحري المشبع بروائح الميناء وعطور الأرض الواسعة المجاورة.
-أجدك بارعًا في التحاور.
-الموضوع متعلق بمن يحاورني.
ثنت يديها وساعديها فبدا ظاهر ساعدها، كان لون بشرتها من هذا الجانب الظاهر باهتا ثم يتدرج ويتحول ليبرز هيئتها لما تميل برقة نحو الطرف الآخر، هذا التناقض في اللون الداكن والفاتح أبرز ساعديها، فولد في داخلي رغبة لأن أداعبها وألمس بعذوبة نعومة بشرتها.
-حسنا، أظن حانت ساعة الاستراحة...
تهيأت لتغادر، شعرت كأن إحساسًا من عذوبة مرهفة غادرني بعد أن عشتها لبضع دقائق.
-لا تقل إن النوم يضيع الحياة؟
ابتسمت وهي تحدق في ناظري.
- قليل من النوم أيضا هدر للحياة، لأن النوم يكون على حساب الحياة فنعيش نصفها فقط.
بسطت يدها فأمسكت بها وأنا مدرك تمامًا أنه أمر شحيح لما أطمع به ليس فقط أصابعها الخمسة التي يزينها خاتم الماس.
-أن كنت ترغب-اضافت-يمكننا أن نلتقي غدا....
أختلج قلبي بضربات جامحة، لكن صوتا في داخلي حثني على الرفض.
-أين؟ -سألتها.
-في المتنزه، مقابل تمثال روجر ويليام في الساعة الثانية عشرة.
ابتسمت مرة أخرى وسحبت يدها من يدي.
-أذن إلى الغد-قلت لها.
-إلى الغد.

بدا لي رسم الكاريكاتير لجوليان رويو في تلك الليلة سخرية قاتلة وتشوها غبيا وبشعا وتافها.... قبل أن أنام تولد لدي انطباع أنها تريد أن تهرب من شيء لم تكن تحبه على الاطلاق، ود فمي لو يقول "لا" لشيء ما، بينما كل خلايا جسدي استنفرت لكي تصرخ مدوية بالأجماع "نعم".

الفصل الخامس

وصلت جين بعد دقيقتين من وصولي، أكتسب خيالها تحت ضوء النهار الواضح صورة متميزة وهي تتقدم نحوي في ممر الحصى، لما القت التحية علي لاحظت أيضا أن صوتها له نبرة متباينة ومحيرة عما في الليلة السابقة، لقد ذكرني صوتها بصوت والدة الفريدو، ذلك الصوت العذب الرخيم وغير المفهوم تقريبًا، كأنه زقزقة جوقة عصافير في جوف الغابة.

-أين تريدن أن نذهب؟

لاحظت أنني لم أول اهتمامًا بأي شيء لا يمت بصلة لها وبأن أية زاوية من العالم ستكون جيدة إذا مثلت أمامي نعومة رقة ساعديها وعذوبة صوتها المتهدج.

سرنا بلا اتجاه محدد، كيف يجب أن نسير عندما يكون ما يحيطنا زينة ورفاهية مترابطة تضوع من روحينا المترافقتين والمنسجمتين، بعضها زائل أو قد يتقاطع معنا من جرّاءِ مشاغلنا اليومية، كنا أنا وجين نبدو احرارا تمامًا من قيود لا تمت بصلة لروحينا المتحفزتين، قالت لي جين بغتة جادة:

-هل أنت رجل غريب.

خطواتها أمست متمهلة ومتراخية كأنها لا تريد أن تمنحني انطباعًا أنها تسرعت بأبداء فكرتها دون تأمل منها، حدقت بعينيها متسائلا ما الذي لاحظته علي لتتصرف بشكل جازم وحازم، وهي فهمت نية نظرتي.

-هل ستمضي في الشارع ضاجا لتطلب المغفرة لكل من حولك، لو أنك رجعت خطوة للوراء حينما تعبر الشارع لما تمر حافلة، لأنك تبدو بهذه الحركة كمن يطلب العفو من السائق لأنه قلل سرعة مركبته، تدوس المدينة باحترام، وكأنك تخشى أن تهشمها، كمن يزور دارا صنعت من البورسلين لا تثق بصاحبها.

ابتسمت لما انهت كلامها، أحسست بمرارة لهجتها وكأنها تريد أن تخبرني ألا أشغل بالي بما يقال، لأنه في الواقع ليس ذا أهمية، ثم أضافت:
-لا أظن أنك هكذا؟
ابتسمت لكي أخفى انزعاجي أخذت ألف سيجارة بهدوء.
-أظن من السابق لأوانه أن تطلقي الأحكام.
-أؤكد لك تكفيك دقيقتان لتتجنب في داخلك ذلك الافتقار للصراحة والثقة بالأشياء المحيطة بك.
أشعلت سيجارة بينما واصلنا مسيرنا ببطء.
-هل تريدين أن تقولي إنني افتقر إلى.... كيف أعبر عنه...؟ العالم، أليس كذلك؟
شيء مماثل لذلك...
سحبت نفسا على عجل حتى إن نار الجمرة وصلت لشفتي، وحرقتني.
أدركت أنني ما أزال أبدو لها غريبًا جدا، ولفت نظري أن روعة جمالها تكمن في ساعديها الملفوفين الناعمين هي ما تثير هواجسي، أو حينما أكلمها فأن صوتها يبدو لي زقزقة جوقة عصافير متشابكة في جوف غابة، أو أخبرها أنها أول أمرأه أنعم بترف حرارة لقاء وجهها ولمدة طويلة، بل الأشد غرابة حاولت أن الخص لها كل تفاصيل حياتي الدقيقة منذ نشأتي.
-أكاد أعرف العالم برمته-أضفت مواصلًا محادثتنا.
-أن تمتلك العالم لا يعني أنك طفت به.
- لابد من عائق يستعصي علينا دوما.
حتى منع كل....
أشارت جين إلى حافلة وقفت بجانب الرصيف أمامنا.
-أصعد-قالت لي وقد صعدت برشاقة أولا.
رافقتها حتى الطابق الثاني، مضت الحافلة الصغيرة بعد أن رشقتنا بنسيم عبقه لطيف.

-لم آخذ رأيك-قالت جين وقد استدارة نحوي-هذه الحافلة تذهب إلى طريق الساحل.
-رائع!
-حقا لا يهمك الأمر؟
-لا يهمني المكان.
فرمقتني مباشرة بعيونها الصافية والعميقة. "لربما قلت شيئا أكثر مما ينبغي"، قلت في سري، لكنها عاودت نظرتها المركزة بالوقت الذي مدت ساعدها لتتشبث بمسند المقعد الخلفي. نظرت مرة أخرى لساعديها الناعمين اللذين خلقا بشكل إلهي. داعبتها بناظري، وتركت نظرتي تطلق شررًا حتى الأعماق، ثم اغمضت عيني كي أتحسس أثارتي، التي تقرا جين فيها شذوذ شخصيتي. امتد أمامنا طريقًا رماديًا، تاركين وراءنا آخر دور بروبيدنثيا، أنبسط الحقل على امتداد الساحل، كان حقلا محدود الحياة في جو ربيعي دافئ، لما انعطفنا إلى جهة البحر اليسرى، أمست أمواج البحر عالية متقطعة كأنه يريد أن يمسح وعورة الساحل.
-هل نترجل هنا؟
تهيأت جين، توقفت الحافلة إلى الجهة اليمنى على الشريط الأبيض الذي يقسم الشارع إلى نصفين، ثم ترجلنا، لما أقلعت الحافلة الصغيرة مبتعدة نست خلفها أثر احتراق البنزين، وجدت نفسي برفقة جين وحيدين وسط الطبيعة، شعرت حينذاك بقوة قربي من المرأة، وكأن كل مسامة في جسدي كانت تستنشق حضورها. غمرتنا الشمس بأشعتها العمودية غير الحادة، على جوانبي الطريق صفت أصص الزهور وتناثرت الأعشاب التي كادت أن تختنق من جرّاءِ حركة الطريق، قفزت جين إلى الجانب الأيسر وأنا تبعتها، التزم كلانا الصمت، لربما كنت اتأمل بصدق ملامح الشخصية الأولية لرفيقتي. لما هبطنا المنحدر ترءات لنا حدود أميركا وعند الأقاصي بدا البحر، كانت الأمواج تتحطم بقوة فوق الصخور وكأنها ترشنا بماء التعميد المقدس، فتقفز رغوة بيضاء مجعدة كرأس زنجي، عند الأقاصي بدا الصيادون أو المسافرون الذين يبحثون عن مدخل للميناء، بينما أنتشر دخان المراكب في السماء كسحابة سوداء

كثيفة وثابتة، ومن حين لآخر تمسحها الرياح المتقطعة كفرشاة وتخفي أثرها وتزيل حضورها السابق.
-هل نهبط؟
أخذت أهبط الصخور من دون أن أجيبها، أما جين أخذت تقفز من صخرة لأخرى، خالجني أحساس مفرط بالبهجة لما رأيت جدار الصخور يمتد من ورائنا، ليفصلنا عن بقية الكون، وفي كل مرة يتناهى لنا ارتجاج البحر القريب، يزمجر كثور مطارد يحاول أن يقهر الحاجز الذي يفصله عن الطبيعة، رذاذه يتساقط عند قدمينا بنعومة، توقفت جين بغتة، ووقفت فوق حافة صخرية، واحتمت بيدها اليمنى من وميض أشعة الشمس وهي تنظر إلى البحر، بدا من بعيد شيء بلا ملامح وبعيد جدا بدا ظل وحيد ونحن مستمتعان ومقتنعان أن ما بين السماء والبحر لا يسع ولو لقبلة خاطفة، وهكذا ساد صمت متوقع.
-يعجبني تأمل البحر من هنا-قالت بشكل غير متوقع وهي تنظر ألي-تلمس به تأثيرًا لشيء فوق طاقة البشر بقوة وبساطة هذه البقعة من العالم.
جلست على الصخرة بالقرب منها وجلست هي أيضا.
-هل تؤمن بالله؟،حقا؟
-هل أنت كاثوليكية؟
-نعم، أمي كانت أيرلندية.
لقد عقدت علاقة ما بين وطنها الأم ودينها علاقة قاتلة وبسبب تأثيرها استحسنتها، بدأت ألف سيجارة، أعطتني علبة سجائر صغيرة ثم ضحكت:
-دخن أنت بدلا من.... أن كان ذلك لا يهمك، فيها سجائر جاهزة.
شعلنا اللفائف، رجعت إلى الوراء واستندت إلى الصخرة التي أجلس عليها.
-هنا من الصعب أن تكون كاثوليكيًا.
فتحت عينيها لتعبر بساذجة-لماذا؟
-أنه أمر استثنائي.

-الاستثناء هو دوما الأكثر نقاء.
-هل تظن هذا؟
-ولم لا؟ الذي يسير ضد التيار يجب أن يكون مقتنعًا، وأن لم يكن كذلك، سيمتنع عن ذلك بسهولة.
-من السهل...-قالت.
-لكن الصعوبة التي تلمحين إليها يمكن أن تعوض بقناعتنا بأننا نحيا في الحقيقة، ولا أحد يرهقه مواصلة طريق يعلم أنه يقوده إلى نهاية جميلة...
-في أماكن أخرى الاستثناء هو الآخرون.
-أيضا يكونون مقتنعين بممارساتهم، أو أن شئت أكثر نقاء، ما لا أود ذكره، أنهم من الطبيعي أن يحيوا واقعهم.... إضافة لذلك يبلغ عدد الكاثوليك في أميركا الشمالية الملايين.
غيرت جلستي ومكثت أنظر إلى جين بحساسية مفرطة.
-هل تشعرين براحة لرفقتي.
توردت خدودها للحظة، وانتظرت حتى يتلاشى حياؤها لتجيبني:
-ألا تظن ذلك، في هذه الحالة، كما هو الحال في كل شيء، تتملكنا الأنانية.
فابتسمت.
-هناك فرص ضئيلة لمعرفة لما نقوم به في الحياة، فالنشاطات التي تنبئنا عن سلوكنا هي قليلة، الأنانية نفسها من الصعب تحديدها، ألا تظن ذلك؟ أحيانا.
-أحيانا فقط؟ أنا أحث لأن نبحث في كل الحالات عن قناعتنا الشخصية، ما يحدث عادة أن للأنانية درجاتها وهيئاتها كما بقية الأشياء.
ابتسمت بصمت، لربما احتفظت بالجواب لنفسها. وهي بعد كل شيء لا تشكل خطرا علي وتكاد تكون عملية.
تهشمت موجة بحر طائشة عند أقدامنا، رمت جين عقب سيجارتها فوق رغوتها ثم نهضت.
-لنذهب لقد حانت ساعة الغداء.

ثمة دافع حثني في تلك اللحظة لأكون جريئا، فحاولت أن أكبح تلك الجرأة التي تولدت بغتة في داخلي، لكنني لم أفلح.
-لماذا لا تريدين أن نتناول الغداء معًا؟
-بل يسعدني ذلك.
انحدرنا نحو الطريق، كانت الحافلات تجتازه على كلا الجانبين لتتلاشى رؤيتها ضمن جحافل السيارات الذاهبة. تناهى صوت بوق ضاج فوق الأسفلت الرمادي بنغمة حادة كآلة صاخبة.
تقدمت برفقة جين إلى حافة الطريق، بعد مرور بضع دقائق سارت الحافلات ببطء فوق الطريق، لتتحول إلى استعراض إيقاعي صامت.
طرأت على بال جين فكرة حسنة.
-ماذا لو نتناول الغداء في مطعم بحري على الهواء الطلق؟
-كل فكرة ستبدو حسنة.
عبرنا الشارع فأشارت جين إلى غابة أشجار يحيطها سياج يبرز من بينها سقف بيت أحمر اللون.
هناك بوسعنا أن نتناول طعامنا ونتحدث بهدوء.
هبطنا دربا في وسط مرج، طأطأت لأقطف زهرة لجين، طرأ على بالي مرة أخرى كابوس الرجل وهو يتقدم في طريقي، ليلتقط الزهور قبل أن أقطفها، لكن ذلك حدث لثانية ثم ولى. لما شبكت جين الزهرة البرية بين شعرها كأن الأشياء اكتسبت لونا وحياة أزاء مشاعري المتوقدة، دخلنا المطعم، انبعثت من اليمين أو اليسار فوضى عبثية، انبعثت من الأرض لتشمل كذا عشر طاولات خشبية خشنة يحيط بها ولائم الطعام من كل جانب، وفي النهاية ترى بضع طاولات شبه محجوزة تحيط بها خشب الغابة الأخضر، في وسط الحديقة لاحت من بين الأشجار دار بيضاء اللون وبسيطة ومطبخ حالته جيدة، فيما كان نصف اروادها من المتزوجين، تحرسهم كلاب غريبة الأنواع.
-لنجلس هناك.
جلسنا على إحدى الطاولات القريبة من الغابة، تملكني مرة أخرى إحساس مريح من العزلة لما رأيت أكوام الصخور تمتد وراءنا لما

انحدرنا نحو البحر. أولئك الذين لديهم حجز جلسوا على مقاعد وثيرة وأريكة صغيرة مختلفة عن بقية الطاولات. جلست مقابل جين يغمرني شعور بالراحة.
-ماذا ترغبين أن تأكلي؟
-قليلًا من لحم العجل والبطاطا.
-وماذا بعد؟
-آه، لا شيء أكثر، لا أحب أن آكل كثيرًا مرة واحدة.
اقتربت منا امرأة شقراء ملونة وبدينة، دونت طلبنا على ورقة ملطخة ببقع بالزيت قائمة طلبنا الصغير برصانة بالغة، كأنها لم تكن تثق بذاكرتها، التي بلا شك كانت ممتلئة.
-معذرة-قالت جين بغتة وقد تغيرت تعابير وجهها-، أشعر بفضول كبير لأعرف كيف كانت حياتك حتى اللحظة.
اتكأت إلى الوراء في مقعدي وقد صعقت، بعد أن تأملتها للحظة قلت وأنا انحني إلى الأمام:
-أؤكد لك أنها لم تكن ممتعة كثيرًا، إذا نظرت إلى الوراء لن أجد فيه أدنى أثر.
أقترب منا كلبان، تبرق من عينيها نظرات، اعتذرت وأنا انظر إليها:
-أشعر بالتوتر وأنا أتكلم والكلبان أمامي، لديهما نظرة ذكية كأنهما يفهمان كل شيء.
ركلت أحدهما فهرب خائفًا يهز ذنبه ثم تبعه الآخر.
-حسنا أنت الآن حرة من المخاوف الطائشة.
وضعت ساعديها الناعمين المذهلين فوق الطاولة وشبكت أصابع يديها. توهجت في اصبعها حجارة مدورة من ماس براق، أطرقت ساهما للحظة فنظراتها كانت تستفزني.
-لقد أمضيت حياتي بطريقة بسيطة.
-هل لديك أبوان؟
-لا، وأنت؟
-لدي والدي، لكن ماهي مبادئك؟

صمت مرة ثانية، ساد صمت ثقيل الوطأة.
-عادية بشكل لا يصدق....
وضعت ساعديها بشكل عمودي ووضعت ذقن وجهها البيضوي على راحتي يدها، تأملت ساعديها المكتنزين أذهلتني مرة أخرى وهي تلتفت إلى ذهولي.
-ألا تظن انه من المضجر أن نلخص الحياة بمفاهيم بسيطة بالرغْم سعتها؟
أحيانا يكون ضروريًا.
أجابت جين:
-الدين والأخلاق متطابقان
-في كل الحالات.
لاح من بين السياج كلب مجهول السلالة بنظرة غريبة غير معروفة، دنا برأسه مراقبًا وفي النهاية قرر أن يتقدم حتى اقترب مني وأخذ يشم الأرض.
-أنظري؟ -قلت لها-لقد أنكشف حديثنا للكلاب المجاورة. ولأنها سمعت من خلف السياج محادثتنا فستقصها على صاحبها هذه الليلة وهي تضحك.
هذه الكلاب ليس لها صاحب.
جاءت السيدة البدينة متكاسلة بشرشف ومناديل مربعة الشكل ووضعتها فوق الطاولة بعد أن طردت الكلب بركله قوية بقدمها، أطلق الحيوان عواء وغادرنا بسرعة وكأن شيطانا يطارده، وذهبت السيدة أيضا بخطى تثقيله ومتراخية.
-واصل كلامك.
حاولت أن أبدو ساهيا:
-ماذا كنا نتحدث؟
-عن المبادئ الأساسية.
-أها!

-كنت تقول إن سلوكك أتبع دوما مبادئ أساسية لأنك تعتبرها لا غنى عنها.
-وأنت أليس كذلك؟
-لا، بل في بعض الجوانب، فيما عدا ذلك أجد في العيش متعة لما هو آت.
-أنه أمر محفوف بالمخاطر.
-ليس كما تظنينني، وأنت، ألم يكن لك أبدا مبادئك؟
-نعم لكنني خنتها.
ساد صمت، مرة أخرى، انتبهت لأول مرة في الأيام الأخيرة أنني بدأت أخون نفسي ومبادئي، خالجني شعور غريب كأن ضبابًا في ذهني، يتمتم بشيء غير مفهوم. بعدها بادرت موضحًا:
-نعم ذات مرة.
-ألا تشعر في هذه اللحظات بشعور من الراحة؟
تولد لدي انطباع أن جين كانت تتسلى معي وأنها ترى ما في ذهني من خلال عيني بجلاء ووضوح.
-أعترف بنعم.
-ألا ترى ذلك؟ فالمبادئ ليست أساسية وتؤدي فقط للحزن.
-لكن...
ظهر كلب أخر بقربنا من دون أن نحدد من أين جاء، ضحكت جين وبسطت مرة أخرى ساعديها العاريين والرائعين فوق الشرشف، ثم لعبت للحظة بخاتمها.
-قد تولد عندي انطباع بأن الكلاب تنظم حياتها وفق مبادئها. ألا ترين نظرتها الحزينة؟
نبح كلب من خلف السياج فضحكت.
-من هنا يجيب نعم.
دخلت السيدة وهي تحمل طعامنا فوق صينية خشبية.
-اللحم للسيدة، أليس كذلك؟

كأنها استغربت لما نفينا ما رددناه، فنم تعبير فمها عن استياء كمن يبرئ نفسه بلا شروط من أجل فكرة خرقاء.
-المعذرة...
وضعت أطباق الطعام فوق الطاولة، طردت الكلب الآخر بركلة ثم أضافت:
- سأجلب لكما للتحلية فاكهة يا سادتي، جيد؟
-نعم...
ثم ذهبت.
-قليلًا من النبيذ؟ -قلت لها
-حسنا.
هذه الكلاب ليس لها صاحب.
جاءت السيدة البدينة متكاسلة بشرشف ومناديل مربعة الشكل ووضعتها فوق الطاولة بعد أن طردت الكلب بركله قوية بقدمها، أطلق الحيوان عواء وغادرنا بسرعة وكأن شيطانا يطارده، وذهبت السيدة أيضا بخطى تثقيله ومتراخية.
-واصل كلامك.
حاولت أن أبدو ساهيا:
-ماذا كنا نتحدث؟
-عن المبادئ الأساسية.
-أها!
-كنت تقول إن سلوكك أتبع دوما مبادئ أساسية لأنك تعتبرها لا غنى عنها.
-وأنت أليس كذلك؟
-لا، بل في بعض الجوانب، فيما عدا ذلك أجد في العيش متعة لما هو آت.
-أنه أمر محفوف بالمخاطر.
-ليس كما تظنينني، وأنت، ألم يكن لك أبدا مبادئك؟
-نعم لكنني خنتها.

ساد صمت، مرة أخرى، انتبهت لأول مرة في الأيام الأخيرة أنني بدأت أخون نفسي ومبادئي، خالجني شعور غريب كأن ضبابًا في ذهني، يتمتم بشيء غير مفهوم. بعدها بادرت موضحًا:
-نعم ذات مرة.
-ألا تشعر في هذه اللحظات بشعور من الراحة؟
تولد لدي انطباع أن جين كانت تتسلى معي وأنها ترى ما في ذهني من خلال عيني بجلاء ووضوح.
-أعترف بنعم.
-ألا ترى ذلك؟ فالمبادئ ليست أساسية وتؤدي فقط للحزن.
-لكن...
ظهر كلب أخر بقربنا من دون أن نحدد من أين جاء، ضحكت جين وبسطت مرة أخرى ساعديها العاريين والرائعين فوق الشرشف، ثم لعبت للحظة بخاتمها.
-قد تولد عندي انطباع بأن الكلاب تنظم حياتها وفق مبادئها. ألا ترين نظرتها الحزينة؟
نبح كلب من خلف السياج فضحكت.
-من هنا يجيب نعم.
دخلت السيدة وهي تحمل طعامنا فوق صينية خشبية.
-اللحم للسيدة، أليس كذلك؟
كأنها استغربت لما نفينا ما رددناه، فنم تعبير فمها عن استياء كمن يبرئ نفسه بلا شروط من أجل فكرة خرقاء.
-المعذرة...
وضعت أطباق الطعام فوق الطاولة، طردت الكلب الآخر بركلة ثم أضافت:
- سأجلب لكما للتحلية فاكهة يا سادتي، جيد؟
-نعم...
ثم ذهبت.
-قليلًا من النبيذ؟ -قلت لها

-حسنا.
-ألا يعجبك؟
-بعضا منه، يسرني أن اشعر بكأس منه داخل معدتي.
أكلنا، كنت أختلس النظر معجبًا لتلاعب ساعديها الناعمين لما تستعمل أدوات المائدة: تنبعث منهما هالة مشعة فتمنحها مظهرا كشيء بعيد المنال.
لما فرغنا من طعامنا أوقدنا السجائر، حينها لحت على خاطري فكرة الالتزام بواجبي وكأي شخص رائق البال، عندما يتطلب منه الأمر التزامات لا مفر منها تجاه المركب، بلغت جين، فأبدت رغبتها أيضا بالمغادرة، وعلى قارعة الطريق ركبنا الحافلة مرة أخرى، بدأت الشمس بالمغيب في الأعالي، وبدأنا نشعر بضوضاء المدينة، ساد الصمت بيننا.
-أين تتوقف هذه الحافلة؟
-تصل حتى الميناء.
سادت الصمت مرة أخرى، فراقي لها كان يؤرقني كلوح رمادي، يحز في نفسي أن أقول وداعا لجين ولربما إلى الأبد
-أنظر هنا سننزل....
ترجلنا وحمى الميناء كأمواج من النشاط، ضوضاء الرافعات والصافرات والصرخات وأزيز آلاف المحركات، في النهاية على رصيف أول الميناء كان يرقد مركب آنتراثيتا، مدت لي جين يدها.
-متى سنلتقي مرة أخرى؟
وبغتة انتعشت نفسي، صوت من داخلي أجاب مؤكدًا: "مطلقًا" لكن شفتي نطقت:
-غدا، ألا يسرك هذا؟
والتقينا في اليوم الثاني، والذي تلاه والذي بعده وبعده... ثم بدأنا مرحلة تبادل الثقة وعقد علاقة حميمية. ذات مساء في ظلام السينما قالت لي جين:
وأنت ألم تحب أبدأ؟
-لم أكن أستطيع ذلك؟ -اجبتها.

وتركنا الأيام تتداول متناظرة حية ومبهجة، كنت مأسورا بقوة مجهولة لم أستطع أن أحل لغزها... بل لم أسع حتى بتوقع المستقبل ولا أن أربط حاضري بسنوات الدراسة في أبيلا، لربما كنت أشعر بخطر بعيد يحدق بي، لكنه كان كسلا روحيًا، بعدها تركت نفسي لأن تحمل بكلتا يدي حالة اللاوعي الوديعة والهادئة من دون أبداء الأسباب أو التكهن بتأثيرها، كانت حالة محايدة ورائقة رفعت سعادتي إلى أعلى الدرجات.

أنها حالة عدم اكتراث بالمبادئ التي تميز سلوكي دائمًا لكنها تلاشت ذات ليلة، لما عثرت وأنا في غرفة قيادتي، بالسفينة الحربية القديمة السجينة لأبن صاحب السفينة السابق، نسيتها منذ أسبوعين في جوف خزان ملابسي. لما رايتها أمامي وبخت نفسي بسبب تصرفي في اليومين المنصرمين.
"جئت إلى هنا متذرعًا بمركب الحمولة-لكنني لم أستطع أن أبارح من دون تمزيق الغلاف الذي يسجنني، أو من دون أن أمزق نفسي لكن في هذه الحالة الغلاف سيفقد كل مضمونه بسبب أصالة تكوينه ليتحول إلى شيء غير مجد وبلا قيمة. ألا تتذكر أنك كنت مثلي سابقا؟ "
رد فعل مماثل يراودني كحلم، فتحت عيني فألفيت نفسي كما كنت قبل خمسة عشر يومًا.
كأن صمت السفينة الحربية داخل الزجاجة يلومني فكان نقطة لانطلاق كل النتائج المتعاقبة التي دفعتني لأشعر بالخطر الذي أغرقني به إهمالي.
حتى هذه اللحظة وبعد مضي خمسة عشر يومًا كانت حياتي قلقة، مندون أن أحلل البواعث التي من شأنها أن أحدثت تغيرا نفسيًا ينبض في داخلي. انتبهت هذه الليلة وأنا اقف أمام السفينة الحربية السجينة أنني على مدى أسبوعين وليت ظهري لمبادئي، الآن اشد ما يقلقني هو أنني عشقت جين بقوة رجل بالغ، هذا الحدث الأخير لما اعترفت به لنفسي سبب لي اضطرابًا لاذعًا ومباغتًا، لقد عشت تلك الأيام تحت وطأة تأثير منوم، مستثمرًا الحاضر من دون أن أهدأ لما هو قادم، غير مدرك للخطر المتوقع.
لما اعترفت لنفسي بالحقيقة المؤلمة شعرت بمفاجأة كبيرة وكأن واقع المسالة الذي أثر بي كان من شأن شخص آخر أعرفه، أغلق الآن القوسين التي فتحتها مساء حين أنقاذ اليخت وكل ما تبقى بيننا من

أحداث كانت كالحلم لا يصدق أو كخيال آبق نحو حقول سخيفة النفوذ. أكاد لا أصدق ما حدث، يستحيل أن أقبل بان أراداتي المتوترة والمتأهبة على مدى سنوات قد انثنت لأول صدمة بقشة هشه من جرّاءِ نفحة ريح متهورة، كنت أرغب في اكتشاف أسباب ذلك الفشل، استرجعت أعمالي الأخيرة لاستقرئ منها الأسباب العادية لسلوكي المنصاع والمتكرر في الأسبوعين المنصرمين.
في النهاية وجدت توضيحًا منطقيًا: أنا قاومت في كل الأحوال هجومًا عنيفًا، لكن نزعت عني أسلحتي بسبب البساطة الساذجة التي تصرفنا بها أنا وجين. لقد تغلغلت جين في أعماقي كنور القمر أو رثاء البحر تلقائيًا دون أن نبحث عنها، فالمبادئ التي تقيد سلوكي لم تأخذ بالحسبان لعبت الصدفة، ومن هنا لعبت الصدفة خدعة غير متوقعة، يخت على غير هدى وزورق صغير أو حربة صيد... فتقيد قلبي بسلاسل اليخت تلقائيًا ليدخل في طاعته، وبعد لقاءات عادية وبرفقة الطبيعة والمدينة وصوتها وذلكما الساعدين الناعمين المكتنزين والمؤرقين، والبقية جاءت لوحدها، كانت جذابة وبريئة وحنون بالفطرة، بالنسبة لي كانت المرأة الوحيدة التي تعاملت معها، ومن الغريب أنها الوحيدة التي وجدت بهيئتها تلخيصًا لكل المفاتن المطلوبة. أنظر للسفينة الحربية من خلال زجاج القنينة: "لا أستطيع أن أخرج من دون أن أمزق غلاف سجني."
كان صوت السفينة مطابقًا للصوت الراسخ في أعماق صدري، وهواجسي لا تمهلني من دون أن تهشمني ببساطة إلى ألف قطعة، أو أن تمزق نسيجي الداخلي، لكن في هذه الحالة سأضحي بالتالي بنفسي وبسبب وجودي واستعيض عنه بالزمن.
ثمة أندار ينبهني بما تغير في داخلي خلال بضع ساعات، فهمت سهولة الامتناع عن شهية مفتوحة، من اليسير أن نقول "لا أريد تناوله" حينما لا يوجد شيء يجذبنا نحوه، الآن أختلف كل شيء، يوجد أمر اقتضى التخلي عنه، القرار المجرد وغير المحدد الذي اتخذته قبل عشرين عاما، تحول بغتة إلى كائن مرغوب بعد أن كنت أتعامل معه فيما مضى بسلبية. في بعض المناسبات وخلال لقاءاتي مع جين،

ساورني قلق مبهم من أن أفقد واجبا أساسيًا، لكن عقلي الباطن نبهني بطريقة مبهمة ليقنعني أنها هذا هو صنف الحياة الذي أحتاج أليه، فهذه مغامرة عرضية جاءت بلا جذور وبلا روابط، وبكامل حريتي المنتعشة والأصيلة.
لكنني نفيتها من عقلي الباطن إزاء السفينة السجينة متأثرًا برغبتي، لقد سلكت دربا مغلوطًا فالمشاعر الحساسة في هذه الحالة قد تقطع مصدر العملية، وتقص التطور الذي تتبلور فيه باللحظة نفسها الذي يبدأ يتبلور بها.
كنت أنظر إلى السفينة من خلال الزجاج، أنظر إليها باهتمام فأمسك بالقنينة من طرفيها مستجمعًا أصابعي، ثم أقلبها ثم أكررها وأكررها.... دائمًا الشيء نفسه! دائمًا أكرر الشيء نفسه! لم يكن هناك حل رزين ومتعقل، فتبقى الأمور كما كانت في نقطة هالكة خاملة، من دون أن تتقدم إلى الأمام أو تعود إلى الوراء...
تذكرت في تلك اللحظة خيال السيد ليسمس الهزيل، وشعر الفريدو الأشقر المتوهج. "من البديهي يجب أن تقدم التنازلات -قلت في نفسي- الموضوع هو أنك لا تستطيع أن تحتضن الحياة من دون أن تفقد نفسك". قفزت إلى مخيلتي الساحة المستطيلة الشكل التي كانت ملعبًا لطفولتنا، والبيت القديم الأصفر اللون يمثل هناك كالأفطس والأعمى، يغلق أحد جوانب الساحة، وفي الكوة التي تضم أربعة محاربين: اثنين منتصرين وأثنين منهزمين. فكرت أن ذلك العمل الفني الصغير البدائي جسد مفهوم الحياة." فالحياة تضم منتصرين ومهزومين-قلت في نفسي- المنتصرين والذين لا يقوون أو لا يتجرؤون على الانتصار. "كلنا نولد ولدينا مواقف واستعداد... بعضهم يهرول محمومًا كالخيول، وبعضهم يجول العالم على ركبتيه ذليلًا وعلى معصميه مسلوخًا كما طوابير الخيول..." لكنني فكرت بحزم "كل شيء يجب أن ينتهي قبل الأوان"، تهيأت لأخرج وأستنشق النسيم.
وعدتني جين أنها ستعرج علي لنذهب إلى الميناء بسياراتها في الصباح التالي، بعد تأملاتي في الليلة السابقة أدركت أن هذا يجب أن يكون لقاؤنا

الأخير، يجب أن أوقف الأشياء قبل أن تقبل الغريزة على نهاية غير محمودة، وفق فهمي للحياة وللعالم، بعد ذلك سأكون برفقة جين وسأنهي صداقتنا بأقل عنف ممكن وأغلق هذه الدائرة أي سياق علاقتنا القصيرة بالحياة من دون حل مستمر. وجدتها تجلس بالسيارة تتصفح مجلة أزياء.
-أهلا! قالت لي لما رأتني ثم رمت بالمجلة إلى المقعد الحلفي.
جلست إلى جانبها وهي شغلت محرك السيارة مباشرة.
-هل نذهب إلى المتنزه؟
سرنا في شوارع رشت للتو، بين صف من السيارات مختلفة اللون والشكل، كانت جين تقود بهدوء وبلا اندفاع ومن دون أن تشوه تقلص عضلاتها تجعل ساعديها الرشيقين المتناغمين.
بغتة استدارت ودخلنا شارعًا غير مطروق سمح لها أن تزيد السرعة، على الرغْم أنه أطول لكننا سنصل من دون أن نشعر بإجهاد.
-أنها طريقة معروفة... للجميع.
-يعجبك الالتفاف حتى نصل إلى النهاية؟
أو أن نتخلى عن تلك النهاية إذا كانت العوائق كثيرة. نظرت إلى بلهجة غريبة، فيما ظلت عيناي مسمرتين بجمال وامتلاء ساعديها....
-أحذر!
بدت جين فتاة دلوعة
-الأطفال خطرون...-قالت.
-تظنين ذلك؟
-أكثر من الكلاب.
ضحكت ثم أضافت:
-يعجبك الأطفال؟
-لا أعرفهم، تعاملت معهم عندما كنت صغيرًا وأعترف أنهم لا يعجبوني كثيرًا...
-لابد أنك كنت طفلا محبوبًا.
-أي وصف إلا هذا.

أركنت جين السيارة في موقف جانبي للمتنزه ثم ترجلنا حيث أورقت الأشجار على هذا الجانب لتتغذى من خصوبة أرض خيرة، على مبعدة منا امتزجت نهايات الأشجار: شجر الحور وشجر الموز ورطوبة زهرة المنغوليا اللامعة، كانت الأرض قد سقيت حديثًا، فتنطلق منها ابخرة ساخنة لطيفة، من بين الصخور تنبع أزاهير غزيرة بمجاميع متنافرة: اللون الأبيض لزهور البتونيا بنعومتها المتواضعة، والأصفر الداكن يتوسط داخله اللون الذهبي، وزهرة المارغريتا المدورة الدائخة، وشقائق النعمان والروز والقرنفل و....
تقدمنا في المتنزه كان خاليًا حتى اللحظة، بضعة أولاد يلعبون في الممرات ويطلقون الصرخات، أو ثمة طفل يرقد في عربة تدفعها أمه. وأنتشر على المقاعد ثلاثة أو أربعة شيوخ يستمتعون بأشعة الشمس المتسللة من بين أوراق الأشجار بحثا عن دفء لعل دمائهم المتجمدة تجري في شرايين أقدامهم المتحجرة. سرنا رويدا في ممر طويل، وعند نهايته انحرفنا إلى ممر يقود إلى منطقة في المتنزه كنا نفضلها.
-هيا لنجلس.
أمام مقعدنا، من خلال جمة أشجار كثيفة، ظهر من خلال الأوراق أقدام تمثال روجر وليامس.
-مسكين وليامس لقد قطعنا رأسه!
-ألا تظنين ذلك، لقد فقد رأسه بمجرد تأمل أثار العمل العظيم...- قلت.
-هل تعرف تأريخ روجر وليامس؟
إلتفت جين إلى الوراء ومكثت لبرهة ساكنة تنظر إلى أوراق الأشجار.
-هذا أكثر شيء أراحني عمله طيلة حياتك.
سأتظاهر لجين أن مهمتي في ذلك الصباح كانت تعتريها الصعوبات، لكن قراري في إنهاء لقاءتنا أخذ يضعف كلما مرّ الوقت. "تناولنا الطعام معًا-فكرت-ولما فرغنا منه تجرأت على الحديث."
-هل تعلمين أن ويليامس كان منفيًا من قبل ماساتوجس؟

فكرت بأن جين لم تكن تفكر بوليامس في تلك اللحظة، فالحديث عن وليامس كأنه حديث عن أمر آخر لكي تسلي انتباهي عن أفكارها الحقيقية.
-أنت لم تكوني تفكرين بوليامس.
-وما يهم ما كنت أفكر به!
جوابها كان سريعًا وموجزا وقاطعا، صمت متعجبًا وأنا انظر إليها.
-ما الذي حدث لك؟
-ولم يجب أن يكون قد حدث لي شيئ؟ لم يحدث لي شيئا، أنا بحالة جيدة.
ساد صمت عميق، تناهى إلينا من بعيد صوت أحد حيوانات الحديقة. لقد تغير موقف جين كليا، أخذت تتصرف الآن كمخلوق جريح، هل تكهنت أنها آخر نزهة لنا؟ لعقت شفتي الجافتين بلساني، وهي مكثت ساهمة تتأمل حفيف الأوراق فوقنا. لما رفعت رأسها فيما بعد عادت تعابيرها طبيعية من جديد.
-أعذرني، أحيانا أفكر بأشياء تافهة.
-بوليامس روجر؟
قامت بحركة طريفة بيدها:
-لربما أمر يتعلق بوليامس روجر، لقد كان رجل دين، أليس كذلك؟
تولدت لدي قناعة أن في داخل جين شاشة تخفي بها مشاعرها، قفزت جين بغتة:
-أنت سترحل يومًا ما، أليس كذلك؟
-أنها الضرورة.
سمرّت ناظريها في عيوني فأغمضت عيني، وشعرت بوخز مؤلم في حدقتي عيني.
-بالرغم أنه ليس من الضروري أن تذهب ذات يوم، أليس كذلك؟
شعرت بارتباك شديد، صوتها برغم نعومته بدا لي فيه نغمة قاض، لم أكن أعرف أين قرأت تلك الفتاة قرارات رغبتي. نهضت قافزًا.
-هيا بنا، اليوم أريد أن أتناول الطعام معك.

نهضت منقادة لي، وسارت بجانبي حتى المخرج.
هل نذهب إلى المطعم الصغير.... ألا يسرك ذلك.
لم تجب، تعطرت ظلال الممرات بأزاهير البتونيا والروز والقرنفل، كانت الأرض مبللة ورائحتها تمتزج بضوع الأزاهير فولدت مزيجًا من مذاق منعش للورود المستحمة.
صعدنا السيارة، كانت جين تحدق في ناظري وابتسامتها ترسم غمازتين على خديها، أمسكت المقود.
-هل نذهب مباشرة...أو نقوم بجولة؟
-نقوم بجولة.
انطلقت السيارة بتؤدة، وبغتة انتبهت أننا نسير على الشريط الرمادي لطريق الساحل، اندفعت جين بالسيارة قليلًا إلى الأمام ثم وقفت عند سياج المطعم الصغير. هذه المرة لم يكن مزدحمًا أيضا، باستثناء عدد الكلاب المتسولة التي تضاعف عددها، قالت لي جين لما رأت سرب الكلاب:
-أليس هذا المكان يناسب لحظة حميمية.
-أؤيد نظريتك، بالضبط.
ومن دون أن نتناقش قصدنا الطاولة نفسها لما جئنا أول مرة. اقتربت منا السيدة الشقراء وكتبت طلبنا كما في المرة السابقة، وكأنها تؤدي طقسًا صارما.
-حسنا؟
تبادلنا النظرات بشكل متحفظ، أقترب منا كلب.
-اليوم يجب ألا نعير اهتمامًا لهذه الحيوانات- قلت.
-و....هل تهمنا حقا؟
-تربكنا قليلًا.
نهضت لأغير كرسي جين الذي كان يرتج.
-هذا أفضل منه.
ملأت السيدة الشقراء كؤوسنا بنبيذ رقراق، فرفعت جين ساعدها الجميل لتحمل الكأس بيدها.

-بصحة فكرتك الرائعة.
شربت ثم شربنا كلانا ثم ملئت الكؤوس مجددًا حتى طفحت.
-أية فكرة؟
بدت جين متحفظة وسارحة بنظراتها في المتنزه.
-ستنتهي علاقتنا بالمكان نفسه الذي بدأت منه، أنه حقا أمر شاعري. أن كتبوا عنا ذات يوم قصيدة فلن تكون كلامًا معهودًا.
شعرت بإحساس غريب، شيء ما وكأن جسدي أمسى خاويًا من محتواه بغتة، أمسكت حافة الطاولة منزعجًا.
-هكذا هي الأمور... أقسم لك! -قلت بصوت كأنه يأتي من وراء السياج.
عادت المرأة التي تقوم على خدمتنا ووضعت الطعام فوق طاولتنا.
-اللحم للسيد، أليس كذلك؟
-لا، للسيدة.
-آه أعتذر....
ولما ذهبت تأسفت لذهابها، كنت أخشى من جلاء الموقف، بالرغْم أن جين كانت تدرك نواياي، تناولت الكأس ثم ملأتها من جديد، كانت جين ترمقني بأعذب نظراتها.
-هل تعلم؟ قرارتك تتوهج منك كأنك من زجاج، كأنك طفل.... – قالت لي.
"كأنك من زجاج." كانت تنظر إلى ما في داخلي كما السفينة داخل الزجاجة، شعرت بإحساس من التذمر. كأنني عار ومجرد من الملابس وشفاف.... أنه لأمر عجيب! أحساس رهيب بنكران الجميل! تلمست بأصابع متشنجة عظام جسدي ثم نقرت مفاصلي. أيكون هذا حقا؟ أحقا أن جسدي شفافًا مثل الزجاج؟ لقد نظرت إلي جين بتعبير مرعب ونظرة عميقة. سمعت صوتي يائسًا، صوتا خشنا معدنيًا....
-أنظري إلي يا جين، انظري إلي! هل تظنين حقا أنني مجنون؟
-اصمت!
-لماذا اصمت؟
-أنت تخيفني.

-أخيفك؟ نعم...نعم...نعم...
أنا من كنت سأضحك من دون رغبة، تناهى إلي صوتي وكأنه من خلف السياج أو من الحقل أو من الأرض، أو كمن تتلوى أحشاؤه من قهقهة مشؤومة، وقفت وواصلت ضحكي، بلا توقف ولا حياء، لقد تملكني شك مطلق إلى أي مدى قد أكون موجودًا أو لا أكون، أمعن النظر بعيني كلبين لونهما بني، أحدهما أخذ ينبح مفزوعا.
-خوف؟ نعم...نعم...نعم...
بينما انكمشت جين على نفسها كرد فعل غريزي دفاعًا عن النفس.
-لماذا أخيفك؟ ألا ترين أنني كائن مسالم وآدمي جبان؟
جاءت جين صوبي ووضعت يدها فوق كتفي، لقد استعادت قوة إرادتها.
-تعال واجلس إلى جانبي... لن تخفيني، هل تعرف أنني أحبك؟
ارتخت أعصابي وعضلاتي، فأمست خائرة وفاترة، فجلست وأنا ألهث والتقط أنفاسي بصعوبة، شعرت بنعومة يد جين على جبهتي، فشعرت أن جسدي برمته يبحث عن توازن واستقرار...
لقد مرت لحظة المحنة، بعدها اعتراني حياء متنام بسبب سلوكي، فكل ارتيابي السحيق في اللحظة المنصرمة تحول إلى شعور غائم وتافه ومشين.
-هيا بنا، هل تريد المغادرة؟
-هيا بنا.
سرت مذهولًا بينما شبكت جين ذراعها من دون أن انتبه إليها، وحين مررنا نظر رواد المطعم القليلون إلينا شزرا، حاولت بالسيارة أن أجد مبررًا:
- جين ألم ينتابك شعورًا متناقضًا بين ما تريدينه من أعماق روحك وما يمليه عليك واجبك؟
-نعم.
-إذا يجب أن تفهميني.
ساد صمت.
-أذهبي بي حتى الميناء

تلاشى الشريط الرصاصي للطريق تحت هدير المحرك، تقاطعت الأشجار والبنايات معنا بسرعة لا تصدق. كانت جين تقود بسلاسة وبمهارة وساعداها لا يتحركان من على المقود أو تحركه.
ساعداها! لن أراهما أبدا، ستنسى مخيلتي ذات يوم ملامحها وتألق تفاصيلها....
دخلنا الميناء وأوقفت جين السيارة.
-حينذاك...
تأخرت قليلًا بالهبوط من السيارة، كنت أريد أن أملي عيني ومشاعري منها ومن عطرها ومن شكلها، مددت يدي إليها.
-وداعا جين.
وبحركة تلقائية انحنيت لأقبل بشرة ساعدها المتماسكة السمراء، لما رفعت بصري وجدتها جامدة مجروحة الكرامة.
-اعذريني-تمتمت وهبطت من السيارة.
بقيت أنظر إليها للحظة، كانت مستاءة ليس بسبب قبلتي بل بسبب سلوكي غير المبرر، انطلقت السيارة ثم تلاشت بعد مضي لحظات في خضم قفص الاتهام. لما سرت صوب مركبي شعرت كأن شفتي تتوقد جمرا بلهيب مجهول.

الفصل السابع

تركد المياه عادة عند سفح المنحدرات والسيول هادئة ولما يزول الخطر تبدو كأنها تتأمل ما حدث منذ لحظة مضت، حين رؤيتها تهوى بشكل متواصل من جديد، ستفكر كل قطرة:" هذه القوة تدفعني أنا كما البقية، عجبا! من رآني ومن يراني." شيء من هذا القبيل حصل لي حينما انفصلت عن جين.

ركدت أيضا وركدت ثم تأملت: "أي اندفاع حثني بالأمس وأي سكينة لا مبالية وخائفة أخزتني بالأمس". أحقا أن ذلك الشرخ الحاد الذي قطع أتصالي رميت به إلى الخارج، تركني مكسور الجناح مشتتًا من الداخل.

لما عزمنا العودة إلى إسبانيا تحدد موقفي إزاء الحياة، الآن لن أحتاج أن أتخلى عن كل روابطي القلبية، بل مجرد أن أرفض جين، أدرك أنها كانت عكس البقية ولا تدرج ضمن ما هو محصن في نفسي، لأن جاذبية جين كانت تفوق كل المحاولات التي حفرت في داخلي، تلقائيًا كنت استحضر صورتها وفطنتها الحادة ومعنى حوارنا.... هاجسي بها كان ينتهي دوما بساعديها السمراوين الناعمين كأنهما منحوتة متقنة.

بدأت في تلك الأيام أعمق علاقتي بلويس بوليا، اقتنعت حينها أن المشاعر لا يمكن أن تبتر بغتة كما كنت أظن، لكن استرضاءها يتطلب فترة زمنية لا تحول عنها بسلاسة، أنا كنت احتاج إلى صمام ودي، صمام تهرب من خلاله تلك المادة الغامضة التي يفرزها أحيانا القلب وتسمى التأثير.

وجدت في لويس بوليا صديقًا كاملًا، صداقة احتاجها ولا أرفضها لسببين: الحاجة الحتمية لحافز خارجي والوعي بأن هذه صداقة عابرة، كان بوليا قبل كل شيء رجلا متفهمًا، وفي المرتبة الثانية أنه من هؤلاء الرجال الذين يجدون الحياة كالابتسامة والمسير تحت ظلها كجولة محبوبة مرغوبة، أنه نقيضي، لقد تعرفت على بوليا، من دون أن أسعى إليه، في العام الأخير من الذين قابلتهم في المدرسة البحرية في

برشلونه، ابتدأ حينذاك دراسته وأنا كنت في المرحلة النهائية، لكن بوليا درس لشغفه بالبحر وولعه به، كان رجلا غنيا، لما أنتهى من دراسته ضاعف ثروته بالزواج من امرأة لها وضعها، مستبدلًا فترة الدراسة العملية بشهر عسل طويل. بعد عامين عاد إلى البحر بعد أن شعر بندائه في نفسه، فقرر أن يكمل دراسته التطبيقية لكي يحصل على لقب قبطان، قبل زوجته قبلة الوداع ثم تلتها أخرى لابنته وذهب إلى البحر لفترة جيدة، لما أنهى دراسته عاد بوليا ليدرك أن ليس كل شيء في العالم له مذاق الماء المالح، أشتاق للحياة العائلية، حزم أمتعته مرة أخرى ليستمتع برفقة أمراته وابنته. لكن مثل كل الرجال الذي يعثرون في العالم كما حركة البندول، بعد أعوام قليلة فكر بوليا أن الحياة ليست مجرد أمرأه وأطفال، فمنح كل منهما قبلة، وأقلع ثانية وبالتحديد بمركب آنتراثيتا حيث كنت أنا القبطان.

وبسبب سلوكه المتردد، أكمل بوليا دراسته متأخرًا، وبعد الأحداث الأخيرة في بروبيدنثيا، تعمقت علاقتي بلويس بوليا، كما ذكرت، لدرجة أننا أصبحنا صديقين حقيقيين، صداقة من جهتي قد تكون أنانية ومقبولة، لكنها بالمقابل منحتني الثقة والنصح من قبله. أتذكر أن بعد تلك المقابلة في بروبدنثيا، سنحت لنا الفرصة أنا وبوليا لنلتقي ليلا بمفردنا على الجسر لأول مرة.

-يوجد غمام منخفض وهذا فأل سوء-قال لي وهو ينظر إلى السماء- وددت لو أنني أصل إلى أسبانيا بقفزة، لكن هذه الأيام لا تعد مع أيام الدراسة التطبيقية.

نظرت إليه مبتسمًا:

-لقد أخذت العائلة تتوسع من دون أن أنتبه أنني بدأت بالشيخوخة، وهو أمر لا يمكن علاجه-أضاف.

-هل تخاف الشيخوخة؟

لقد أقحم نفسه بمشكلة.

-ولم أخافها؟ فالشيخوخة أجمل فترات العمر، تحيطنا مرة أخرى بالذكريات التي نريد أن نحياها، لكن هذه المرة بلا ارتياب ولا اضطراب، لأن الماضي قد أنقضى.
مكثت برهة منتظرا، تناهى إلينا من غرفة القيادة همهمة عذبة لأغنية ينشدها صوتان، لقد أطلق العنان لأشواقهما إلى بروبيدنثيا. (كان للأغنية نغمة عذبة في أعالي البحار، وتحت ضوء النجوم الشارد.) تركتهم وشأنهم قبل أن أجيب بوليا، فالذكريات تعضنا أحيانا.
--مرات قليلة نتذكر أحداث حياتنا على أفضل وجه.
-وما هو السيء؟
- السيئ هو أن ننساه حينما يمضي، فالإنسان له ذاكرة متفائلة صوب الأشياء التي تخربشه. تصاعدت نغمات الأغنية في السماء كما حلقات الدخان، فأعجبت بالمشاعر المتميزة لكثير من الناس الجافة لما تغني بإحساس.
"بوليا محق-قلت في نفسي-للإنسان ذاكرة متفائلة صوب الأشياء التي تخربشه." الإنسان عامة، لذلك لا نجد للاستثناء مكانا في العالم ويجب تنويع الحياة وفق ما نريد. بوليا محق لما تكلم هكذا، لكنني لا أفتقر لهذا الأمر أيضا.
-فالانحراف السلوكي يعني أن طفلا ما أو شابا يعيش ذكرياته. أما أنا فقد انحرفت سلوكيا لو أنني واصلت على هذا النحو، بسبب خصوصيتي الغريبة: فالذكريات تحطمني بدلا من أن تحفزني.
- ولم هذا؟
-فمرحلة الطفولة والشباب هي التي تجتذب الذكريات.
- لكن الزمان يتسع كل الذكريات لكي نتذكرها.
- الحياة الموحدة ليس فيها ذكريات، لربما تمنحنا ذكرى واحدة بل قد لا تعطينا، لأن لحظة الحياة التي نريد تذكرها كمن يدخن دوما سجائر لف فهي مماثلة لهواجسنا. هل تريد أن تدخن؟
(هذه خصوصية أخرى لويس بوليا هو أنه يدخن سجائر لف لأنه يعوض عن اللحظة كما يحلو له بوجود السيجارة بين شفتيه.)

-لا شكرا، لأنها لا تعوضني.
فأبتسم.
-كما تشاء.
أشعل سيجارة وأحتفظ بعود الثقاب متقدًا حتى أفرغ من لف سيجارتي، فوصل اللهب إلى أصابعه حتى أنهيت مهمتي.
-اللعنة! - ورمى بها.
أشعل عودا آخر ورفع يده حتى أصبحت نار العود بمستوى وجهنا وعلى مسافة متساوية، فأنعكس لهبه في عيونه.
-الاحتفاظ به خطر-قلت.
-لا يهم!، أقصى ما سيحدث هو أننا نحرق أطراف أظافرنا.
بعد أن أشعلت سيجارتي نفخ بوليا على العود المتقد ليطفئه.
-حسب حجم النار-أضفت.
-لا أعرف لربما لأنني أمضيت حياتي أرى الماء في كل مكان، لكنني لا أخشى النار. لكن القبطان غير من لهجته فجأة-وثمة شيء آخر يا قبطان، لم لا تتزوج؟
انتابتني رجفة وقشعريرة.
-هل تعرف جين؟ - استفسر بصوت باهت.
-تعرفت عليها كما أنت تعرفت عليها في الليلة التي وصلنا بها إلى بروبيدنثيا، لماذا؟
-وبعدها؟
-تجولنا في المدينة بضع مرات.
(شعرت في داخلي بضغينة مؤقتة لم أفصح عنها ضد القبطان. بأي حق كشف عن هذه المسالة الشخصية جدا؟ هل طلبت جين منه المساعدة؟ لقد بدا لي التعرف على جين معضلة. لكن على أي أساس ارتكزت هذه الوقاحة؟ أنها حياتي الشخصية؟ هل يظن بوليا أنه يسدي لي معروفا؟ أو لربما سار في شوارع بروبيدنثيا ليتوقف بغتة لأنه التقى بجين وتحادثا، لم أستحسن فكرة أن لجين صداقة مع القبطان. وماذا دار بينهما من حديث؟ عن البحر أم عن اليخت أو عن بروبيدنثيا... أنها حماقة!

كيف لامرأة ذكية مثل جين أن تتحدث بتلك السفاهة؟
لكن يجب أن يدور بينهما حوار عن شيء ما "فهما نادرًا ما يلقيان التحية على بعضهما". لربما تحدثا عني، أزعجني هذا التفكير، وما لديهما من حديث مشترك عني؟ كان مجنونا؟ أو كان كما المجنون؟ محادثة لطيفة تجري من وراء الرجل! لكن لا يمكن أن يحدث هذا، ليس من المعقول أن جين تظن أنني مجنون بل وأكثر أنها لن تتحدث بذلك لأي شخص. ألم تفض لي إلى أي مدى تحبني؟ لعلها تحدثت مع بوليا من اجل أفناعي؟ يزعجني أن يتحدث شخصان بشفقة عني! ولا أظن أن جين بوسعها أن تستعطف أحدا من أجلي، فاستعطافها لي سيكون بشكل منفرد، وهذا أمر مختلف، فاسترضاؤها لي بنفسها كمداهنة المتعطش، لقد تبادلا التحية وليس أكثر، مؤكدًا أنهما تصافحا والقيا التحية على بعضهما، وهذا أمر آخر، بالرغْم أنني لا أحبذ فكرة أحد ما يمسك بيد جين، لم لا تلقي الناس التحية على بعضهم بأحناء الرأس؟ هل لأنهم يعبرون بشكل أفضل بالتلامس المتبادل؟ لماذا يلقي الرجلان المتخاصمان التحية على بعضهما؟ مما لاريب فيه أن شد اليد ما هو الا بقية ماض مبتذل همجي، أمر سوقي ومنفر، لكن بعد كل شيء ما الذي يعنيني أن مس أحدهم يد جين؟ هل أشعر بالغيرة؟ ضحكت من غبائي، الغيرة.... كلمة غبية لسلوك غبي، ألم تكن جين غير مرتبطة؟ أليس من المحتمل أنها خلال بضعة شهور ستكون على ذمة رجل آخر.
أنه تفكير ممقوت! بل يفوح برائحة نتنة، وأن وجد فهو عمل الشيطان! أتقزز منه...) هبت نفحة دخان لتبغ محروق نفحها بوليا أعادتني إلى الواقع، لم أعد أحمل غيضا ضد بوليا، كانت نرفزة عابرة، بل على العكس أنا ممنون له لأنه أتاح لي الفرصة للحديث عن جين وتذكيري بها، آه! الذكرى، أنا الآن أصبح عندي ذكرى، من الأفضل أن أنساها لكن.... التذكر لن يستنزف ثبات مبادئي، فأثارتها أمر مسموح به، أذا سأتكلم عن جين مع بوليا من دون أن أفرط بالحديث، ومن دون وضوح، كما أنه لا أحد يسره أن يحدثوه بأشيائه الشخصية.

-لقد سألتني عن سبب عزوفي عن الزواج، أليس كذلك؟ أبتسم بوليا ورمى بعقب سيجارته المنحوسة من غرفة القيادة:
ظننت أنك تحتاج وقتا لتأمل الموضوع-وقد فتح عينيه-تكلمت في نهاية الأمر.
-حسنا؟
-أولادنا سيصابون بقصر النظر.
-أبناء من؟
-أبناء جين وأنا.
-هل تحدثت مع جين؟
- لا تستدر-قلت – لنواصل إلى الأمام.
-أنت مولع بهذا؟
-أي شيء؟ -بذلك الزواج-وضحت.
-يسرني أن أجد الناس الذين أودهم يجترون الذكريات حينما تمسي حياتهم خاوية بلا نشاط...
-أه.... أنت كريم جدا لطالما كنت مزواجًا؟
-كلما هناك اهتمام خاص.
-هذا واضح.
-سنرى.
قام بحركة بأصابعه.
-كف عن المماطلة! - صرخ-أنت مولع بها، ويجب أن تتزوجها... أنت لا تقوى أن تمضي الحياة بمفردك لأنك تفتقد للتوازن.
ـــنعم فهمت...
-أنها مسألة تقييم بسيطة
-لقد فهمت، فضغط بأصابعه على ساعدي مما سبب لي ألما.
-أعرفها منذ زمن بعيد وأعلم ....
-هل أنت متأكد؟
-أنت تعمل كما يحلو لك لأنك تخشى الحياة.
أدهشني صدى سلبيتي الخاصة:

-لا!
شدني من ساعدي ودفعني إلى سور الجسر بسرعة، حدق بعيني طويلًا:
-نعم، فالخوف من الحياة سيمنعك أن تبلغ ما تصبو إليه.
كنا نقف على طرف الجسر، وكان صوت بوليا حادا مثل ضغط يديه ينم عن تعبير صلب.
حاولت أن أضحك
-لا لويس، أنت مخطئ.
-خوف من الحياة! - مرددًا.
-لا... بل على العكس.
-ماذا؟
-من الموت.
لم يتوقف عن ضغطه علي، بل بالمقابل خفض من صوته المختنق:
-كيف لي أن أفهم الأمر أنه الشيء نفسه، فالموت ليس ألا ظرف يقع في نهاية طرف الحياة.
نظرت له مستهزئًا:
-والحياة؟
-تحمل الموت.
-حسنا.
-أنهما نصفان لشيء واحد.
-حسنا.
خفف من ضغط أصابعه.
-لماذا لا تريد أن تفهمني؟
-أنت تملك القابلية لتسهيل أكثر الأمور تعقيدًا.
جرب! لما لا تتزوج؟
-سيكون لي أولاد مصابون بقصر النظر.
لم ترق له سخرية لهجتي، أفلت ساعدي وأدخل يديه في جيبه، أحيانا يصر الرجال على ضرب رؤوسهم بالجدار، أن حاولوا، عندما يستطيعون ضربها بسهولة.

-الجدار قد يكون للبعض راحة اليدين، وللبعض الآخر بلوغ السماء.
-أنه سراب.
-ربما.
- وكثيف
أبتعد عني أكثر، كانت أنفاسه متعبة، أدركت أن الجو كان خانقًا.
-سأذهب لأستريح بعض الوقت-قال لي-أتمنى ألا تصر على موقفك، فعظام الجمجمة قاسية، لكن أحيانا قد ينفتح الرأس.
هبط السلم وخطا بضع خطوات.
-قل لي... متى تحدثت مع جين بكل هذا.
-هه... أي شيء؟
-أين رأيت جين؟
-لقد سلمت عليها مرتين في بروبيدنثيا.
ثم اختفى في عتمة غرفة القيادة، شعرت بالتباس وارتباك! لماذا هذا الاجتهاد في عدم التحديد؟ لم تعد تسمع أغاني البحارين، لقد رقد الجميع، الجميع باستثناء قائد دفة السفينة السجين في قفصه الزجاجي، رايته يمر أمامي غير مبال، هل حقا أن جمجمتي شفافة كما غرفة القيادة؟ شفافة جدا إلى الحد أن الجميع يستطيعون أن يروا ما وراء خلف هذه العظام؟ أو أنه رد فعلي الطبيعي الذي يشد الانتباه فورًا حتى الذين لا ينتبهون إليه؟ أه، أي شخص معقد أنا من الداخل! تذكرت امرأة تعرفت عليها في أشترى منها عالم عظام كل هيكلها العظمي وهي على قيد الحياة ليفحصه بعد موتها. لقد كان عالم العظام متفائلًا في النهاية، لكن من يؤكد أن هذه المرأة المسكينة ستتضاعف مدة حياتها كما تضاعف طولها؟ " يجب أن تكون دواخلي -فكرت-مشابهة لتلك المرأة من الخارج." كنت على يقين أن كل تشوهاتي يمكن حفظها من دون تلوث في قنينة كحول، قد تعطي ضربة خفيفة للمحللين النفسيين للحصول عليها. يجب أن أرى مشاعري المشوهة المغلقة في القنينة! لابد أن شكلها كأخطبوط مجاسه ملتصقة، أنها رؤية مشمئزة أن ترى جرة في

داخلها أخطبوط! اللعنة مثل السفينة الحربية! مثلي، لماذا لا تكون مثلما يدور في ذهني؟

الفصل الثامن

دخلنا ذات صباح مشمش من شهر حزيران خليج سانتدير، كان الجو صافيا والنسيم منعشًا، لم يحل الصيف بعد في تلك المدينة، لكن شد انتباهنا البقع الداكنة لبشرات السباحين فوق الرمال الذهبية لساحل مجدولينا.

بالكاد يوجد ناس على المرفأ الذي ترسو عليه سفينتنا، كان مركبنا الأصغر حجما حينما نقوم برحلة ما وراء البحار ونحمل بضاعة تجارية فلا تكلفنا جهدا.

لوح لنا بعض أقارب البحارين الذين برفقتنا كانوا يلوحون بمناديلهم البيض في الهواء كتعبير عن استقبالنا، أثر تحليق المناديل قليلًا على مركبنا ولما رسا على الميناء ارتفع من عند الجسر ضجيج قبلات الاستقبال والعناق للترحيب بنا.

لم ار المدينة فارغة كما الآن، لما رسينا استطعت أن أتجول في الشوارع فصادفت عالما سلسا ولطيفا لكنه عار وأعزل حد الفزع، كأنني أتجول في أرض بور، بلا ورود ولا أثر للحوادث على مدى امتداد البصر.

بعد مرور أسبوع اختنقت من السماء الرصاصية للمدينة الفارغة، فاستلقيت القطار إلى مدينة بيلباو لمجرد تغيير الجو. كانت بيلباو تولد من جديد في واديها المنخفض بحيوية مضاعفة، تهزها حركة صناعية محمومة تتكهن بها في كل وجه يصادفك في الشارع، لقد تراص الجميع حول المصب، يعملون من أجل تعظيم المَدنيّة، لكنها لم تغيير شعوري بالوحدة التي انتابتني في سانتدير، برفقة الناس أو من دونهم مازلت أشعر بوهن نفسي، انتبهت إلى أن أعباء الروح مستقلة تمامًا عن الوسط المحيط بنا، فالمشهد الذي نتحرك به لن يتدخل بمناخنا الداخلي حين لا يخدر قوة إدراكنا قلق داخلي.

مكثت في بيلباو أربعة أيام، بينما بوليا كان ينتظرني في سانتدر ليأخذ اجازته، لكن الأمور سارت بطريقة مختلفة عما توقعنا، ثمة حدث مفاجئ اجبرني أن أرجئ عودتي يومين.

حدث ذلك في الليلة الأخيرة من أقامتي في بيلباو، كما جرت العادة خرجت من الفندق لتناول العشاء وقد غلبني النعاس لأتجول في شوارع المدينة، لم أكن أرغب أن آوي إلى الفراش قبل أن أشعر بالإنهاك، أنه أمر مماثل لنزاعاتي الذهنية، التي لا علاج لها، تزيد من ضعفي العصبي الذي كان يتطور من تلقاء نفسه، كرست جهدي لأن أطوف بأزقة مجهولة لدي، ضيقة ومعتمة، حيث تطل أحيانا شرفة صفت عليها أصص الجيرانيوم المبتسمة المنعشة وكادت أن تذبل. بينما تصببت من المزراب قطرات ماء كبيرة، فشعرت برطوبة المدينة المريحة وضبابها الذي تستنشقه رئتان مجهولتان.

تقدمت بسرعة أحاول أن أسرع بخطواتي، لكن في متاهة الأزقة المتشابهة والمتناظرة شعرت برغبة لأستريح وأتجنب الماء الذي بلغ حتى عظامي. عند الزاوية الأولى رأيت أربعة حروف فاتنة رصت لكي تشكل أسم المقهى، تأسفت لذلك المقهى المجهول الاسم، مجرد أسم بسيط ومجهول، وكأنه ملجأ لقطاء. لكن المطر اشتد والبناية التعيسة المزهوة اكتسبت لونا وزهوا فبدت خاوية من سماتها الأساسية، وبعدها داعبت طبلة أذني أصوات متناغمة لأوركسترا.

دفعت الباب الزجاجي الباهت ثم دخلت، كان المكان واسعا تفوح منه رائحة غير مستحبة للسيجار تختلط بقطع الدومينو، وضعت فوق الطاولات قطعة مرمر أبيض، كانت تمامًا خالية، ألا في الزوايا يتهامس بعض الأزواج متقاربين من بعضهم جدا وتعابيرهم تنم عن أنهما عشاق، كان دخولي غير مريح للجميع، في وسط الصالة، قريب من النضد، تمتد منصة يقف عليها ثلاثة يرتدون قمصانا صفرا يحاولون بجهد أن يناسقوا بين عزف آلتي الكمان والبيانو، أنه اللحن الحزين (لا بيخرانا).

بللني المطر قليلًا فجلست أمام الأوركسترا متكئًا على أريكة مبطنة بمخمل نبيذي اللون قديم. راقبت العازفين الثلاثة بإمعان، عازف البيانو الذي أدار ظهره، له نظرة غريبة من الصعب تحدديها. وعلى
جانبيه وقف عازفًا الكمان، يرتديان قميصين صفراوين جذابة ولافتة للنظر، و على بنطاليهما فوق ركبتيهما رقع واضحة للعيان وأحذيتهم جلدها متهرئ، بالرغم مما يرتدونه من أزياء فأن ألحانهم تخبر أنهم بالكاد تعينهم على العيش.
أقترب مني النادل وهو يضع منديلًا ابيض فوق كتفه، طلبت كونياك، بغتة أنهى الموسيقيون عرضهم، مكثت المراءة تنتظر، وإزاء صدى التصفيق للأزواج الأربعة في الصالة، عاودوا العزف مرة أخرى، طأطأ الرجلان لأخراج الكمان من الصندوق، ارتسمت بهجة على وجهيهما النحيلين لما بدا العزف، كنت أجهل المعزوفة التي بدأ بعزفها الثلاثة لكنني لم أكن أدري ما هو الشيء الذي بدا قريبا مني كدفئ عائلي. نهضت تلقائيًا من الأريكة غير المريحة واقتربت شيئا فشيئا من المنصة الخشبية، بعدها أدركت أنه كان أيفاعا مألوفًا لي، أنها الطريقة التفسيرية للعمل.
بدت لي كالذي يقرأ نثرا مجهولًا، لكنه يتيح لي أن أفحص الإيقاع الخاص كقراءة مشاعر أليفة، كان عازفًا الكمان يحدقان بي من عليّ بنظرات ثاقبة، ما زالت المرأة تدير ظهرها، ولما تهرب يدها إلى أقصى لوح المفاتيح أتمكن أن ألاحظها وأرى أصابعها الوردية الرشيقة، كأنها عشر سيقان أنثوية ترقص البالية. أناملها رقيقة تتوجها أظافر طليت بالأحمر تمتد بتكامل بديع، متكيفة لمطالب العزف، وتلقائيًا أخذت بالتدريج النوتات الموسيقية لعازفي الكمان تتصاعد، بينما هربت يد السيدة إلى آخر المفاتيح، فسبب هرجا موسيقيًا ينذر بالنتائج، شعرت بقشعريرة، شعرت بحاجة للصراخ، ثم ختموا إيقاع اللحن بنغمة حادة، سمعت أربع صفقات هزيلة جاءت من زوايا المكان المعتم، ثم أنهى العازفان عزفهما بوضع آلاتهما في علبة وكأن روح الآلات تكمن في آخر نوتاتها الموسيقية الساخطة و أغلقا عليها في هذا الصندوق، كقطعة

تابوت، كجسديهما الجامدين بلا روح، حافظت المرأة على هدوئها وظهرها مستقيم، كطفلة. هبط العازفان من المنصة الخشبية.
-مارتينا! -صرخت حينها.
التفتت المرأة ببطء وكأنها استنفرت ثم التفت إلي، طرقت عينيها للحظة وكأنها تريد أن تتغلغل إلى آخر أعماق روحي، رفعت ساعديها وأبرقت عينيها.
-بيدرو!
وبحركة عفوية ارتمت بين ساعدي وبكت،فأحتظنتها متأثرًا، فأدركت أنها المرة الأولى في حياتي أكون فيها أنسانا ذا جدوى كما ألآن.
شعرت أن حيوية المقهى الطفيفة قد جمعتنا، شبكت مارتينا من خصرها واخترت زاوية معتمة، سمعت من قريب ضحكة مؤذية، نظرت إلي مارتينا معاتبة، ما بين مبتسمة وباكية. انتبهت بعد برهة أننا كنا محور انتباه الزبائن القلائل، اعتدلت في جلستي.
-انتظر لحظة، بيدرو لنذهب إلى مكان آخر حيث يمكننا أن نتحدث بهدوء.
اقتربت من المنصة ثم عادت إلي وقد ارتدت البلوزة الصفراء وبلوزة حياكة.
-هيا بنا.
شبكت ساعدها في الشارع، انتبهت حينها أن مارتينا الصغيرة أصبحت شابة رائعة، لكن جمالها يشوبه تعب ظاهر.
-هنا عند الزاوية يوجد مقهى آخر، هل ندخل إليه؟
توقفت في وسط الشارع، لم تعد تمطر وكان الجو منعشًا.
-أن لم يكن لديك اعتراض-اكدت-نتحدث معًا ونحن نتجول بين الشوارع.
وافقتها، لما حدقت في ناظريها وجدت مرة أخرى أن الدموع تغشاها.
-أنا لعينة، هل تصدقني؟
هذه المرة أنا من توقف.
-ماذا تقصدين؟

-نعم، اتركني يا بيدرو، اتركني واقذفني إلى الشارع أن شئت لكنني ضعت...
كان الشارع خاليًا، من بعيد يتناهى إلينا صوت أنغام أكورديون كأنه رسالة معيبة خفية، بدا لي أن العالم الذي كان صديقي أخذ يتداعى وأنه بغتة اقتلعني من جذوري الخاصة بي، أما مارتينا فقد دفنت وجهها في صدري خجلة وأجهشت بالبكاء، استأنفنا مسيرنا، مازالت الشوارع خاملة وكئيبة في وسط الضباب، من حين لآخر تشاركنا ضحكة أو صوت غاضب ينطلق من النوافذ المفتوحة، كانت مارتينا تسير من دون أن يهتز لها جفن فشعرت أنها في الأعوام الأخيرة أنها تأقلمت على إيقاع ونغمة ذلك الجو الملتبس. كسرت مارتينا صمتها بسيل من الكلمات:
-لا اقوى على العيش هناك... من يمكنه أن يفعل ذلك؟ بيتي يا بيدرو، أتذكره؟ أمسى كالمقبرة بارد وصامت ورتيب، بلا أي حياة مثيرة، لم يكن هناك فرح ولا أوهام ولا شباب ولا حياة....
احنت راسها فوق صدري ثم كررت بكاءها المر الحزين، دخلنا زقاقًا تغمره رائحة مقيتة كأنها نفاية السردين، قاطع سيرنا رجل مخمور، رفعت مارتينا رأسها وهي تحاول أن تنظر في عيني وسط ذلك الظل الكئيب النتن.
-قل لي يا بيدرو لماذا والدي هكذا؟
الآن بدأت أفهم الآثار المروعة لزواج السيد ليسمس، لابد أن دون ماتيو قد واجه الحياة في حِل من كل التزام، أمثاله من الرجال ومثلي لا يحق لنا أن ندخل في السلسلة، يجب أن نكون على هامشها، وننتهي على أقصى طرفها، واصلت مارتينا من دون أن أجيبها:
-دمي مختلف عن دمهم! شعرت ذات يوم أن البيت كاد يهوي فوق رأسي، تولدت في داخلي رغبات معتدلة لأن أصرخ وأضحك عاليا، وأن أقول لأمي ما الذي نجنيه من ذلك الصمت المطبق والخانق والساحق....-صمتت للحظة- لكن اضطررت أن أتحمل، كان يجب أن أتحمل كل شيء بينما أنا أعيش في بيت والدي، هما كانا يفرضان

رغبتهما، هم انجبوني للحياة وأنا يجب علي طاعتهم، سواء كنت أبكي أو أضحك... ذات يوم...
مكثت مذهولة برهة، بدا عليها التأسف في البداية، بعد أن اومأت برأسها كمن يحاول أن يتجاهل فكرة مسيئة، ثم بادرت بالطريقة نفسها:
-ذات يوم تعرفت على فتى لما فرغت من إعطاء درس البيانو، أقترب مني قائلًا إنه في ذات يوم، حينذاك كان عمري ستة عشر عامًا، أخذ درسا مع أبي، رافقني حتى البيت،حينما ودعني أعطاني أسمه لكنه توسل بي ألا أبلغ والدي بما جرى، لأنهما كانا على طرفي نقيض في تفكيرهما، ولما غادر الاكاديمية حصل جدل قوي بين والده ووالدي، آراء متباينة في وجهات النظر.
من جديد سلكنا طريق مختلف، ثم زقاق ضيق، فيه عمارة تتكون من أربع شقق، واذا نظرت إلى الأعالي يمكنك أن ترى ممرًا يفضي إلى السماء تخرقها نجوم لامعة، وعلى الجانب الآخر من الزقاق مرّ زوجان متعانقان، ثم واصلت مارتينا:
ابتدأت تلك العلاقة السرية في ذلك اليوم، وقد تركت أثرا عميقًا على حياتي الرتيبة، بدت لي أنني أعيش مغامرة كما في رواية، حب مرفوض من قبل والدينا، وهذا ما يحدث دوما، كمناجاة عشاق مغرية، فكرت أن تقاطع الأفكار ما بين أبي وخواكين هو أمر فيه وجهة حق، وجهة نظر أبي كانت عامة كدرة ومظلمة، وهذا ما جعلني أشك أن أفكار خواكين ستكون من الطبيعي مناقضة لها أي شفافة ومتفائلة وشبابية.
توقفت مرة أخرى، وانتهزت مارتينا الفرصة لتبث تنهداتها، ثم واصلت:
أظن أن هذا المناخ من الغموض الذي يطوق علاقتنا أثر كثيرًا بمشاعر حبي الغبية، كنا نلتقي في ساعات غير مقبولة وفي أماكن مختلفة.... ارتميت في أحضان حبه بسذاجة ولم أسال نفسي من هو، وماذا يعمل، وفي أي شارع يعيش.... اكتفيت أن أعرف أنه لا يماثل أبي، واتفقت معه بهذه النقطة، غلطت حينما خيل لي أننا روحين متوازيتين يتكلم عن "عمله" بتجرد، "عمله" الذي يسير على ما يرام والذي يتطلب منه أن

يكون في مدريد بضع أيام، ولا يستطيع أن يراني لأنه مشغول بزبائنه.
ذات مساء كنا جالسين في ساحة كواترو بوستس وكأن المدينة المسورة تمتد تحت أقدامنا، قال لي أن "عمله" يسير على ما يرام، وأن اللحظة مناسبة لنفكر في زواجنا...
نظرت لي مارتينا وقد اغرورقت عيناها بالدموع:
-لقد طعنني في قلبي، لقد فاقت قدرة احتمالي. خواكين كان رجل حسن المظهر، فتشبثت به روحي بدأت باليوم التالي اطرز مناديل مستقبلنا خلسة، بعد مرور يومين كنت أريد أن أفاجأه بتقديم المناديل التي عملتها بيدي له، كانت خيبتي الأولى عندما أبدا عدم رضاه.
" نحن لا نستطيع أن نفعل كما الآخرين، مارتينا-قال لي-أريدك أن ترضي بهذا، سنتزوج من دون إشهار ومن دون موافقة والديك، لذلك كل ما تريدن عمله سيتم بعد زاوجنا وبمواردنا الخاصة."
صمت ولم أقل له شيئا، أظن أنه، بالرغْم عدم اكتراثه، قد جرحني من دون أن يشعر... بعد مرور شهر قال لي أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر ويريد أن يتزوج الأسبوع المقبل، نبهته أن والدي ليس لديهما شك في علاقتنا، وطلبت منه أن يعطيني وقتا لإقناعهما، أن كانا سيعارضان بشكل نهائي سنملك الحق في زواجنا ضد ارادتهم. أبدا غضبه. "وهل هذا ما نريده؟ -قال-هل علاقتك معي ستنتهي عند هذا الحد؟" اجتبه أنني على استعداد أن أصل معه حيث يريد بسبب حبي له، لكن من دون أن اقفز بل بخطوات طبيعية، أستشاط غضبا، وكوسيلة وحيدة لأثبت له ذلك سألني في حينها: " لو قلت لك أن الحل الوحيد هو أن نستقل القطار ونتزوج في مدريد أو في أي مكان آخر"، أجبته" لو أن الطرق الأخرى فشلت لن أعترض على قراره" أنت لا تحبيني-صفر غاضبا-أنت لا تعزمين الارتباط بي." " من الآن فصاعدًا-قررت-بسبب طريقتك الشاذة لا".
تخاصمنا وانقطعت عن اللقاء به لمدة أسبوعين، في تلك الخمسة عشر يومًا انتبهت أن كل شيء أفضل من أن أبقى حبيسة هذه الجدران المتقشفة، بيت والدي وروحي كانت متخاصمتان، ومتناقضتان بالتأكيد.

" بعد كل شيء-قات لنفسي-خواكين لم يطلب مني شيئا مخلًا بالأخلاق، بل فقط نتزوج من دون موافقة والدينا. وهذا الأمر ليس فيه غرابة حينما يشكل الوالدان جزءًا من الغرابة؟" أسفت لسلبيتي، ولما كنت أجهل عنوانه، يجب علي أن أحتمل مللي من دون أن أحرك ساكنا لكي اعالجه. ذات مساء التقيت به مصادفة، لما كنت عائدة إلى الدار، وجدت لديه النية ليقترب مني، لكنه وجد أنني أنا من يجب أن تبادر فاندفعت نحوه.

"أعذرني يا خواكين-قلت له-لقد ارتكبت حماقة.... أنا مؤمنة بك... أيمانا مطلقًا.... لنقم بكل شيء حينما أنت تريد." كنا قد دخلنا إحدى البوابات وقام هو بمسح دموعي بظهر يده، لا بد أن البوابة قد رأت تصرفنا البريء ومشاعرنا المسرفة، لكن-فكرت حينها-لابد أنها عانس حانقة.

"لنذهب إلى مكان آخر ونتشاور-همس متضايقًا-أنه منزل محافظ ولا يقبلون مثل هذه الأشياء." تظاهر خواكين بغضب شديد، أمر خدش حيائي، قال وهو برفقتي عبارات لاذعة، حتى أنني نسيت الهمة التي يتطلبها الدفاع المقدام عن شرفي". هربنا من هناك ونحن نشبك أيدينا فرحين، لما ودعني قال لي خواكين بعد أن قبلني للمرة الأولى: " بعد غد سنأخذ القطار إلى بيلباو وسنتزوج هناك." ثم قبلني مرة أخرى. شعرت كأن سكرة مجهولة سرت في جسدي من قمة رأسي حتى أخمص قدمي.

هذا يعني أنني سأتحرر إلى الأبد من ذلك المنزل المتعب، ومن البرد الكئيب الذي يرفرف بين جدرانه، أعترف لك يا بيدرو، أنني لم أشعر بأدنى أسف على مغادرته، شعرت أنه هو المسؤول عن مغادرتي له، طردته بسبب موقفه العدائي الحرون تجاه شبابي، تركت لوالدي رسالة قلت بإيجاز:" سأغادر هذا المنزل الذي لم أجد فيه سوى الحزن، وسأتزوج رجلا يحبني قبل أي شيء." ثم وقعت. تركت منزل والدي ليلا كما اللص، وقفزت من النافذة، كان خواكين ينتظرني في الساحة، حمل حقيبتي وسرنا بخطوات مسرعة صوب محطة القطار.

وصلنا صباح اليوم التالي بيلباو، ما أن ترجلنا من القطار شعرت بأول حرقة بالذنب.
شعرت بتأنيب الضمير في كل نفس عميق ينصهر في جهد جسدي، لكنني لم أقل شيئا، لقد قضي الأمر.
حملني خواكين إلى فندق خرب "مؤقتا" يقع في زقاق منعزل كريه الرائحة، يجب أن نخفي أنفسنا، قال لي، حتى يصبح وضعنا شرعيًا أمام الله والناس." بعد بضعة أيام-أضاف-سنذهب إلى أفضل فندق وأشتري ما شئت فانا رجل ثري." توقفت مارتينا مرة أخرى، محبطة بسبب ثقل ما ترويه بينما أنا أخذت أفتقد أجواء الفضاء الرحب في متاهة تلك الأزقة المتسخة، مستاء مقدمًا من وقائع مغامرة مارتينا الصغيرة. أه، يا إلهي، تلك الفتاة التي طالما أزعجتني أنا والفريدو لأنها تردد "ننه، ننه" بشكل عفوي ومثبط! توقفنا عند ضياء قاتم النور فأنتزع بكاء مارتينا قلبي، نظرت إلي وعينها تذرف الدموع وواصلت بحديث متقطع:
-وكما توقعت بقي وضعنا غير قانوني، ولم نغير سكننا، ولم أرتدِ أفضل الملابس، ولم أعرف أبدا أن كان غنيا أو فقيرا، لقد خدعني، ذات يوم نفر مني...
-وبعدها...مارتينا؟ هل حدث ثمة شيء آخر؟
تعلقت بي كما القطة، وغطت فمي بيدها، وكأنها تمردت على ما قد افترضته قولا، التمعت خدودها من جراء دموعها المتواصلة.
-يا إلهي، ليس بهذا! بعدها عشت من عملي، من جهدي الخاص، من عرق جبيني... أليست هذه تجربة كافية لي؟ اشتغلت في المقهى الذي رأيتني فيه، في البداية كنت أغني للرجال... أمر مقزز بالنسبة لي! بعدها... بعدها انتبهوا أنني عازفة حقيقية وأجيد عزف البيانو...
وكرد على كلامها تناهى من الشرفة العليا عزف بيانو مترهل، وصوت كشلال لرجل ثمل كأنه يخبئ النغمات الموسيقية.
-أي عزف منفر هذا! يجب أن يمنعوه من العزف...!
التفت إلى مارتينا.
-كم مضى عليك من الوقت وأنت تعيشين على هذه الشاكلة؟

-عامان، وخمسة شهور أعيش هنا...
-نعم.
طرقت مفكرًا لبضع لحظات.
-يجب عليك أن تعودي إلى البيت.
انكمشت على نفسها.
-لا أجرأ، منذ أن غادرت المنزل لم أكتب لهم ولو حرفا واحدًا.
تشجعت بغتة.
-لا يهم، ستعودين في الغد، وأنا سأرافقك.
-آه، لا...
انفجرت باكية وهونت عليها الأمر.
-سنذهب معًا، أنا أعرف دون ماتيو وأعلم أنه سيعفو عنك... انظري إلى الساعة، أنها الثانية وخمسون دقيقة فجرا.
هيا بنا، لقد تأخر الوقت، سأرافقك إلى دارك. سرنا وهي سارت إلى جانبي بخنوع، عبرنا مرة أخرى زقاقًا تفوح منه رائحة بقايا سردين لا تطاق، وفي أحد الشوارع التي كانت أكثر ضيقا ومتسخة موازية للشارع الآخر، توقفت مارتينا أمام باب تعيس المنظر، قالت مرتبكة.
-هنا أعيش! -قالت وكأنها تعتذر.
-حسنا؟
-لا أستطيع أن أذهب بيدرو، حاول أن تفهمني.
-غدا سآتي لأصحبك في الساعة الواحدة.
-والاوركسترا؟
-سأتدبر الأمر.
-حسنا!
استدارت وأخذت تبحث عن فتحة المفتاح، صر صوت المفتاح وانفتحت، استدارت نحوي مارتينا وحضنتني بساعديها.
-كم أنا سعيدة لأنني التقيت بك!
أكدت لي.
-إلى للقاء صباحًا.

-سأنتظرك.
أغلقت الباب فجأة فسمعت دقات كعبها تصعد السلم. بعدها سرت بلا هدى، بلا أتجاه معين في تلك المتاهة من الشوارع، كانت كلها متشابهة، وفي النهاية وجدت طريق الفندق، لما وصلت إلى غرفتي استلقيت فوق السرير، دون أن أخلع ملابسي، كنت موقنًا بأنني لن أقوى على النوم بعد وقائع اليوم المعقدة، كان أمرا لا يصدق، وأحداثا محمومة لا تصدق، بالإضافة إلى ألم غير محسوس ثمة ألم آخر أثار أشجاني، يا لمارتينا المسكينة! لقد أصبحت الآن كضحية ذبيحة جراء أنانية والدها، هو المسؤول، هو، حاول أن يهيمن على المحيطين به بظله السلبي بإحكام وفطنة فقسم قلبه إلى قسمين، الناس من هم على هذه الشاكلة لا يستطيعون أبدا أن يكونوا حلقة وسط سلسلة، لأنهم يعملون فقط برغباتهم الأنانية فقط، فالشخص الذي يرتبط يجب أن يولي اهتمامه لمن يحيطون به.
"لا يمكن أن نعتبر أنسانا ما لا يشبهنا كشيء لا يمت لنا بصلة-كان يقول لي-كشيء منحناه ما فيه الكفاية بمنحه الحياة."" يجب أن ننتبه لهم، ونمنحهم ملجأ دافئا مليئًا بالحب، ونساعدهم على أن يروا الحياة من وجهة نظر مثالية من حيث تتأملها النفوس السليمة.
لما رقدت دخل من النافذة المفتوحة ضياء النهار، نهضت الساعة الثامنة، اغتسلت بماء بارد لأنشط نفسي، جهزت أمتعتي على عجل وذهبت لأبحث عن المقهى الذي التقيت به مارتينا الليلة الماضية.

الفصل التاسع

يشق علي أن أصف المشاعر التي تغمر أحدهم لما يعود بعد غياب أعوام عديدة ليزور المكان الذي قضى فيه سنوات طفولته الأولى! يبدو أن أكثر الأعشاب بؤسا-ذلك العشب البائس، الذي يظهر بحذر إلى جانب سد من الطوب-يعود ليرانا نمر ويستفسر عن سبب عودتنا: "عجبا! أنت تمر من هنا، لقد افتقدناك، بالمقابل لا تتذكرني...."
لكنني أتذكره، أتذكر كل شيء: بلاط الممر، سكة الحديد، جوانب الطريق التي تؤدي للمحطة، حجارة الأديرة، شرفة أولئك السيدات الركاتيو الذي لا يوصف، شرفة بيت الجد، وكل شيء وكل تفاهات السور.... أحمل أبيلا في قلبي، فبعد أن نزلت من القطار ووطأتها خيل لي بأنني لم أغادرها أبدا، أنه شعور دافئ عميق، يكمن في كل شارع، وكل دار، وكل حجارة، وكل ذرة غبار تشارك في وجود حقيقي للمدينة التي تعبر مبتهجة عن ترحيبها الحار.
سارت مارتينا إلى جانبي أقل تفاؤلًا مما كنت عليه، بالكاد تبادلنا أربع جمل في القطار، كانت منكمشة على نفسها في مقعدها، مرتدة إلى الوراء، كمن يريد أن يكفر عن ذنب قد أساء به للإنسانية جمعاء.
لما عبرنا السور، تفاقم شعور مارتينا بالذنب، وودت لو تتلاشى إلى شيء زهيد بلا ثمن، مررنا من أمام قصر آرثوبيسبال.(فشعرت بخفة قلبي المحموم في قفصه الصدري.) أستطيع أن أتلمس بأصابعي البيت القديم الممتد الذي يشكل إحدى أجزاء الساحة حيث يسكن السيد ليسمس، لما بلغته توقفت في شك من أمري، كأي شخص استوعب تلك الساحة الصغيرة المستطيلة بطعمها القديم وموادها التقليدية، أين ولت مئات من قمم أشجار الحور والنافورة القديمة والسياج الأساسي الذي يحيط بالهضبة الوسطى؟ لقد مر الرجل من هنا بمعوله المخرب، لو أنه بحث عن قافية شعر تنشد صوت "الحضارة" لمن ينظم الشعر لتلك الساحة الزاهدة، لكنه لم يجد شيئا أفضل من "التدمير".

ناهيك عن أن الزاوية لها خصوصية مادتها الأصيلة لكن بالمقابل قد تدمج مع زمن القرن الحالي من دون أن ينتبه أحد للرقعة المخفية، لكنهم لم ينتبهوا أن قتل وجود تلك القطعة القديمة يقتضي تدمير العالم، من دون أن يترك حجارة قائمة فوق الأخرى، يدمره بأكمله بضربة قاضية ثم يعود ليبذره ملحا، لان الروح القديمة مازالت تراوده، تلك التي تقبع بين تلك الحجارة الصفراء، فتخرج للضياء وذات يوم نبشر الأجيال القادمة بما قمنا به من بتر معيب.
مازال التاريخ يتنفس في تلك الزاوية الهادئة، يتنفس بالرغْم ضربات الموت التي تلقاها، ولديه رغبة لامتصاص الحضارة، الإنسان لا يقوى على التواصل مع الحضارة، ولا مع معناها، ولا مع لمستها غير المحسوسة فوق الأشياء، تقدمنا في الساحة، شعرت باضطراب وخوف من اختفاء تماثيل الكوة أيضا، ذلك النحت التقليدي الذي تحته مرت كل أعوام طفولتي، تقدمت مارتينا متوثبة بفارغ الصبر، رايته من بعيد يبرز فوق القصر البني الوحيد، كان يقاوم أيضا، من دون أن يلوم ما يلقى على عاتقه من ثقل الأعوام." يمكث هذا رمادي اللون لسنوات، ثابتا ومستقيمًا بلا تغير-فكرت في سري- ولم يغتنم الفرصة ليجدد نفسه وفطرته بالطريقة التي تلهم الإنسان في هذه الأيام."
شعرت بشبابي منتعشًا، واثقا من انتمائي القديم، تسارعت خطواتي وأمسكت مارتينا من يدها ووقفنا فورًا أمام باب الدار. لم أكن أدري حد وقع صرير الباب في ثنايا النفس الخفية وأسرارها، أو لطخة على الجدار أو صدى مدويا لمنادي حينما نطلب دخول الدار، أعرف فقط أنني لما امسكت بيدي مطرقة الباب القديم البرونزي التي تتدلى من باب دار دون ماتيو، خالجني شعور جامح أخذ يتزايد لما رن صدى الضربتين في كل أنحاء الدار.
تاريخ بأكمله اندفع نحو ذاكرتي. ذلك اليوم الأول لما قدمت البيت، ومجيء الفريدو، ووصول والدته وعندما غادرتنا روح صديقي.... كل ذلك كان يسطع في حياتي القديمة التي تسع أبعادا لتفاصيل صغيرة لذلك

النداء الصدئ القديم. دخل الفريدو من الباب وجلس في الصالة ليترك تاريخ حياته ينتظم بين صرير ضربتين بدتا ممتعتين وصدئتين.
تناهى إلي وقع خطوات صامت خلف الباب، ارتجفت مارتينا، واجتاحتني عاطفة قديمة تحطم الأعصاب بوقعها، سمعت أحدا يمسك بسقاطة الباب-ذلك الباب الماثل في ذاكرتي-ابتدأ ينفتح، وفجأة رأينا أنفسنا أمام السيدة غريغوريا وأنا.
-ماذا تريد؟!
(يا ألهي! هل تكون الحياة شحيحة عند البعض وتطفح عند الآخرين؟ هل من يصدق أن شخصا ما قادر على مقاومة حدة اندفاع الزمن من خلال عاداته ووسائله؟ هناك، أمامي وقفت السيدة غريغوريا تخرج يدها من أطراف مريلتها، أنها السيدة غريغوريا نفسها التي عرفتها أيام زمان، لربما أكثر نحافة وقد انحنت قامتها، بدت أشد جفافًا وبؤسا من تمثال... ويدها بمريلتها، كما كانت قبل عشرين عاما.) تراجعت قليلًا فمكثت الأم والابنة أمام بعضهما، واحدة أمام الأخرى، سارت الأمور ببساطة وطبيعية خلاف ما توقعته.
-أمي!
كان طلب عفوها ينزف دمًا لمجرد أنها نبست بهذين المقطعين، ففاضت بمشاعر غزيرة متهافتة مرتجفة. أخذتها السيدة غريغوريا بين ذراعيها:
-أهلا يا ابنتي.
طبعت على جبينها قبلة جافة بينما أجهشت مارتنيا بالبكاء على كتفها، من باب في آخر الممر ظهر رجل شاحب يرتدي السواد، تقدم نحونا ويبدو أنه أنذهل من المنظر الغريب، استقامت مارتينا لما سمعت خطوات والدها تقترب منها،
-اهلا بك يا مارتينا، يسرني أنك عدت.
بغتة تعرف علي دون ماتيو.
-أنت بيدرو أليس كذلك؟ كيف حالك؟
مد لي يده بشكل رسمي وأنا صافحته لأعبر له عن شيء من الود دون أن أنبس بكلمة.

-تفضل.
أغلق الباب خلفنا وصريره لفت نظرنا أكثر من الاثنين اللذين يسيران أمامنا.
-تفضل، تفضل....
سبقت الجميع، أثقلت صدري الزيارة الرسمية، لم تبق هنا أية جمرة حب. "كانت مدرستي قاسية -فكرت-لم أستغرب أن تابعت روحي هذا المسار المعذب؟ لطالما أعجب السيد ليسمس وزوجته بتماثيل الكوة وفي النهاية أصبحا يشبهانها في صلابة حجرها ولامبالاتها."
استقبلوني في الصالة على الطراز الأيزابيلي التي تغص بالذكريات، هل يمكنني أن استعرض هنا عشرين عاما من حياتي؟ ورق الجدران نفسه يتماشى مع الأثاث المغلف بالساتان الأحمر والبيانو القديم والمرآة المذهبة وصندوق الموسيقى والمزهرية بأزهارها من القماش....
حينذاك فهمت أن الإنسان يمكنه أن يشل حركة الزمن على هواه من خلال الأشياء التي تحيط به، وأن يثبتّه طوعا عند حد معين ولا يغادره حتى يخطفه الموت. شعرت فقط بمرور الزمن عندما سألت أين استفانيا.
-لقد ماتت-قال السيد ليسمس
-وفاني؟
-ماتت منذ ثلاثة عشر عاما...
هربت مارتينا إلى غرفتها، بينما السيد ليسمس والسيدة غريغوريا مكثا يحدقان بي.
-لقد ماتت السيدة لينور أيضا، الخميس المقبل ستنقضي ثلاثة أسابيع-أضافت السيدة غريغوريا وكأنها كانت مقتنعة بأن تكمل قائمة المتوفين...
فنبض مسار الحياة مرة أخرى، طوفان حياة جديدة يمنح بخطواته الأيمان. "من هنا مرت الحياة-قلت لنفسي-إلى الخلف، ورائي، فالتاريخ ينتقي الأماكن التي مرت بها الحياة، هذا هو مصير البشر، الموت، الاختفاء، في حين يبقى عملهم على قيد الحياة."

نهضت السيدة غريغوريا بغتة
-اعذرني يا أبني-قالت.
وسارت باتجاه المطبخ.
-كل شيء مضى يا صديقي-قال السيد ليسمس وكأنه قرأ أفكاري فتأكدت مخاوفي بأن جسدي شفافًا مثل الزجاج، بغتة انتبهت إلى أن دون ماتيو قد أكتهل ونحل بشكل مروع، وكأنه تنازل عن عصب حياته النابض.
-ذات يوم قال لي، بيدرو، أن كبح النفس هو أفضل علاج كي نراوغ مؤقتا ما يحمله وجودنا معه. اليوم انتبهت أن الإنسان يفقد الكثير على الدوام، بالرغْم أنه لا يؤمن بذلك.
فكرت في مارتينا. "أحمّل ذلك الرجل ظروف السنوات المقبلة. "هذا ما قالته لي.
-شكرا لك لأنك أعدت مارتينا إلينا-غير هو الحديث-ولا أظن أنه سيأتي أسوأ مما حدث....
-لقد خُدعت.
بدا السيد ليسمس مستسلمًا قليلًا، صمت ثم قال:
-شكرا على أية
هل أقول له أنك تتحمل الذنب في تلك المصيبة التي تتأسف عليها الآن: عندما يُكبل الإنسان لابد أن يتشوه حتى في مشاعره الخاصة تجاه الناس التي تعتمد عليه، لكن وجدته باليا وهرما وقد فجعه الألم، بل حتى لم ينبس بكلمة في هذا الموضوع. تأكدت لي في هذه المناسبة فكرتي القديمة أن هناك فرصا تخرج فيها حيواتنا عما هو مألوف ونتجاوزه، ولما نريد أن نصلح عيوب أعمالنا الطوعية، نلاحظ أننا ذهبنا بعيدًا جدا مما توقعناه، لمجرد أن نفكر على هذا النحو يمكننا أن نبرر أو نشرح على الأقل النقص الذي يؤنب أستاذي القديم.
-هل تريد أن تبقى لنأكل سوية؟
لقد دعاني دون ماتيو كواجب مفروض بحكم معرفتنا السابقة، لم يصر لما اعتذرت عن الدعوة، بعد مضي دقائق ودعته، رافقتني السيدة غريغوريا حتى الباب، وهي تخرج أصابعها من صدرية المطبخ. أما

مارتينا فقد انفعلت بكلماتها وهي تودعني. لما سرت بعد قليل في شوارع ابيلا بلا هدى ورد على خاطري أن دون ماتيو والسيدة غريغوريا لم يفعلا شيئا سوى انهما أعادا لي النقود التي دفعتها لهم.

الفصل العاشر

ظهور مارتينا غير المتوقع وزيارتي غير المتوقعة أيضا، إلى ابيلا منحتني دافعا للتأمل في الأيام التي قضيتها في سانتدير، بعد عودتي لهذه المدينة تغير عالمي الداخلي لما وعيت لواقع مفاجئ: دار دون ماتيو ليسمس التي عانت من هزة عنيفة، تساءلت أكثر من مرة كيف تكيف سكانها لهذا التغير المؤلم، الزواج في واقع الأمر لا يقلقني على الاطلاق، فكلا الزوجين يحشران أنفسهما في تشاؤم بارد، ويقبلان بذله بلا مبالاة فاترة يتميزان بها، لكن مارتينا؟ هل ستستطيع مارتينا أن تتكيف بشكل نهائي مع الروح المعتمة لمنزلها؟ لن تشعر مرة أخرى بسخونة دم الشباب وإشعاعه؟ بصراحة أظن أن تجربة الصغيرة مارتينا كانت من النوع الذي سيلازمها مدى الحياة، بل حتى الآن، بعد أن تعرفت على الاضطراب، تملأها غصة ندم على خيانة نفسها، ستتعود مارتينا على الحياة الرتيبة من دون شكوى أي الحياة التقليدية والجافة والساكنة في بيتها، عودة الخاطئ إلى جو من السلام غالبا ما يعطي، بعد إعادة التأهيل، نتائج جيدة. لذلك فأنا واثق من مارتينا ومن مصيرها وصدق مرارة ندمها، لن تثق مارتينا بالحياة ولا بالرجال، ستشعر تجاههم بخوف غريزي يحصنها من كوارث أخرى محتملة، أن أجواء الغثيان التي يفتعلها الجاني لتحقيق مأربه ستجعل من مارتينا أن تحافظ على نفسها بتعصب صارم جراء ما يسري في دمها من اضطراب. قد تهدئني هذه الاستنتاجات فيما يتعلق بهذا القلق الجديد. عدت لأمكث وحيدا في مركب آنتراثيتا، لأن بوليا سافر مع عائلته لمزرعة في ضواحي رينوسا في يوم عودتي نفسه، غيابه جعلني مرة أخرى أواجه ما يدور في خلدي من أفكار، فتذكرت مغامرة مارتينا، ولما ورد على خاطري اهتمامي بها، راودتني أيضا ذكرى جين باستمرار، وبالتالي تجعلني أحتمل حياتي المنعزلة. أما فيما يتعلق بالسيد ليسمس والسيدة غريغوريا وجدت لنفسي تفسيرًا معقولًا لتبرير موقفهما تجاهي، هما من

تجاهلا معرفتي لأنهما على المدى الطويل لا يستطيعان التكفل بي وسأسبب لهما مضايقات جديدة.
ما الذي فعلته لهم؟ فأنا لم أكن أريد نسيانهما ولا إزدراءهما؟ أليس السيد ليسمس هو من تكفل بتنشئة روحي الحساسة وفق ذوقه؟ أما السيدة غريغوريا أتذكر أنها في تلك الأيام التي توفي فيها والدها الملتحي، كانت قد وعدت رسميًا "أنها لن تحب أي أحد أكثر منه لأن ذلك يخيفها". ألم يكن هذا المكان هو الذي شكل مزاجي المعقد الكدر؟ لا، لا أحد يجب أن يستغرب من موقفهما، في اللحظة الأخيرة، كان أيضا موقفي. لم أكن أنا، بعد كل شيء كان صنيعتهما؟ بالرغْم أنها لم تنجبني، ألم تكن السيدة غريغوريا أمي الحقيقية؟
اعتدت أن أناجي نفسي في غرفة قيادتي الصغيرة، وأحملق في السماء من خلال فتحة باب غرفتي المفتوحة، اعتادت يدي أن تسند المركب المحشور في القنينة، أحركها بأنامل أصابعي حول مدار غير مرئي، غالبا ما يقودني تدفق أفكاري لأن اعتز بنفسي لأنني تعرفت سابقا على السيد ليسمس ونظريته العميقة، فمثال مارتينا وضعني على أهبة الاستعداد لأي تساؤل يطرح علي فيما يخص السلوك الذي يجب أن اتبعه مع جين. لم أشعر أبدا برغبة في داخلي لأن أراها مرة أخرى، ترعبني فكرة أن أتزوج وأنجب أطفالا، فمسؤولية الأبن ستثقلني كما وقوع الكارثة، ألا تكفيني مصادفة إمكانية إظهار نفسي كشخص أبتدأ يوازن الحياة، بكومة أشياء لطيفة من جهة، وكيس من الأحزان من جهة أخرى؟ لقد كانت حياتي قطعا كما الآن تمضي بحرية وبلا ارتباط ومن دون أن يتحدد قلبي بأي مخلوق بروابط عميقة والتزام لا مفر منه.
بدا منظر السماء الذي أراقبة من فتحة الباب رمادي اللون، وبفضله علمت أن النهار قد أنقضى، فنهضت حينها ووضعت فوق الطاولة السفينة السجينة وصعدت إلى سطح المركب. أثار فضولي رؤية السماء والأرض تتوافقان في نورهما، فنوافذ المدينة ونجوم السماء ابتدأت وميضهما سوية، كأنها ترسل فيما

بينها غمزات تفاهم متبادل، وانعكست أنوار المرفأ والمراكب على سطح المياه المستوية، فاحت رائحة البحر والبترول، مزيج صعب له خصوصيته يدخل الرئتين كبخور ملتهب نهم.

أطوف فوق سطح المركب من دون أن أشعر بالإجهاد، في بعض الليالي اقفز على الأرض وأتنزه صامتا في أماكن المدينة غير المزدحمة، وبحلول الساعة الواحدة أقفل عائدًا، بعد أن أكون مرهقًا جراء نشاطي اليومي فأهوي على الفراش لأروح عن نفسي وأستغل بضع ساعات في صفاء ذهني وأمتنع عن أي قلق ينهشني. في بعض الليالي أعيشة، لكن في أغلبها لا أناله، يذهب النعاس بينما ذهني يستقيم بشكل عمودي، أنها ساعة غربلة ذهني من كل المشاغل والتخمين واحتمالاتي وميولي ومخاوفي، وشكوكي وقياسي للأحداث، والأفعال بالمعايير نفسها التي راجعتها ألف مرة، دائمًا نفسها في الأربع وعشرين ساعة الأخيرة.

ليس من المستغرب أن استقبل في كل مرة واقع الرحيل بفرح، في أكثر من مناسبة تتلطخ همومي بذكرى جين البعيدة، لا أتأمل رؤيتها مرة أخرى، لكن أود أن أعرف على الأقل أنها قريبة مني، وأن الشمس والغيوم تحرقنا وتمطرنا نحن الإثنين في الوقت نفسه، أن تقلع السفينة هذه المرة يعني أن أقصر المسافة التي تبعدني عنها، وأبدأ بالاقتراب منها، فيسري في جسدي فيض من فرح عميق وخفي. هذا أقصى ما كنت أطمح إليه واحققه، أن أحيا لأقوم بجملة تنازلات، فيغمرني فرح جياش.

أتذكر في هذه الرحلة أن لويس بوليا عاد ليحاول مهاراته المعروفة ودبلوماسيته، تعودنا أن نتحدث على الجسر في أثناء فترة الاستراحة، ذات ليلة أدهشني لما نظر إلي بشكل مباشر:

-ما هو هدفك الأخير في الحياة يا قبطان؟

-أن أتفاداها.

-تتفادها، ما الذي تتفاداه؟

-أي هدف نهائي.

-أنه أمر عجيب.
-لربما، في النهاية سيستريح المتعبون، الذين لم يحصلوا على شيء، ولم يجربوا....
-لكن الله لم يأمرنا بهذا.
-لكنني أنا الذي أضفته.
في تلك المناقشات، ينتهي الأمر لان يتكدر مزاج بوليا، كان يضيق ذرعا بعنادي، وانغلاقي، وبأنني لا أقدم له أي فرصة ولو فجوة صغيرة من التناقض. لقد حولّتُ معارضته لي إلى علم خدوم أصيل الولاء. "يؤسفني أننا نصرف أعمارنا بلا جدوى"، كان يردد دوما. في الحقيقة أنا أجد أنني أضعت حياتي بغتة، من دون أن أرتكب شيئا قد أقول إن الله راض عني وعمن يشبهني.
مضت حياتي في بروبيدنثيا كئيبة في عزلة مغلقة، أحيانا كنت أسير في الشوارع من دون هدف محدد، ربما بلا وعي مني أثير هواجس تتعلق مباشرة بجين متذكرًا الأجواء التي تعرفت فيها عليها.
ذات مساء فاجأني المطر وإنا اجلس أمام تمثال روجر وليامس، تأملته من دون أن أتحرك، فطرأت على بالي فكرة أن المؤسس سينقل إلى جين هذه التضحية التي لا توصف التي أحتفظ بها فقط كيلا أفقد علاقتي بذكراها الحقيقية الحية، في مناسبة أخرى تناولت طعامي في المطعم الصغير نفسه الذي أكلت فيه بصحبة جين، يحثني أمل خفي بان مالكته البدينة يمكن أن تتذكرها وتعطيني معلومة ما عنها، لكن لا شيء من هذا القبيل قد حدث، السيدة البطيئة الحركة قدمت لي طعامي من دون أن تقدم لي طبق المقبلات، لربما كانت غير مرتاحة وغير راضية عن الكلاب البنية التي ترمقنا من كل الجهات، لما استأنفت رحلة عودتي إلى إسبانيا عاودني انطباع بفراغ مضطرب، رحلت من دون أن أراها، أو أشعر بها أو حتى أعرف أنها مازالت موجودة في بروبيدنثيا، وضح لي بوليا الجانب الأخير من شكوكي في ليلة الرحيل نفسها:
-كنت بالأمس برفقة جين-قال لي.
-وماذا بعد؟

-طلبت مني أن أبلغك تحياتها.
حز في نفسي ذلك الاتصال غير المباشر، ووجود وسيط بين قلبينا، تركت حوارنا يفتر بصمت ويفنى متآكلا، في تلك الليلة نفسها، لما رقدت، شعرت أن في صدري إنذارًا يلسعني كأنه تباشير لثورة غضب، لماذا أنا مختلف عن بقية الرجال؟ لماذا رآها بوليا وصافح يدها، والآن ستواصل حياتها بشكل طبيعي وكأنه لم يحصل شيء؟ أنها المرة الأولى في حياتي التي شعرت فيها بضغينة مملة وكئيبة إزاء شخص السيد ليسمس المتخلف، بأي حق رباني على صفات ملتوية وغامضة؟ راودتني فكرة بائسة بأن المتعة التي تكتمل بها الروح المريرة هو أن تنشأ مدرسة يعتمد عليها البعض، وهنا استعرضت سلسلة من صوري انتهت إلى عدم التوازن، لم يحدث لي من قبل لا في تلك المناسبة ولا في الأيام أو الليالي المتعاقبة أن أجد نفسي على شفا الجنون، كنت أعيش تحت وطأة وقائع مبهمة وضباب ثقيل يتغلغل حتى جوف ذهني، فيمنعه من أن يباشر وظائفه المعهودة، كانت بضعة أيام وليال عاصفة واستهلال لأزمة عامة لازمتني يومين قبل بلوغنا إسبانيا، هويت على الفراش، سجين هذيان الحمى بينما هربت مخيلتي إلى مناطق مجردة غريبة الأطوار و لم أقو ان أسيطر عليها، أتذكر فقط تلك الساعات الثقيلة لساعدي جين ناعمين والملفوفين وكأنهما مُلك لروجر وليامس، وأنه يكلمني من منصته بنبرة مقنعة وعاطفية أعتاد القبطان أن يخاطبني بها، لما بدأت أشفى اخبروني أنني وصلت منذ ثمانية أيام إلى إسبانيا، ثمانية أيام في صالة مضيئة وصامتة في ذلك المستشفى الكئيب، شعرت بوهن منعزلًا من دون أن املك سلطة على أعصابي أو عضلاتي، لما شفيت دعاني بوليا لمزرعته في الجبل، هناك يوجد أطفال وأشجار وعصافير-قال لي-لا أظن أنك تحتاج لشيء آخر كي تشفى، فقبلت دعوته، لا يمكن أن أترك نفسي للموت أو أمكث مخنوقا في جو غير عقلاني كمصح للمجانين، ولما استطعت أن أقف على قدمي، رحلنا أنا وبوليا وتركنا المركب بقيادة القبطان الثاني.

ما أن تحرك القطار حتى ابتدأت مساماتي تتنسم سلام الطبيعة العذب. شعرت على التو بتحسن، امتدت أمامنا الحقول الخضر، سلام وسلام وسلام تخلل مشاعري بلا حدود، يمر متموجًا فوق جسدي. بعد مرور ساعة ونصف هبطنا في محطة بعيدة عن القرية، صفان من سلم بدائي يصل رصيف القطار الصغير بالطريق، لما بلغناه رأينا مجموعة من الناس جاءت من بعيد.

-ها هم-قال لي بوليا مبتسمًا.

كانت عائلته، تتألف من ثلاثة أجيال متباينة ومنسجمة، زوجته وأبنائه الصغار جدا في العمر، متساوين، مثل خرز المسبحة. سرنا جميعنا نحو البيت الذي يمكننا أن نرى في أعماقه أغصان الأشجار، تحلق الأطفال حولنا، يتابعوننا ويضايقوننا ويلعبون.... رأيت البيت من قريب، بدأت أشعر بالتعب، كان بيتا صلبا يحميه نبات متسلق كثيف وأخضر يحيطه سياج حديدي تحتضنه شجرة عوسج ضعيفة وغليظة.

طلب مني بوليا أن أستريح فذهبت للتو إلى الغرفة، ولم اعترض لأنني كنت شديد الإنهاك، كان السرير أمام النافذة فاستمعت برؤية نضارة الحقل الفسيح من مكاني، يقطعه الشكل المستطيل للنافذة المفتوحة. برعمت في الروض المتموج منعزلة عشرات من أشجار الفاكهة بأنواعها المختلفة: كالتين والبندق والتفاح والإجاص.... وبنت العصافير أحلامها بين أغصان الأشجار الكثيفة، تناهى إلي صفير بلبل، بدأ المستطيل المضيء للنافذة يفقد لونه شيئا فشيئا، ليغرق في ظل دافئ، تناهت من الطابق الأسفل صرخات مزعجة لمجاملات الكلام، ثم بعدها صوت الجدة الذي يتناغم على إيقاع الساق الثالثة لكعب عصاها الاصطناعية: عصا سوداء صوت ضربتها كمن يخبط الباب بهراوة. يتعالى صراخ العجوز ويرتفع صوتها من دون عبارة محددة لما تثيره من ضجيج، كلام مشوش جراء صممها وضعف بصرها، وكذلك سمعت صوت لويس كهمس نهر جار، وفي النهاية كان البيت ينبض حياة من تحتي، كأنه يعزلني عن الاتصال المباشر مع الأرض....

لقد صمتت العصافير بعد أن رفرفت بتلقائية كالتائهة، حتى بلغت نفحات الليل العطرة، فسمعت من بعيد صدى بضعة أجراس الأبقار. "لا تشعل النور لعله مازال نائمًا." فأقترب مني ظلان يسيران على أطراف الأصابع. أعطاني شيئا لأشربه، كان كأسًا رائعة من حليب المراعي النقي....
ثم عدت لأسمع وقع أقدامهما تبتعد عني، وصوت ثيابهما الرقيق حينما يهف الأثاث.... كل شيء كان مظلمًا من حولي، مازالت النافذة ترسم مستطيلها وكذلك ظلال أشجار الفاكهة الداكنة بينما تلألأت النجوم، انتابني شعور بالسكينة والسبات... ثم نمت عميقًا. أيقظني بلبل يغرد مبتهجًا على مبعدة مترين من مسمعي، ناثرًا جناحيه ليغتسل بنور أشعة شمس اليوم الجديد.....

الفصل الحادي عشر

تطلب شفائي التام وقتا قصيرًا، أخذت استرجع قوتي تدريجيًا، بل كل كياني، فشعرت من جديد أنني مهيأ للألم. قصدت طبيب القرية، كان بارع وسخيا ولطيفا وعالجني منذ اليوم الأول كأنني سيدة مصابة بنوبة هستيرية، بالرغم من ذلك، فاستعادة صحتي يماثل الاستغناء عن الاهتمام بالنسيم الريفي، ومع فلسفة الانتحار الذي نبتدعها يوميًا، واهتمام له علاقة بوقار هذا الصنف، وعدم جدوى العلم إزاء الموت.
-عندما يأتي الموت بحق، لم تعد هناك حاجة للطبيب، وأن لم يأت فالمريض من دون أدنى صبر سيشفى.
ضحكنا من موقفه، بالرغْم أننا نعلم في أعماقنا آسفين أنه لا يوجد في العالم شيء أكثر أسفا من رجل فقد سمعته ومكانته.
ومع ذلك أكرر أن حالتي لم تكن قد بلغت هذا الحد الذي تسعى مصادر العلم لإيجاد حل لها، أنا احتاج فقط للهواء والصدق. حصلت على مكسبين هنا بفيض بلا حدود، صباحًا استلقي في أرجوحة من شبك، وضعت في منطقة مظللة من الحديقة، وهناك أقرأ أو أنظر إلى الأشجار أو أراقب لعب الأطفال لأتسلى، كل هذه الأشياء تجعلني أشعر بتحسن.
كنت في تلك الأيام أتأمل الأطفال والأشجار بالتناوب، فأيقنت إننا لا يمكن أن ننفي العلاقة التي بين الأشجار والتركيبة النفسية للناس.
ذات صباح بينما كنت أقرا لفت انتباهي ثرثرة الأطفال المستمرة، كان أولاد لويس يلعبون مع أولاد بيوت الجيران، أصغر أبناء صديقي كان يريد أن يشارك الكبار بلعبهم، لأنه يظن أن الذين أكبر منه لديهم تجربة، وهكذا هم يتسلون، لربما أن الأمر أكثر تسلية من أي شيء آخر قد يحدث له، لكن موقف الكبار كان صارما معه وظلّ الطفل منبوذًا، يمط شفتيه بحركة معيبة تنم عن غضب وشيك.
لقد عكس هذا التفصيل الصغير كل حياتي، فلعب الرجال كان قريبًا من لعب الأطفال، مشاكلنا كانت بالحجم نفسه لمشاكل أولئك الذين يشغلون

بها أذهانهم، ليس أكثر من عشر سنوات، أنا والحياة عانينا من الإهمال نفسه مثل لويس الصغير، لم تتح لي فرصة المشاركة في لعبة الحياة ولهوي الوحيد هو تأمل متعة الآخرين من دون أن أفهمها، لكنني اخمنها، عندما تقوم الأكثرية بذلك، لكن المخطئ هو أنا ولا أحد غيري، لطالما حرقني ذلك التناغم. لقد اقتربت ساعة الطعام، جلس بقربي لويس وزوجته وفي أكثر الأحيان أمه، كانوا يشكلون نواة العائلة السعيدة. كانت عائلة ودية عفوية بسيطة، لم أشعر أن وجودي هناك قد يسبب تعبا أو ضيقا، كانوا يتصرفون بشكل طبيعي وصادق، كانوا مسرورين بزيارتي، أو على الأقل تلك الطمأنينة التي تطبع من يقوم بعمل خير، فهم يجدون أنفسهم مقصرين في كل شيء بل حتى تفعيل وتنشيط حياتي يوم بعثي فيأخذون كل شيء على محمل الجد.
أنصب اهتمامه في تلك الأيام الأخيرة من إقامتي هناك على انتزاع وعد مني لأن أكرر الزيارة.
-كلما وددت ذلك، وبمطلق الحرية تعال معنا كما الآن.
ذلك كان آخر ما ذكرته السيدة صوله بعد أن وجهت كلامها كنفير البوق نحو كل الاتجاهات لتنبه إلى المسألة التي تناقشها التي تنتهي دوما بعروض من أبنائها.
خرجت مع لويس في إحدى تلك الأماسي لنتمشى في المناطق المجاورة بعد أن شفيت، كان يومًا دافئا تشوبه بعض الغيوم البيض التي بدت ساكنة، تقبع في لون السماء الأزرق، انتبهت إلى أن لويس أخدني إلى خارج الدار ليحثني من الداخل.
-ماذا بعد-قال لي عندما أن ابتعدنا-هل أخذت وقتا كافيًا لتدرك من المخطئ منكما؟
-لم يخطئ أي واحد منا.
-أو غلط، فالحقيقة لا تحتمل موقفين متناقضين، أن كان أحدهما على حق فالآخر أي منافسه كاذب.

-من وجهة نظرها موقفي على خطأ، أما موقفها من وجهة نظري أظنه خطأ أيضا، لكن أن أقتنع كلانا بما يجول في أعماقنا، كل منا سيكون على حق، وفق تقييمنا الطبيعي.
نهض وقد أومأ مستاء.
-حسنا.... هل أنت شخص عنيد.
-أحيانا.
-لكن لنر....
كان بوليا متكئًا على حاجز الجسر القوي ثم مال نحوي مرة أخرى: سأطلب منك شيئا واحدًا، تأمل سياق تطور تلك السمنة المزعجة، أنت لم تولد هكذا، لربما ولدت ولديك ميل للسمنة، لسبب تجهله، أخذ يبرز وجعلك على ما أنت عليه...-وضع ساقا فوق الأخرى ثم واصل بحزم-: أتمنى أن تعيد تشكيل حياتك من دون أن تعترض تلك الأسباب المفروضة على توجهك الحالي، كن صريحًا مع نفسك، ما أن تحقق هذه النقطة، قارنها بوضعك الحالي وأستخرج النتائج المنطقية....
ابتسمت.
-حسنا.
-لكن تناول الموضوع حتى نهايته القصوى، حتى آخر نتيجة...
نهض من على السياج ونفض بنطاله الذي بقعه الغبار....
-حسنا.
- وأعدك أنني بعد ذلك لن أتدخل بالأشياء التي لا تهمني، وأنت تبقى مع النتائج التي تحصل عليها وأعمل وفقا لها.
عدت لأبتسم.
-حسنا...-واصل بوليا-سأذهب إلى القرية المجاورة لأتنزه، وبعد بضع ساعات سنلتقي هنا، انظر انصحك بمكان مثالي كتأمل ذلك البستان، يسمونه كاستنيرا ولا أعلم السبب، لكنه مكان جيد أؤكد لك ذلك. لوح لي مودعًا بيده اليمنى وعند كل خطوة يضرب أطراف حذائه قطع الفحم. مكثت لبرهة حائرًا، وبالنهاية قفلت عائدًا نحو كاستنيرا، ولجت دربا مستقيمًا ومكتظًا يتجه نحو الأعلى، في الواقع لم أعرف لما تمتلئ هذه

الغابة بأشجار الكستناء، هناك يوجد مئات الأنواع لمختلف لأشجار الشديدة الخضرة والمتباينة والمثمرة، إلى جانب أشجار الكستناء ترتفع أشجار باسقة من خشب القيقب والجوز والحور والبتولا، إضافة إلى أشجار اليوكاليبتوس التي تعلو جميلة، كأنها تترأس تلك المجموعة الخضراء، كان المكان موحشًا وبريا، فتعرقل مسيري جراء تعلق قدمي بالأشجار المكتظة ونبات السرخس ونبات شرابة الراعي، في نهاية الأمر دخلت بصمت ومن دون ضوضاء، ليس هناك مفاجأة، بل طائر خائف هرب بسرعة وريشه الأزرق تطاير جراء الريح، و زوجا بلابل تأملتهما بفضول يقفان على غصن من دون أن أقطع سمفونيتهما، كانت الكائنات الصغيرة لسكان تلك الأحراش تصدر أصواتا ونقيقًا منسجمًا، طائر بيردور الرشيق وطائر الحسون المتناغم وطائر مالفيس البني بل حتى طائر بيمنتونرو الصغير، يرفع رأسه شامخًا كالسيد وكأنه معتز بريش عنقه الأحمر، يغرد لحنا بلا إيقاع لكنه متناسق ولا أدري ما السبب. لما تحركت مرغمًا وأحدثت ضوضاء هرب إلى جهة ما، يخفق بجناحيه بصعوبة بين الأغصان المتشابكة....

بدت لي الغابة أكثر تعقيدًا، لقد فاقت الفراشات من قيلولتها فحلقت بالهواء كأنها تستعرض لباسها المبهرج، فتفترشها وتمدها بعيدًا عني: وانتشر النحل في كل مكان مثابرًا بانتظام.

جرى إلى جانبي جدول صغير يختفي من حين لآخر بين الشجيرات ثم يعاود الظهور بحذر على صفين من القصب. أخذت آثار الطريق تمحى بسبب دعسات قدمي، لما غادرت الأحراش ذهلت جذلا لروعة المكان، وللتناقض ما بين متاهة الأغصان والأشواك والشجيرات والأحراش القديمة، امتدت أمامي فسحة جبلية صغيرة مدورة الشكل تقريبًا ومنعزلة عن الغابة بأشجارها الكثيفة من الجوز والكستناء، هكذا بدت لي: شيء غير متوقع، امتدت بانسيابية وبلا عوائق.... فيتوسع الجدول حينما يصب شلال ليتحول بغتة

إلى واحة هادئة، لكنه فيما بعد يعدو من جديد حتى الأطراف ليتحول إلى مجرى واسع تصطف عليه أشجار الصفصاف كالجدار وأشجار الاليسو وأعشاب البرك.
كفت ثلاثة أو أربعة ضفادع عن النقيق ثم قفزت لتغمر في المياه، بينما وقف طائر التوردو على ضفة النهر ليشرب، ويلتفت للوراء إلى جميع الاتجاهات قلقا، ظللت الأشجار الكثة الروض الجبلي بظلال دائمة، تتخللها أعشاب القت بظلالها على الماء، كأنها تغمز لما تتحرك على اهتزاز أوراقها، أما أزهار البابونج الصفراء فقد انتشرت بالحقل بكمية هائلة، تتناوب ألوانها :أنها أجراس مخفية، حين وطأت تلك الأحراش الجبلية المفعمة بالحياة، سادني هدوء كبير، كمتعة من يغرق رأسه بأفكاره المزعجة في ماء بارد، تمنيت لو أنني اكتشفتها من قبل كيلا أترك يومًا واحدًا من دون زيارتها... جلست على البساط الأخضر متكئًا إلى الوراء على مرفقي.
انحدرت نملة من غضن شجرة التفاح، فكرت لعل الحشرة الصغيرة تطلب الدواء، بالرغْم أنها لا تأكل الأعشاب لكن من الصعب أن يحدث في مكان كهذا عسر الهضم، لكن لا بد أنها تبحث عنه، وقبل أن تبلغ تويج زهرة التفاح غيرت اتجاهها وأخذت تهبط. "أنها حائرة-فكرت-لا يعجبني التردد..." ضربتها على راسها فتشظت الحشرة بين أجزاء الأعشاب على الأرض. نظرت من حولي، لقد كان مكانا رائعًا للتأمل. أخبرني لويس أن أتأمل هنا، يقصد أن أتأمل وضعي النفسي مثلا، وعلاقته بالروح، والتاريخ الطبي للجسد، أتأمل....
"أنا هكذا، أرى الأمور هكذا، أشعر هكذا، لأنه ذات يوم، وروحي مازالت بكرا، قالوا لي:" كن هكذا لأن الحياة تسير على هذه الشاكلة" وأنا، كنت أفتقر إلى معياري الخاص، نظرت للحياة كما وصفوها لي، فمضيت فيها وعملت بالتالي على تقييمها على هذه الشاكلة.... وقطعيا كنت كروح مفرطة الحساسية امتثلت لهذا الدرس المشؤوم فجبلت عليها شخصيتي التي لم تنضج بعد، بعدها أثبتته الحياة نفسها وبدرس تطبيقي: موت الفريدو. حينذاك أهملت طباعي كينونتها المخفية وأخذت تنمو،

لكنها تنمو وفق انسجام تام مع المعايير القديمة، فالحياة كانت أن تخسر ولكي لا تخسر يجب أن تستغني عن الربح مقدمًا، ومن هنا تحدد إيقاع سلوكي على مدى حياتي، ثم جاءت الحرب، أمسى العالم مشوها وغير مبال إزاء الموت، حقيقة لا يمكن تفسيرها انتهت لكي توضح لي أن العالم وأنا لا نتجانس بأي شكل....نعم، لكن كل ذلك يعود للتأثير الأولي للسيد ليسمس، الآن يمثل لي كما السم، أصاب بصدمة كل مرة أفكر فيها بسوء بالسيد ليسمس....لكن هل لدي في الحقيقة شيء يجب أن الومه عليه أو اشكره؟ بماذا أدين له؟ كنت أود أن أكون كما أنا أو كشخص متراخ وأعمى البصيرة كالذين يصفون أمامي...؟ حسنا، لأمحي السيد ليسمس من حياتي، ما الذي سينقص من طبعي الثابت الحالي؟ لو أنني كنت من ذلك الجمع المتراخي والأعمى البصيرة؟ هل يمكنني أن أقيّم لويس بأنه كسول وأعمى البصيرة على سبيل المثال؟ هل سأكون في نقطة متوسطة بين عالم غير مبال وذاتي الموضوعية جدا لحدة طبعه؟ يجد بوليا أنه لا يمكن إيجاد توازن بين ما نحن عليه وما قد كنا عليه، كل شيء يحل بأسئلة متشابكة بلا جواب.

ليس هناك قاعدة ثابتة للانطلاق، وبالتالي الظنون وتفرعاتها تكمن في الأصل نفسه، وبعدها تتكاثر..... يوجد فقط نقطة لا يمكن دحضها حاليًا بالرغْم أن سياقها ثابت ومريب مقلق: أنا تشكلت بطريقة وكل الجهود عقيمة لكي أغير ما أنا عليه، فأن أنزع حلقة من سلسلتي الحيوية وأضيف أخرى مصطنعة لن أحقق بهذا تعديلًا شكليًا ولن أقاوم السلسة، وكل ما عداه سيهوي إلى الحضيض. ألم يكن تاريخي مجرد مجهول وتساؤل وريب؟ لم ينتبه بوليا لما طلب مني أن استخلص نتائج منطقية للتوازن حتى آخره؟ هل كان أمرا منطقيًا ومتوازيًا؟ هل هناك نقطة منطقية أو حتى فرصة؟ أنا جبلت على هذه الشاكلة قطعيا، ويوجد أمامي طريقان: أما أن أقبله أو ارفضه، كان بوليا يؤيد أن أقبله وأنا أن أمتنع عنه، وكل شيء ينتهي بعقلانية هنا، لم يكن من المعقول أن أواصل..."

تأملت جريان الجدول الخفيف فيُقبل بمروره حافات أشجار الصفصاف المنتشرة على ضفافه، حاول طائر أن يحط ليشرب لكنه غير رأيه حينما رأى السائح مازال مستلقيا على العشب، تناهى نقيق ضفدعة على مبعدة ثلاثة أمتار مع التيار، كانت قمم الأشجار تثير ضوضاء حينما تتخللها الريح، طقس المساء كان معتدل، انتبهت إلى وخز نملة خدرّت يدي وكأن جسدي لم يعد قادرا على حملها، أرخيت ساعدي وبسطتها باتجاه السماء، في تلك اللحظة تملكني أحساس أن جسدي تدهور وأن حياتي ابتدأت بالانحدار، خرجت مني همهمة جافة، أن عظمة الأشجار إلى جانبي زادت من لامبالاتي. "بدلا من أن أكون مستلقيا لربما سأكون تحت الأعشاب التي تسحق جسدي حينما أموت، أي انطباع مريح أن امكث هكذا إلى الأبد!" حركة قمة الشجرة نبهتني فانصرفت عن تأملاتي،" الأشجار رفاق جيدين، يفضلها الناس لأنها لا تتكلم بصوت عال، قد تهمس أحيانا." تذكرت جملة خوليان رويو في أوقات ترحاله الجيدة:" الناس تنمو حيث تزرعها مثل الأشجار" خوليان رويو كان غاضبا على الدوام، لكنه على حق، في جملته لربما فيها ذرة من الحقيقة، لكن فقط ذرة، وما بقي منها كان غير أكيد.... حدقت بالشجرة، التي همست من جديد من أعاليها، كانت شجرة كستناء، أغصانها الأولى ترتفع إلى السماء مستقيمة ومدورة تمامًا." مثل ساعدي جين" قلت لنفسي، فشعرت بخيال جين إلى جانبي." بالرغم من كل شيء كان يجب أن اتركها" فهمت بغتة آن صحتي تنتعش بالرغْم أن جسدي تدهور." أن قدرتي غريبة حقا! -فكرت-لقد أدركت ذات يوم بعيد أنني بدأت أستعمل المنطق، اليوم أقيم فيه بوضوح وشفافية الطريق نحو أفول جسدي" فهربت من شفتي همهمة كاحتجاج تلقائي. ماذا سنفعل! إضافة إلى ذلك يستحسن أن نضع نهاية الأشياء لما يكون السير بلا هدى، ويغيب المنهج كليا ويكون الهدف غير مباشر....

استمتعت للمرة الأولى بالوحدة، فالوحدة تساعد كثيرًا على تنظيم ما في الرأس وما في داخله! الآن أدركت من أين جاءت جذور نفسيتي المعقدة، كل ما هو سيء في داخلي يكمن في الرأس وما في داخله،

بدأت أتبرم باليوم الذي بدأت استعمل به عقلي، أما معاناتي الذهنية فقد تكثفت في الساعة التي تركت فيها استعمال العقل فأخذت أكيل لها الشتائم، لكن من الواضح أنه أمر لا يمكن ترتيبه، بالرغْم تقدم الجراحة، لربما يستأصلون قطعة من المخ....

حل المساء، كان بوليا ينتظرني على الجسر الريفي الخلاب بسوره المصنوع من جذوع الأشجار، استويت وتنهدت في آن، لقد أننهى الأمر، لقد أتنهى كل شيء وبسرعة، لكن أي جحيم! يجب أن أمنح فرصة للضفادع والطيور المحلقة لتستثمر هذه الجنة، يحز في نفسي أنني لم اكتشفها من قبل، بعد غد سينتهي كل شيء، وأعود مرة أخرى إلى آنتراثيتا في بروبيدنثيا و.... هذا يكفي.

تعثرت في البحث عن الطريق وسط الأدغال الكثيفة التي تدعسها قدمي، حيث تتحول مياه الجدول إلى رغوة لما تتعدى التلال الصغيرة، من جديد زقزقة العصافير المتقطعة في وحدة صامتة، وحدة يلفها صدى ألف تغريدة في آن... سارعت مسيري، كان لويس ينتظرني عند سور الجسر الريفي، ارتحت لما فكرت أنه لن يطالبني بأي توضيح، لكنني أعترف أن اجتهاده لكسر لامبالاتي ولّدت في داخلي قناعة خفية-لم أفصح عنها، لكن الآن أفضل ألا ألتفت للعواقب المستمدة من التوازن بين ما أنا عليه في الواقع وما قد أكون عليه.... لما خرجت من الأحراج تفاجأت من حزم الضياء التي تضيء النهار، رأيت من بعيد صديقي يجلس على حافة الجسر فأومأت إليه، فبادلني بإيماءة مماثلة لما التقينا سرنا إلى البيت وهو تحدث عن أشياء مختلفة.

الفصل الثاني عشر

خرجت في المساء الأخير برفقة حماة لويس لنتنزه، أمطرت خلال اليوم، وأشرقت الشمس قليلًا عصرا بعد أن تناولنا وجبة الشاي فانتهزنا الفرصة لنمطي ارجلنا، هبت ريح الشمال منعشة ولفحت الأدغال الوارفة المنبسطة على جانبي الطريق ونشفت إسفلت الطريق الذي لمعه المطر، باستثناء الحفر التي انتشرت هنا وهناك كأنها برك ماء صغيرة متسخة، تعلقت الغيوم السود بخفة في السماء هنا وهناك، تخطف أبصارنا بلونها الأزرق الطبيعي، التمعت الحقول بلونها الأخضر ومن بعيد تراءت لنا الجبال العالية يتوجها ضباب متناثر.

لم تكن السيدة صوله تخشى رذاذ المطر الخفيف ولا البرد، غادرت البيت بملابسها الاعتيادية ولم تأخذ أي احتياط سوى شال اسود مغزول حملته معها لتحمي عظام الكتف، وعصاها السوداء اللون أيضا ترافقها في هذه النزهة، تستند عليها في كل خطوة مما يجعل مسيرنا بطيئًا ومهيبًا كموكب ديني، أتذكر إنني تعجبت لدعوتها لأن ارافقها في نزهة، لم نتكلم على انفراد مطلقًا، أظن أنه من المستحيل أن نتعرف على الأفكار الخاصة لشخص ما من دون أن نفهم ما يحيطنا، فالسيدة صوله إضافة لاستعمالها سماعة الأذن كان من الضروري أن ترفع صوتك لكي تفهم، لكنني استغربت مما أبدته من مبادرتها:

-بيدرو-قالت لي-أرغب أن أتحدث معك.

ابتسمت لأعبر فقط عن أذاعاني لها، لما تبعتها خرجنا إلى الشارع ثم أضافت:

-هل نقوم بجولة؟

ابتسمت مرة أخرى لكي أبدي لها من جديد عن موافقتي، وهكذا بدأنا نزهة ذلك المساء، كنا صامتين في العشر دقائق الأولى من المسير، لم يتحدث أحد منا، من حين لآخر تتوقف السيدة صوله لتنسحب من الطريق وهي تستند على عصاها السوداء بقبضتها الزجاجية أو لتزيح

حجر كبير الحجم." في تفاصيل تافهة كهذه تتعرف على الأشخاص" فكرت مع نفسي، شعرت بالتسلية لما تأملت أن غريزتي هي التي سترشدني لمحبة أصدقائي.... أدركت أن هذا لا يكون فشعرت بالخجل من نفسي، كل مرة تتوقف المرأة المسنة بعد مسير طويل، انتابني أحساس برقابة داخلية تتملكني. لما قفلنا عائدين على مبعدة بضعة أمتار من البيت استدرنا نحو الطريق، توقفت السيدة صوله وفي هذه المناسبة لا لتزيح حجرا.

-بيدرو-عادت لتقول لي-أريد أن أتحدث معك على انفراد، هذا هو سبب اختطافي لك-ثم ضحكت بقوة قدر ما تسمح لها قواها الخائرة.

ضحكت أنا أيضا مفكرًا أن كانت تريد أن تكلمني بلا شهود من أي نوع، وللمرة الثالثة ابتسمت لها لأخبرها أنني مصغ لها، وبعد برهة قصيرة أضافت:

-بالتأكيد هذا العالم ليس من أجل التمتع، وفي هذا أنت على حق، فالمتعة هي حياة في عالم آخر يستحق العناء.

جاء وقع كلماتها صامتا وخفيفًا على صدري بعذوبة نتف الثلج نفسها التي تسقط من السماء، كانت كلماتها أيضا بيضاء مثل لون شعرها الأشيب، فكرت أن تلك المرأة ستهدي لي خلاصة تجربتها، وبعد صمت وجيز أردفت:

-أنا أيضا عانيت في حياتي مثلك لكنني لم أتجنب هذه المحنة ضد إرادة الخالق، فكرت أن نواياي تكتمل تمامًا بين الناس ومن الحماقة أن نحاول أن ننفصل عنها عنوة، توجد حقيقة فوق الكل تفرض علينا شخصية قدرية: الله، لذلك كل ما يأتي منه نقبله بخضوع، لأننا مجرد مخلوقات، وعمل شيء آخر سيكون خديعة كبريائنا بل حتى تمجيد أنفسنا.

توقفت السيدة صوله مرة أخرى في مسيرها وكلامها، كانت كلماتها محسوبة ولن أكذب أن قلت إنني أرى من وراء شيبها اهتزاز توقد ذهنها ونشاطه، كأنني أرى الأفكار تسير في اضطراب مخيف في المنطقة العليا من الرأس،

بعدها تقطر هذه الأفكار واحدة بعد الأخرى من غربال سميك في جوف ثان، ثم تبلغ فمها لتفصح عنها بانتقاء بل تجيد اختيارها.
يجري كل هذا بتوازن مثالي-واصلت-. الطبيعة والنباتات والحيوانات والإنسان يأخذون ويعطون برجاحة عقل متناسق، إلى جانب الجبال الشاهقة ترى دوما الوديان العميقة، ونضارة الربيع المنعشة التي تلي خشونة الشتاء القاحلة، إلى جانب براعم الأزهار توجد دوما الأشواك، وفترات الخير تتبعها دوما فترات عجاف، والحرب يتبعها السلام والسلام يتبعه الحرب، لتكّون طبقات مماثلة لطبقات الأرض....
هذا هو قانون التناقض الذي يسود العالم، لكن في الوقت نفسه العقل الذي يمتلكه الجميع هو الذي يملك معنى الكون. صمتت السيدة صوله مرة أخرى ثم واصلت:
-لكن هذا التوازن والتناوب ما بين الخير والشر، لا يجوز أن نكتفي لتلطيخه بالتشاؤم، فالتشاؤم يجعلنا نرى الأشواك فقط في خمائل الورود، وموت الإنسان والشهوة في الحب، فالتغذي بالتشاؤم لا يبعث الحياة بل يجعلنا نعاني بها بشكل جسيم، فالتشاؤم يبالغ بتجسيم كل ما هو سيء في الحياة، إضافة لذلك يغير الخير إلى شر، تحديدًا لأنه يلتقط من الأشياء واجهتها السلبية، وهنا يكمن الخوف، والتناقض مع الله، والتناقض مع أنفسنا، عندما تكون الحياة مرة المذاق، يجب تحليتها بأن نقدم لها جبل الجلجلة، ولما تمسي حلوة المذاق، نخفف من حلاوتها لما نفكر أن الآخرين يعانون ما لا نعانيه نحن، ونميل دوما نحو التوازن الذي هو طريق الحقيقة.
صمتت السيدة صوله مرة أخرى، ثم واصلت حديثها العذب بتلك الأفكار التي تختزنها في ذهنها، كلماتها تتدفق في روحي بالعذوبة نفسها التي تنطق بها، لم تخدشني كما كلام بقية الناس لطالما كنت ارغب في شخص يداعب قلبي، بدا لي حديثها كاندفاع نهر يترقرق من جبل يسير من الجهة اليسرى بمسار يناقض مسارنا، وشخصيتي، وبعد أن يتخبط بين الحجارة يمضي تياره صاخبا، ليدخل في ركود لطيف هادئ ومسالم.

بعدها أخذت السيدة صوله نفسا ثم أضافت:
-لذلك من الغباء أن نسير ضد توازن مسبق، فالله لا يبعث مطلقًا ما لا طاقة للإنسان على تحمله، أنه لأمر مرعب صدقني، روح هوجاء، روح تستبق زمنها وتفكر في الليل عندما يكون الصباح وتنغمس مسبقا في كرب الظلام، أمام الشمس يجب أن نبحث عن الظل والنور والضباب، لكن لماذا نبحث عن الضباب في النهار والليل؟
مرت بي فترة عانيت بها من عذاب نفسي أليم، وارتبت بوعي، شعرت بمسؤوليتي عن كمية الكوارث التي طوقتني، دوما في اللحظة الأخيرة، خطوط يدي المخطئة تحرك آليا خطايا الآخرين، نصيحة صادقة سمحت لي أن أهرب في هذه اللحظة. "أعمل-قالوا لي-كما يملي عليك وعيك وأن أرغمت على بذر حسابات مسار حياتك بالجثث، لما تلتقين بالله يمكنك أن تخاطبيه بهدوء:" يارب أنا لم أقتل أحدا" وبعدها مباشرة:" ولم اكذب" ساد صمت.
-وضعك يا بيدرو بالرغْم أنه يبدو لك مختلفًا، لكنه متشابه، فالظلال تأتي من منابع مختلفة لكن المعاناة نوعها واحد، ولكن لا يمكنك أن تعتمد على مباركة الرب، فالحياة يجب أن تحياها بهدوء، يجب ألا نكابد المرارة التي تمنعنا من العيش الرغيد، ولما تصلنا هذه المرارة يجب أن نتجرعها بالصبر ونعلم أنه هناك من يعاني أكثر وهو أشد استياء منا.
" تعرفت على رجل-واصلت-كان يعيش على تغذية تشاؤمه بالنكبات التي يمكن أن تحدث لنا. كان مريضًا مثلك. "كيف لي أن أكون سعيدًا-قال لي-وما أراه اليوم، يأتي الغد مجهولًا. "لم يعر اهتمامًا للتوصيات أو للمشورة. "لو كنت أستطيع تجنبه -اعتاد أن يفضي لي-هل تظن أنني لن أقوم به؟ ولكن هل هذا السواد يفرض نفسه علينا، ليس لي سلطة عليه ولا على حركات الأرض، أنه كالسرطان فأنا أعلم أن داءه سيتفاقم غدا." كلمته لعدة أيام كما أفعل الآن معك، شجعته لأن يزيل وجعه ويركز في حياته على الجانب المفرح، لكنه أخبرني إنه لا يستطيع أن يأخذ ذلك بنظر الاعتبار ليس بسبب انعدام الإرادة، بل باستحالة

استعمال أي مورد، لم أشأ أن أرى تعاسة ذلك الاستنتاج، ذلك الإهمال إزاء علاج ممكن، والذي كان النتيجة الأولى المنحوسة للمرض، لوكنت متأكدة أن رؤية الخطوة الأولى للشفاء تكمن في منع ذلك الافتراض القدري، لربما نجا.
لكن الشر كان يتزايد، فبحث في احتساء الكحول عن حل عقيم-، وما تناساه من آثار قوية جراء السكر تفاقمت بعد أن عجز أن يعود لطبيعته جراء انهياره المتفاقم، ومن الطبيعي أن تتضاعف احباطاته، فيشرب لينسى أنه يشرب، لكنه انتبه بعد حين أن هذه الخطوة هي التي جعلت حياته مزيفة، لم يعد لديه
حل، وكل تلك البشائر التي سببت له المرارة الدائمة بدأ بتحقيقها واحدة تلو الأخرى ولم يعد للعلاج الذي يتناوله أي معنى في حين لم يعد هناك شيئا يهدده، مات ابنه بعد أن سال دمه في مشاجرة، و توفيت زوجته، فأصاب منزله خراب لعين، لكن ذلك تجاوز قدرته على التحمل فقتل نفسه ذات يوم ببندقية بطلقة في راسه. هل تظن يا بيدرو بأن معاكسات تلك الحياة كان مبالغ فيها ففرضت على ذلك الرجل هاجس الانتحار؟ لو أن هذا الرجل قاوم أهواءه، لما أمسى اليوم نموذجًا لليأس، هل نعود؟
لم تتوقف السيدة صوله في سرد روايتها وسؤالها، وهذا ما جعلني أعلم أنها أنهت مهمتها الرقيقة، قفلنا عائدين كما أرادت وقد مشت على الجانب المعاكس للطريق لكي تزيح من طريقها " الأعشاب الضارة "، لم تتكلم شيئا طول طريق العودة، تركتني أتأمل بصمت نتائج حوارها، أتذكر فقط لما مررنا بقرب سياج الروض رأينا فرسا شعرها كثيف ولامع كانت ترضع مهرها في الوقت نفسه، توقفت السيدة صوله في مسيرها البطيء وأشارت إلى لعبة باتجاه الفرس وولدها.
-أنها خيبة أمل يا بيدرو-قالت لي-هذه هي الحياة.
لم تتحدث أكثر، ثم أسندت عصاها مرة أخرى على الأرض واستأنفنا مسيرنا بهدوء، اعترف أن نصائحها أدهشتني بعمق، كانت تعلم عن ماذا تتحدث لما أشارت إلى "مريض مثلك"، كان أخو زوجها، الذي انتحر

بعد أن فقد ابنه بحادث مروع، والذي لم اعرفه حتى الآن هو أسباب إصرارها.
نظري يتجه صوب اللانهاية، كما تسير حياتي دوما وفق مسيرة مصير غير ثابت، كنت أشعر إلى جانبي بوقع أقدام السيدة صوله الهادئة، وددت أن أعرف متى اتخذت السيدة قرارها لتكلمني من صميم قلبها، لكنني رأيت خلف كل ذلك يد لويس التي تخلت عن مهمتها الشخصية لتوكلها على يد أخرى، أكثر قدرة وأكثر خبرة.
من جديد تسليت بإيقاع ضربة عصا السيدة صوله على الأسفلت، كانت تتداخل مع وقع دعستها كنغمة غير متجانسة ما بين قافية الايقاعات الغريبة، كانت خطواتها مثل قصيدة تلطخ أبيات الشعر الحر اليتيمة والمنحرفة بين قوافي المحبين. أفترش الغمام مرة أخرى السماء في الأعالي، بدت السماء ما بين الجبلين كأنها تتوق للحرية، فأشفقت عليها لأنها انحصرت في تلك الهاوية، انتصبت الجبال العالية فوق الضباب يدفعها توقها للحرية، كانت تنشد الضياء كمسلول عطشان لأفاق رحبة، فتبحث عنها في الأعالي، فوق مآسي الغمام الرمادي الذي يعدو فوق أحشاء الأرض، تنفست عميقًا بعد أن شعرت باختناق.
واصلت السيدة صوله مسيرها من دون أن تنبس بكلمة، من حين لآخر تتوقف لكي تدفع الحصى بعصاها السوداء، بعد جولتنا الأخيرة ظهر لنا البيت، أطلقت السيدة صوله نفسا ثم أضافت:
-عدني يا ولدي، أن تتأمل ما قلته لك، لن تخسر شيئا أؤكد لك-مررت العصا يسارا ومدت يدها اليمنى لكي امسك بها، في غمرة ذلك التصافح الودي لليدين التزمت بوعدي.
ورد على ذهني في تلك الليلة بأنني سأربح الحلم لكنني أدركت أن هذا الإحساس المرتكب والرتيب جاء من قصيدة سجع غير مكتملة، كان مسير العجوز، المتكسر مثل قافية متكاملة جراء ضربة كعبها وعصاها السوداء لما تخبط الأرض.....
أستقليت القطار في صباح اليوم التالي وعدت إلى سانتاندير بعد أن انتهت زيارتي لذلك البيت، لما غاب عن نظري آخر منديل وداع في

المحطة ارتميت على مقعدي متأملًا ملتصقًا بالنافذة، أدركت أن روحي اكتسبت صفات في الموسم الماضي في بيت السيدة صوله يمكن أن يرافقها حمام دافئ لجسد متعب، شعرت بانتعاش كأنني تجددت
واعترتني رغبة غريبة لأجدد نفسي، وأن أكون أفضل، لكي يقتنعوا أنه بالرغْم من تعند موقفي كان لهم تأثير معين على شخصي، تأملت مرتبكًا مسير السيدة صوله في المساء المنصرم.
بلا شك أن اللقاء رتبه لويس، فهو مستعد دوما لان يتجاوز أية صعوبات، ابتسمت في داخلي متذكرًا أنه قبل يومين وعدني انه لن يتدخل في المسائل التي تهمني "بعد كل شيء-قلت في نفسي-هو لم يصر، بل من أصر هي حماته" واكتفيت مفكرًا بأن لويس وفى بالتزامه وكلمته....
عاجلا ما وجدت نفسي منشغلًا بنشاط مركب آنتراثيتا، بعد أسبوع من عودتي للعمل تلقيت طلبا من صاحب المركب أن أتهيأ لأبحر في أقرب وقت، ومن جديد دخلت هذه المعمعة بلا نهاية وهي الحياة الفردية كجميع الناس، بعد خمسة أيام أبحرنا إلى بروبيدنثيا، استدعاني الربان خلال الرحلة، حيث كان يطل من الحبال الخلفية لسطح المركب:
-لاحظ يا قبطان هذه الأمواج... هذه الأمواج هي نفسها التي رأيناها في الرحلة الماضية، عرفتها من رغوتها...
وطفق يضحك مقهقها بمبالغة ومغالاة.
-أفضل شيء يحدث للإنسان هو اعتقاده أنه عبقري.... –قال لي بوليا عندما ابتعد الربان بضحكته المجلجلة. مكثت منتظرا وساهمًا من دون أن أدرك تمامًا ما يدور حولي، ما زلت أسمع بنيتو يضحك مرة أخرى وهو يهبط برعونة إلى الأسفل بمكنسة الساحرة.

الفصل الثالث عشر

أن كانت الفترة التي قضيتها في بيت بوليا سنحت لي الفرصة لكي أسبر أغوار نفسي، لربما تيقنت أن شيئا ما قد تغير في داخلي، لكنني منذ سنوات خلت كنت مقتنعًا بثبات شخصيتي، ولن أخضع لامتحان جديد لثبات مبادئي الأساسية، لأنني عل يقين أنها ما فتئت صلبة بلا تغير كما هي دوما، بالرغْم ذلك، أصر على أنني خبرتها وقد لاحظت أن قراري هو مازال نفسه على ما يبدو، قد يكون تقوض، لكن قراري على هذا المستوى من الحياة -لما اقتنعت به فيما بعد- أضحى الآن أضعف وربما فقد فحواه الداخلي لصالح مظهر ثابت ملتزم لا يتغير.

لما عدت للمرة الثانية إلى بروبيدنثيا بعد أن تعرفت على جين، تملكني أحساس داخلي أن لقاء آخر معها يعني فشل نظريتي التي كونتها بعد سنوات من التضحية والتنازلات، كنت في تلك الأيام استمتع بخداع نفسي، "لن أراها أبدا-قلت لنفسي-ولن أتذكرها ولن أورط نفسي بشوقي العذب إليها والخطير." بينما اتخذت من هذه القاعدة دربا لي، كنت أتوق شوقا لها في سريرتي، تحثني تجربة جديدة وهي أن الألم ينتهي حين يبدأ الحنين، كنت أود لقاءها بالغريزة، بالرغْم أنني أحرص على أن أبدو منعتقا من هذه الرغبة، لكنني كنت أخفى في داخلي أشواقي وأسمى الأماني. "لو أنني صادفتها في طريقي-همست خفية بما أسعى إليه- سيكون الله هو من هيأ هذا، وكما قالت السيدة صوله، مخالفة الأحكام تنطوي على المخاطر" لقد وصلت إلى بروبيدنثيا بهذا المزاج، شعرت بشباب يتدفق لمجرد التفكير بأننا كلانا يتنفس الهواء نفسه ونتبادل الأحداث نفسها "كلانا تدحرج فوق موجة الحياة نفسها-فكرت. لو أن تخاطر الأرواح حقيقة موجودة في العالم، هي ستكون الآن قريبة مني جدا." تسارع نبض قلبي بصورة عفوية، وكهربائية تكاد تكون مؤلمة. لطالما حدثت نفسي مخادعًا إياها: "سأذهب يومًا من دون أن أراها أو أسمعها أو أشعر بها... اقتلعتها من داخلي وغادرتها وانتزعتها.... " في

الليلة التالية من وصولنا ذهبت إلى حفل موسيقي شهير، اقتنعت بأن الفن قد يخفف من زحمة أفكاري، فالموسيقى لديها القدرة على أبداع ألم يحتضر مهوسًا، هذا النوع نقبله حينما يداعبنا بدلا من أن يعضنا، يعجبني أن أفكر بموسيقى من صميم أعماقي، واستمع إلى الموسيقى من دون أن أصغي إليها، أي إن انقلها إلى ورائي واتركها تعزف فقط للإثارة ولتحرك رواسب حنيني.
كان المسرح مزدحمًا، والحرارة مرتفعة، كأن الطقس اختزن كل درجات الحرارة، مكثت الناس متوجسة في مقعدها بلا حراك مندهشة ومنتشية..... وعيونهم تتحفز غاضبة فقط لما يعطس متفرج يجاورهم في مقعده، حينها كل النظرات الموزعة على عشرة أماكن تلتقي وتتحول نحو التعيس الذي ليس لديه حل آخر سوى أن يهمهم أو يعطس عند عزف مقطوعة الأكثر حساسية، فيما عدا ذلك أثرت بي الموسيقى كما كنت أتوقع، فثارت أحلامي وخيالي، وأزالت تدفق أشجاني.
لما انتهت السمفونية مكثت ساكنا حتى تفرغ الصالة (لم أستطع أن أفهم ما يقدمه الشارع بعد الدقائق الخمس التي تلت نهاية الحفل، فالناس تتدافع على الأبواب كأن هناك جائزة ستقدم للذين يخرجون أولا، لطالما سألت نفسي لم يتسارع الناس الذين يحضرون فعالية، ولم هذا التسارع يحدث تحديدًا عندما ينتهي العرض، وأن طال العرض بسبب المؤلف او المستمعين عشر دقائق أكثر، لا تسرع الناس حتى تنتهي العشر دقائق.)
نهضت من مقعدي لما خف تجمع الناس عند الأبواب، حينها رأيت خمسة صفوف خلفي، زوجين أكثر صبرا مني، لا يبدو عليهما أي أشارة عجلة لكي يغادرا المكان، شعرت بشلل غريب لما حدقت بهما، كانت جين لكنها لم ترني ولم تنظر إلي، منشغلة على ما يبدو بالحوار مع صديقها الشاب، لا اعرف أي هيجان اعتراني، مكثت بلا حراك، وكأن جسدي شلته نوبة قلبية، لما وقفت وراءها توقفا عن حوارهما و نظرت جين إلى الممر من دون أن يلتفتا لي، تضاعف تهوري تجاههما، هي قالت لي "أهلا" بلا مبالاة، لا أعلم أن كنت قد أجبتها،

وأول رد فعل لي هو أن أهرب مسرعًا، وأضيع بين قطيع الناس الذي يسبقني وأتجنب ذلك اللقاء المباغت القاسي.
أتذكر لما رأتني في الشارع طفقت هاربًا بلا رشد أزوغ بين ثنايا الشارع وأسرع الخطى بين الطرقات بسرعة شيطانية، بغتة رأيت نفسي امثل في قفص الاتهام، مشلولًا جراء عدم مبالاة مشرقة، كأنني غاف وساكن في قيلولة، بعدها خففت من سرعة خطواتي وتنفست عميقًا، أظن أنها المرة الأولى التي تنفست بها منذ أن خرجت من المسرح، غمرتني رجفة متشنجة وقوية لما وقفت على حافة الماء، انعكست على سطحه أنوار المراكب الراسية، لم أر أي شيء حولي وشعرت بحاجة لأن اجلس، وتركت ساقي تتأرجح في الفضاء، جلست على كتلة خرسانية، و إلى جانبي مربط الحبال، مكثت هناك وقتا طويلًا حتى انتبهت أن ضربات قلبي انتظمت من جديد، ثم اتجهت بعدها إلى آنتراثيتا. كان الجميع نياما عدا الحراس، ألفي علي التحية لما مررت من جانبه، لما هبطت السلم توقفت لحظة لأشد بكلتا يدي حبل القارب، فلمحت في أعماق راسي نقطة مضيئة أخدت تكبر تدريجيًا، بعد دقيقتين وجدت نفسي في غرفتي، مستلقيا من دون أن احلم. كنت مجبرًا على أن التقي بها، لطالما لحت تلك الفكرة في أعماقي، لا أستطيع أن أرفض لقائها أو أن أكلمها مرة أخرى أو أعذر نفسي، ما الذي ممكن أن افعله؟ ثم نعود لنفك ارتباطنا، كما فعلنا قبل ستة شهور. هل هناك دافع لأحرم نفسي من هذه المبادرة البريئة؟ لماذا أسمح لنفسي أن أراها مع رجال آخرين وأرفض أنا كليا رفقتها التي أتمناها؟ أنه تصرف أحمق وسخيف وغير عادل، لماذا لا أقوى على أن اعبر عن حبي ليصبح صداقة نظيفة وصادقة؟
لو أنني تفحصت وضعي سابقا بإخلاص، لاندهشت من زيف هذه التأملات، لكن يسرني أن أجبر نفسي على الاعتقاد أنني ما زلت قادرا أن أكبح إرادتي لأمنع قلبي في اللحظة المناسبة، أن عمل الخيانة يتطلب حركة تدريجية لتبدو أقل خيانة، في صباح اليوم التالي هاتفت جين واتفقنا لأن نلتقي أمام المدخل الرئيسي للمتنزه، رأيتها تصل بنفس

الحركة المرحة في لقائنا الأول، لم يتغير شيء فيها، لا من الداخل ولا من الخارج، تلكأت كثيرًا فبدأت اعتذاري لها بعد بضع دقائق، لكنني تملكتني الحيرة عندما أكدت لي جين أنها لم تأخذ على خاطرها، وقفنا أمام تمثال روجر وليام.

-هل ترفضين أن قلت إن روجر وليامس لم يعمد؟

ضحكت هي كما في الأيام الخوالي.

-ولما لا

-أفضل أن تكلمني عنك.

فكلمتها وهي سألتني، وهكذا انصرف ذلك اليوم برمشة عين خفيفة، عاودنا اللقاء مساء، ذهبنا إلى السينما، لما خرجنا قالت لي جين:

-لم يعجبني الفيلم.

-لماذا؟

-كانت نهايته سيئة.

-وما يهمك هذا؟

هناك أشياء كثيرة في الحياة نهايتها سيئة، أتمنى أن نمنح تاريخنا استراحة، في صباح اليوم التالي التقينا أنا وجين مرة ثانية على الساحل، كان بحر الخريف أشد صخبا وأجش من الربيع، نظرت جين عميقًا إلى البحر الثائر.

-البحر يفرض أجواء الخريف.

- لونه الرمادي داكن.

وأكثر برودة... وأكثر قسوة، ولما يتكسر على الصخور يمسي كنذير شؤم، ارتجفت، ثم ساد صمت حاولت أن اكسره:

-لقد اعتاد البحر أن يشعر بالسيطرة.

-من حين لآخر يهيننا بضربات مميتة...

أومأت براسي.

-ارتجفت للحديث عن الموت حقيقة.

-هل تخاف؟

-لما يفقد من أحبهم حياتهم.

-هل هذا سر؟
- لربما يثقلني...
حدقت في ناظري طويلًا ثم رفعت يدها لتسندها على كتفي، وتلقائيًا حنيت رأسي وقبلت كف يدها الناعم.
-لِم تفعل هذا؟ -سألتني من دون أن تتحرك.
-ما الذي أعرفه؟ توجد لحظات في الحياة تفر من سيطرتنا.
مساء ذلك اليوم التقينا مجددًا، تنزهنا في المتنزه، جدفنا في إحدى البحيرات يداعبنا نور الغسق، ثم تناولنا طعام العشاء سوية في مطعم صاخب ثم ودعنا بعضنا حتى اليوم التالي، لما تلاقينا شعرت بهدوء لأنني شاركت من أحب سر حياتي، هذا الاستسلام الفكري الأساسي يعني أنني فتحت لتطلعاتي آفاقا جذابة لمرحلة جديدة ارغب بها وتواسيني.
ففكرت أن "كل شيء سيصبح مختلفًا أن استطاعت هي أن تنتشلني من هواجسي القديمة، وأن أصرت أن تريني الحياة بلون وردي".
بعد ثلاثة أيام عاد الحر بالرغْم أننا كنا في وسط الخريف، اقترحت جين علي أن نذهب إلى بوستن صباحًا ونعود في اليوم نفسه، لما جلست في السيارة المكشوفة إلى جانبها لفح وجهي النسيم كنت أعرف النقاط المشتركة الممتعة حينما نكون سوية، كل شيء يحيط بنا ينضح عطرا وسكينة، ابتداء من السماء بلونها الأزرق الداكن حتى الأرض البنية المأهولة بالرياض الخضر والشجيرات الدائمة الخضرة التي تمنح مزاجنا انطباعًا بالراحة والاسترخاء، بغتة انتبهت أن ساعدي جين عادا ليبدوا برشاقتهما عاريان أمام ناظري، مكتنزتان ومستقيمتان كرجع الصدى لطبيعة رائعة مجاورة، مكثت صامتا وغارقا في تألمها حتى سمعت صوتها إلى جانبي:
-ما الذي جعلك تغير رأيك؟
أجبتها بلا تردد أنني استطعت أن أنضج فكرتين متناقضتين في صدري نفسه، أستطيع أن أخبرها أن دافعا طائشًا أو طيشا دفعني.... لكن أجبتها بنبرة اندهشت منها في داخلي:

-ساعداك؟
نظرت إلي من طرف عينيها.
-فقط ساعدي؟
- وحركتهما.
حركت راسها إلى الوراء وحدقت بي.
-وبقية الأشياء؟
- ساعداك يمثلان كل شيء.
بالكاد تحدثنا خلال عودتنا إلى بوستن، لما وصلنا هناك بدأت جين بالتبضع مستمعة بتلك المقدرة النسائية فتظن أن ما تجده لن تحصل عليه حيث تقطن. تناولنا الغداء في مطعم أسباني، باستثناء اللافتة لا يوجد شيء يمت بصلة لانتمائه سوى أسمه، لما قررنا العودة بدأ المساء يحل، وألقى بظله المظلم، تحركت السيارة تحت نور شمس المغيب الشاحبة، رفعنا غطاء السقف فبدت الظلال الخارجية أكثر ودا وقربا منا.
توقفت جين بغتة في حقل منعزل حتى كدنا أن ننهار، هي مالت نحوي، انفرجت شفتاها الدقيقتان لتنم عن ابتسامة، كان صوتها ساخنا ومختنقًا، فطوقت وجهي وجعلتني مأخوذا شعرت في تلك اللحظة بقربها مني وخفقات قلبي المتواصلة داخل قفصي الصدري، وما يضمه صدري من مشاعر إنسانية تدفق في تلك
اللحظة، تناولت أحد ساعديها وغمرته بقبلاتي الحارة، وهي تركتني لأفعل ذلك، لما رفعت رأسي مرة أخرى رأيت في عينيها تعبيرًا حائرًا.
-أنت رجل غريب-قالت لي-لماذا تعمل بالقليل؟
مررت يدي على كتفها وجذبتها نحوي.
-اعذريني-قلت لها-أنا أحبك.
استرخت على الفور من توترها الجامد ثم وضعت رأسها على كتفي.
-وبعد... شعرت بلمسة شعرها الناعم على خدي، وتصاعد أنفاسها التي تتناغم مع أنفاسي، فتجاذبت أنفاسنا لتلتقي عاطفتنا.
-أن كنت توافقين فلن ننفصل أبدا مرة أخرى.
عدلت جلستها بغتة وشغلّت السيارة.

-أزيد هذا يا بيدرو... كنت أتمنى هذا.
فتحت ضياء السيارة بينما أضاء نور الشارع وجوهنا.
-ليس مناسبًا أن نواصل طريقنا وسط الضباب.
لم أفكر في تلك الليلة في بروبيدنثيا سوى بالسعادة القادمة. لما دخلت مركب آنتراثيتا سرت مباشرة إلى غرفتي، كانت السفينة حبيسة الزجاجة فوق الطاولة، تناولت الزجاجة بكلتا يدي وخرجت إلى سطح المركب ثم هبطت حتى لامست البحر من ممشى المرساة، فأمسكت الزجاجة من عنقها واغرقتها في الماء فهربت من فمها فقاعات الهواء، أخدت هواجسي تغرق رويدا، شعرت أنني أشنق بين أصابعي المشهد الأخير الذي يعيق سعادتي، بعد الغرغرة المروعة ساد صمت، صمت شفاف وصارم لليلة خريفية بزغت فيها النجوم، حينذاك رفعت أصابعي فسارت الزجاجة مباشرة نحو أعماق البحر، لما بلغت آخر درجة من السلم كنت أتصبب عرقا وكأنني قمت بعمل شاق، مسحت جبهتي بمنديلي وتنفست الصعداء وتحررت من السحر وصمت الليل....

الفصل الرابع عشر

خلافًا لما كنت أخشاه، سارت الأيام طوعا لإرادتي فكانت من أكثرها هدوءًا وسكينة، لقد أهملت مخاوفي المظلمة وشؤمي المكفهر وفألي المزعوم، حتى أقتنعت أن حياتي السابقة كانت مجرد كابوس أقصيته عني بفضل العناية اللاهية بظهور جين في تاريخي المضبب، لما أتذكر الآن حياتي في ابيلا ورؤية دون ليسمس المتعرجة وتجربتي المؤلمة والمريرة مع الفريدو أتحفز لأن أتجاوز تلك التنازلات فدخلت مرحلة جديدة من الحياة أكثر إنسانية وطبيعية. لم أعد أتعذب جراء شعوري بالاختناق لما أكون تحت ظلال السرو الوارفة الكثيفة، أن معجزة تغييري أتت بنتائجها وأظن أنني أعجب أيضا أنه ذات يوم في متنزه مدينة بعيدة حدث ما حدث لقلبي، فتعجبت كيف يمكن لبذرة شجرة الصنوبر تبرعم في لحاء النخلة، الآن استعرض هذا كظاهرة زراعية، كنوع من شبح له رأسان أو نموذج لوجه بصورتين للآلهة يانوس، فوق جذع السرو ظللت قلبي جين لكنها زرعت بذرة مختلفة سقيت وأزهرت تحت سماء برعايتها المستمرة.

شعرت بهدوء مخاوفي تجاه الموت المزمجر وعلمت أنه في سياق الزمن "أحدهم يجب أن يباغت الآخر"، لكنني لم أبالغ بهذا الوقع، بالأحرى تقبلته كأحد أعباء قوانين الطبيعة التي تستوجب التحرر منها، وإطلاق العنان للحب قبل الانتقال إلى حياة جديدة ليست أرضية، بعد نيلها في نهاية الأمر وجدت نفسي في وضع هادئ نسبيًا من الألم وغادرت الحقل العقيم والتضحية المطلقة فزعا من أفكار مضطربة، شغفي بجين كان الثقل الموازن لانحراف وضعي، وتاريخي الخاطئ، والذي حتى تلك اللحظة عدّ عقدة من مبادئ أساسية، انتبهت الآن أنه من الخطأ الاسترشاد بالذهن فقط بالحياة، فالحيوية الداخلية هي كما الخارجية، كما التي موجودة في العالم الذي نتحرك فيه، كل ذلك يجب أن ينصهر في معيار من التناسب والتوازن، لكل له استخدام أنساني

وغير أنساني متعسف، مفرط وبلا تناسب، لما نتوصل لأن نغطي بهذا التناغم المتوافق جزءًا من الكل وجزءًا من ذاتي في العالم الذي يطوقني. نادرًا ما يراودني قلق ترسمه مخيلتي على شاشة بيضاء لمستقبل طارئ، وأن حدث لي هذا سأسعى لأن أقود هذا التيار المحتضر صوب مصب أنساني عادي متكيف بدقة.

"حتى اليوم كنت أسير بلا هدى، قلت لنفسي، لأن لم يعلمني أحد من قبل أن أرى النور، لكن الآن تعرفت عليه ولن أهمله في حين أن ربي لم يطالبني بذلك" تذكرت نصائح لويس، وكلمات السيدة صوله، والتجربة المرعبة التي قصتها لي عن حياة صهرها. أدركت كل ذلك في كلمة كأن تساعدني الظروف لأن أفكر أنني اجتهدت بعملي ونسيت خيانتي لمبادئي الراسخة يعني سلوكي الحالي.

في الواقع ارتباطي مع جين كان أملى الوحيد والقريب يكاد يشغل حاليًا كل نشاطي الذهني في هذه الأيام، وبالكاد لدي وقت لأشياء أخرى، ركزت على موعد زواجي بعد أسبوع من رحلة بوستن، تعاقبت الأيام لتمضي مسرعة، كنت مستمتعًا بنتائج قراري بكل معانيه، ماذا سيقول دون ماتيو؟ والسيدة غريغوريا؟ وكذلك مارتينا الصغيرة؟ أنها حقا لفرحة أن أخبر السيدة صوله الطيبة بالخبر! ذهبت لرؤيتها بشكل خاص برفقة جين وأنا اشبك ذراعها، لابد أنها ستتشوق لأنها شاركت في صنع قراراي، وجين؟ لابد أنها ستستمع لأن تطلّع بالتفصيل على كل جزء في إسبانيا! وأنا سأستمتع أن أكون دليلًا لها لخمسين محافظة مجهولة لها وغير معروفة تمامًا...!

لم يتعجب لويس بوليا من الخبر، لكنني افتقدت تعجبه، اكتفى بالابتسامة، أظن أن في أنتراثيتا قد سرى الخبر أيضا كتشنج العضلات، لكن لم يحدثني أحد منهم بشيء، باستثناء الناظر الذي انتهز الفرصة ليضيف بعض الملاحظات الفلسفية الجافة: "القبطان-قال لي-أنا على يقين من فكرة أن الرجال الذين يتزوجون هم من عاشر امرأة واحدة فقط". ضحكت من كل شيء ومن الجميع، لكنني لم أتضايق، شعرت أن حياة باسمة واسعة تستيقظ ويبزغ فجرها.

لقد عشت مع جين أيام زواجنا الماضية، أكاد لا أصدق أننا في غضون ستة أيام سنرتبط بشكل لا جدال فيه، فالارتباط قد يشكل عند البعض الظل الوحيد لسعادتهم، لكنه يعني لي الضمان الصلب، تأملت التضحيات والسهاد والمغامرات والعوارض لكن يمكننا أن نعزز حبنا، الذي يلامس أعماقي وتغرق به روحي الخصبة بمشاعر من حنان متألق، في مناسبات أخرى قالت لي جين وقد خيمت على جبينها ظلال من الشك:

-يبدو أن ما يحدث أكذوبة وما قد يأتي.

وأنا أجيبها الشيء نفسه:

-ماذا نريد أكثر من ذلك؟ أن تبدو الأشياء أكذوبة أو خرافة مذهلة وسعيدة حد الذهول، فالعرس يجب أن يكون في أوائل...

وهكذا حددنا اليوم، عشية استلمت برقية من صاحب المركب يخبرني أن استعجل في العودة، وهذه جعلتنا نفتر كثيرًا، فوالد جين كان يميل إلى تأخير موعد الاحتفال حتى الرحلة التالية لآنتراثيتا إلى بروبيدنثيا، كان يتذرع بأن في رحلة عودتي لن تستطيع جين أن ترافقني إلى إسبانيا، و أن نأجلها ثلاثة شهور، لكننا لم نكن مستعدين أن نتخلى عن سلسلة الإجراءات التي قمنا بها مؤخرًا، بالرغْم أن جين لن تستطيع أن ترافقني إلى إسبانيا، وأن اجتماعنا الأخير يرغمنا أن ننتظر حتى الرحلة التالية لآنتراثيتا إلى بروبيدنثيا، فقررنا أولا أن نتزوج ثم تأتي الأشياء على الوتيرة التي يطلبونها منا، ما عدا ذلك، عشية عرسنا كان بعد يوم، هادئًا وبلا تشنجات أو قلق أو تسابق أو صراخ، لقد هيأت جين لزواجها بلا بلبلة ولا هستيريا بل بهدوء، لكن القلب فقد صبره، في تلك الليلة قبل العشاء قالت لي جين:

-هل هناك مكان في ذهنك؟

-من أجل ماذا؟

-لرحلتنا...

-أفضل الهدوء.

ابتسمت بصمت.
-إذا اتفقنا...
-لطالما كرهت السفر من دون راحة.
-بالنسبة لي، لا مانع لدي من أن نذهب إلى مزرعة عند سفح جبال آبالاجا؟
مسكت يدها بقوة فوقفت جين، وخرجنا إلى الحديقة متعانقان. كان الليل ساكنا وهادئًا، من الجانب الآخر من السور تناهى هدير البحر ومن بعيد عكست السماء أضواء المدينة.
-يعجبني أن أطل من الحديقة على الليالي المنصرمة ليوم متميز.
-لكي نفكر؟
-نعم.
-وهل كانت كثيرة؟
-لما يمضي عليها عام بعد... وبعضها مرات عديدة.
-بماذا تفكر؟
تأخرت لحظة في الإجابة ثم أردفت:
-اليوم أفكر بشيء استثنائي-ثم صمت-هل تعرفين ما اقصده أن الزواج طقس وثني؟
-لا.
اقتربت أكثر مني وحدقت في ناظري.
أريد أن أقول: "الزواج جسر يقود إلى السماء" هل يعجبك هذا؟
-نعم....
-أريد أن اطبعه في قلبينا؟ ثم أسندت بغتة رأسها على كتفي.
-هذا غير ممكن-همست.
استقامت فجأة.
-لِم لا في حلقات حياتنا؟ يمكننا أن نحمله معنا طيلة حياتنا، هل تعرف ما يعني هذا؟

لم تمنحني وقتا لكي أجيب عليها، أخدت بيدي واندفعت إلى داخل الدار. في تلك الليلة نفسها كان تقاربنا يشع كما النار:" الزواج جسر إلى السماء" وفي اليوم التالي أنا وجين ولجنا سوية هذا الجسر.....

الفصل الخامس عشر

خرجنا من بروبيدنثيا في صباح عرسنا نفسه، كان يوم غائمًا ودافئا تداعبنا الشمس من الأعالي من دون أن تضايقنا، بعذوبتها المعتادة، لما سلكنا طريق بوستن شعرت بغتة أنني قاطعت الماضي المحمل بالغموض وأنفتح أمامي عالم مجهول منفصل وغير مرتبط باستمرارية حياتي المنصرمة.
تملكني أحساس من راحة لطيفة لما شعرت أن الهواء يسرح شعري بنفحاته التي تغلغلت إلى داخل السيارة المكشوفة، منحتني رفقة زوجتي الدافئة تصورا لعالم مجهول برز لي بغتة يفوح بأحاسيس إنسانية فطرية، كنت قد دخلت في منطقة العقل والمزاج لما سرنا مسرعين فوق الأسفلت، ساعدني ذلك لان أوسع المسافة التي تفصلني عن الأمس، تشبعت رئتي بالهواء مبتهجًا، والأعشاب المتناثرة على جانبي الطريق تتناوب بانحناءاتها وفق تغيير أتجاه الهواء ، من بعيد إلى الجانب تراءت أول ملامح جبال آبالاجس، متناغمة كأنها تنشد للخالق ترنيمة الكمال. كأن زوجتي استيقظت بغتة.
-لقد أكتمل كل شيء-قالت.
أبتسمت ثم أمسكت بيد بالمقود واليد الثانية أحتضنت كتفها بقوة. وهي مالت نحوي و أبتسمت، مضت ساعة، عرجنا عن الطريق العام وولجنا منعرجًا لدرب ترابي إلى جهة اليسار، ومن هناك أرتفع الطريق بشكل رهيب كأن السيارة لهثت واستنفدت قواها قبل أن نغير سرعتها، بعدها أخذت تعاني ضربات المهماز ثم بذلت جهدا لترفع طاقتها إلى الحد الأقصى، غيرت الطبيعة زخارفها، فالشجيرات والأعشاب تشابكت سميكة مشاكسة على جانبي الطريق، كان لون الدغل أخضر فاتحا، وكذلك لون البحر كان كما في أيام الأعصار. فاح عطر الزعتر وبدت العصافير البرية طليقة في أصقاع العالم، تحلق عاليا بعيدًا بزقزقتها العالية المفاجئة. توقفت السيارة على مرتفع، فانتبهت فجأة أن وضعي

الآن لطالما تطلعت أليه طيلة حياتي، لم يلفت الصمت نظري، بل غياب البشر، كانت عزلة بلا ضوضاء الحضارة الرتيبة...
الآن فهمت أن مقاطعة الماضي له مزايا هائلة لمن يجد له ظلا في المستقبل، فهمت أسباب من حدثني بهذا الاتجاه وأدركت من دون أدنى شك بان الإنسان في وسط الطبيعة يكون قريبًا جدا من خالقه.
لفحني النسيم بعطر دافئ عابر عبقه مجهول، عدت لا ستنشقه وأملأ رئتي به لما جلست جين إلى جانبي، شعت عيونها بتعبير غامض، التفتت إلي من دون أن نتكلم داعبت كتفي، كأن المنظر المنبسط أمامي أعمى بصيرتي، رايته يبعث شعاعه مرة أخرى للحظة، ولما أعود لانتبه بما يحيط بي، تبعد جين شفتيها الحارتين عن شفتي.
لما انعطفنا منعرجًا واضحًا رأيت من زجاج السيارة الأمامي توهج سطحا أخضر لهضبة صغيرة، وعلى مبعدة بيت ريفي، كانت مزرعة بيضاء يحيطها سياج كبقية التي مررنا بها سابقا، لما تقدمنا بالسيارة في المزرعة المسيجة قفزت الطيور المنزلية من كل جانب، تدور ضاجة ومرتبكة وخائفة، بسبب ضجيج منبه السيارة. جاءت امرأة مجهولة وغير معروفة تنم تعابيرها عن ذهول، فصرخت لما تعرفت على جين ولما ترجلت من السيارة احتضنتها متأثرة وضمتها لصدرها برحابة، ظهر خلفها رجل، بدا عليه هيئة الفرح لفحته الشمس وشدت من ازره، كشجرة يافعة، ألقى التحية على جين ولما انتبه لوجودي توقف محتارا، فقدمتني له جين، فتقوس حاجبي الرجل جراء المفاجأة، كان يجهل زواج جين.
-وكريستيان...؟ أين كريستيان؟- سألت زوجتي بغتة.
تجهم الرجل كمن أصابه خزي بسبب تلك الذكرى السيئة.
-سأراك فيما بعد.... أريد أن أتكلم مع شخص ما.
كأن في جواب الرجل نبرة شك، كمن يعاتب.
مرت لحظة متوترة-ثم وضح لنا -" غاب عنا". كان يكره الحقل، وضجر منه، فقلت له: أن أدرت ظهرك للحقل كأنك تنكر والدك ونسبك.

في صوته نبرة مرارة، كان صوته كصوت جنرال يعلن أمام الملأ خيانة أبنه له، بعدها هدأ، كأن حزنه تبدد بوجودنا حتى أنه أبتسم لما دخلنا البيت.

كانت دارا قديمة وريفية، لها مدخنة كبيرة في تلك الغرفة الكبيرة من الطابق السفلي، تتوسطها طاولة كبيرة من خشب الجوز تحيط بها الكراسي، لطخت جوانب حوافي المدخنة وعلق مشجب لملابس الأطفال بمسامير صدئة غليظة.

ورّن السلم المؤدي إلى الطابق العلوي في إحدى زوايا الغرفة، كان سلما متأرجحًا كأنه عجوز تشتكي بعد أن ابتليت بصدمات لا حدود لها، صعدنا واحدًا تلو الآخر نتكلم مع بعضنا فيلتفت الأول إلى من وراءه ومن في الخلف نحو من تقدمه كأننا فصيل واحد، لم تنبس المرأة ببنت شفة، مضت اللحظات على وصول جين غير المتوقع فعادت لتنعزل وحيدة في قلعتها، من المؤكد أنها تفكر في ابنها "الغائب"، ثم التفت لي مخاطبًا:

-لا تتعجب لأننا نتكلم قليلًا، في الحقل نستخدم سواعدنا ونحتفظ بكلامنا. فالكلام هو لسكان المدينة، لأنهم يتولون إصلاح العالم.

أستعمل كلمة "إصلاح" وكأنه من وجهة نظره هو حقا محطم. كلامه ينم عن التلميح لنوايا ما، نوايا حقيقية ورقيقة تنبثق من دون ريب من شكه العميق بالاحتمالات الإنسانية.

تركونا لوحدنا في الغرفة، استلطفتهم وأظن كذلك زوجتي، أخذتني جين إلى النافذة المفتوحة، كأن الطبيعة يطوقها أطار فخم يحتضن في ساعده الحنون كل تفاصيل الخريف المتعددة والخاملة والشاردة، عند أسفل النافذة كان الدجاج ينقر من دون أن ينتابها ذعر منا، من بعيد ترى عشرات الأبقار تتهادى بمسيرها فوق بساط أخضر من العشب، وأبعد قليلًا تبدو الشجيرات متعانقة ومتراصة كأطفال خائفين خلف البستان الوارف عند سفح الجبل وأبعد قليلًا بدت أول بشائر جبال آبلاجا المتعرجة، يخيم عليها ظل أزرق كأنها تود أن تختبئ خلف المجهول،

مرت بضع حمامات بجانب النافذة قرب وجوهنا، خفق الدجاج في قفصه، وبغتة هطل المطر من السماء....
بعد بضع دقائق، غيرنا ملابس السفر القديمة، خرجنا إلى الطريق وشرعنا في جولة قصيرة، كان الطين في الأخاديد قد تيبس، وعلى صفي الطريق توزعت شجيرات الصيف، لا يسمع أي صوت لمحرك، كنا نتوسط بيئة تلاشى فيها الزمن الذي نعيشه، يخص عهود قصية، الشمس في ذروتها، كأنها تريد أن تودع الحقول، ولأنها تفضله قصرت في أداء واجبها لتنظيم الطبيعة بدقة، استمتعت جين بهذه اللحظات من شهر عسلنا الخاطف.
-تمر الأيام سريعة! -قالت.
-ثلاثة شهور لا تستغرق وقتا كثيرًا...
-الزمن تقيسه الأحداث وليس الساعات.
أومأت براسي موافقًا، وهي أصرت بنبرة رتيبة:
-هل ستجري حياتنا هكذا في تقلب دائم...؟-نحاول أن نجد سبيلًا فيها من دون أن يقوى أحد على تباعدنا.
بغتة تذكرت شيئا ما مكث راكدًا خلف تألق الأيام الأخيرة.
-متى تعرفت على لويس بوليا؟
-في الوقت نفسه الذي تعرفت به عليك.
-هل تعاملت معه؟
-قليلًا.
-يجب أن تخبريني دوما الحقيقة؟
-نعم.
سرنا قليلًا لتتهيأ للجواب:
-كان حليفي.
-نعم.
شبكت ذراعي بيدها ثم أردفت:
-احتاج لحليف قربك.
قبلتها من راسها.

-كذلك أتوقع منك.
-إن لن تستاء من ذلك؟
-أن كنت حقا تحتاجين...
-أمر لا استغناء عنه.
حضنتها وواصلنا طريقنا، بعد بضع قائق أضفت:
-الآن يجب علينا أن نصفح عن بعضنا في العديد من الأمور.
-هل لديك الكثير من العيوب؟
-عادية
حلقت الغربان عاليا تنعق من بعيد.
-هل تعرف تاريخ الغربان؟
-لا.
ألا تعرف لماذا ترتدي السواد؟
أبتسمت.
-أجهله تمامًا.
-قصوا علي ذلك في قصة لطيفة لما كنت صغيرة، حسبما ورد أن والد الغراب مات في سفينة نوح وحينذاك كانت الأم تحتضن البيض، أي ولد كل أطفاله بعد وفاته.
-مساكين.
-انه حقا أمر مؤسف، أليس كذلك؟
-لكن مضى وقت طويل ويجب أن يفكروا بفك حزنهم.
استدرنا فدارت الغربان في دائرة عن يميننا، وبعد قليل هبطت باتجاه مدخل الجبل، لقد هيئوا لنا الطعام في المزرعة ووضعوه فوق طاولة صغيرة تحت شجرة منغوليا كبيرة، لما دنونا منها تطاير من أغصانها رحيق أصفر مبهرج، أحد الأطفال لطخ وجهه رمقنا بمزاج متعكر وهو يحمل مصيدة لا تجديه نفعا لتلك اللحظة، انه الأبن الثالث للزوجين، إلى جانبه وقف طفل آخر بالكاد بلغ عامين من عمره يمد لسانه المتهدل وإيماءات محرجة، كان أصغر أخوته.
حملته جين.

-أين كريستيان؟
دمدم الصبي الصغير بكلام غير مفهوم واجتهد لأن يتخلص من ساعديها.
-أ...أ...أو...ت... -قال
-في الجبل؟
-نعم...
أطلقته جين، فهرول باتجاه أخيه مصرا بعناد لأن يتجه نحو الجهة التي يرغب بها.
لما حل المساء تعرفت على كريستيان، لما رايته أدركت أنه هو من بنيته الرياضية الريفية، كان عابسًا وفظا ومنغلقًا على نفسه، بذلنا ما بوسعنا لنجعله أن يفتح شفتيه لينطق بكلمة، لما تواصلنا معه بالكلام لم نجد في قاموسه المحدود كلمة واحدة لطيفة.
- في الحقل التجأت الحقيقة الوحيدة التي بقيت في العالم.
-أفضل المدينة.
-أمر لا يهمني.
-لا يهمك؟
-لا.
رمى بسيجارته ساخطًا.
-أنتم لا تعرفون ما هو الحقل لذلك تتغنون به لكنكم لو تعرفتم على جحوده لفكرتم مثلي.
-كل شيء يبدو قليلًا يا بني أن كنا نحافظ على توازننا بهذه الطريقة.
-أن كنت ستجبر على القيام بعمل ما فوداعًا للتوازن.
-لربما أنت على حق فيما قلته.
-طيلة الوقت وبالإضافة لذلك، من أجل ماذا؟
-ماذا تقصد من أجل ماذا؟
للعمل من أجل الآخرين، لماذا أعمل من اجل الآخرين؟ ماذا فعل لي آلآخرون؟

أشعلت سيجارة لأخفي أحراجي البسيط، وشعرت باستياء لأن من أعدّه اقل مني يتحسر في حضوري على وضعه غير المستقر، شعرت بذنب من التعاسة التي يتأسف بسببها.
-ينبغي علينا جميعا أن نعمل من أجل الجميع.
-لكن عندما يوجد تعويض وأنا أي تعويض حصلت عليه؟ أذهب إلى أعياد القرية مرتين في العام، ثم ماذا؟ يجب علي أن أسير مسافة طويلة لأحصل على النزر اليسير، هل هذا هو التعويض؟
كان والداه ينظران إليه بفزع من المدخنة المشتعلة، كان الطفل الصغير نائمًا في حضن أمه، والآخر كان يتأمل وقد أسند راسه بين يديه.
لما واصلت أصراري، بدا لي ألا أتفوه بكلمة تزيد من توتر ذلك الشاب المتمرد "الساخط" الذي قد يتشاجر مع ساكن المدينة.
-ألا يعد تعويضًا أن ترى ما يخصنا ينمو ويتطور ويكتمل يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة...؟
أجاب كريستيان بنفاد صبر:
-من أجل ماذا؟ قل لي من أجل ماذا؟ ما الذي يهمني أن أستيقظ يوميًا الساعة الخامسة صباحًا لأفكر بما ضاعفته من أملاكي التي بدأت أعمل بها منذ ثلاثين عاما خلت. قل لي، ما الذي سأجنيه من مضاعفتها؟
خفضت صوتي خجلا مسبقًا واجبته:
- القناعة... قناعة داخلية على الأقل.
أطلق قهقهة قوية ومؤلمة حتى ظننت أن عوارض السقف الخشبية كادت تتأرجح.
-مللت من القناعات الداخلية، هل سيتوافق الجميع بقناعاتهم الداخلية؟ لا أليس كذلك؟، لماذا يجب أن اقبل بها؟ كلنا نريد قناعات من نوع آخر، أكثر مادية من التي تبتغوها أنتم، لكن من تلك القناعات التي ترى وتلمس.
لما نهض تأمله والده من طرف الغرفة، بينما السنة النيران انتزعت من وجهه المجعد الداكن الغضب المشع لمزيد من التفاصيل، قفز ليجلس إلى جانب أبنه تلقائيًا.

-أصمت الآن يا كريستيان! أذهب للمدينة، لكن أنتظر حتى يكبر أخوك عامين ثم أرحل....
خف تأزم الأبن بعد لهجة والده الحادة، ألم تحصل في النهاية على ما تتطلع إليه؟ طأطأ كريستيان رأسه.
-تصبح على خير يا والدي
هبط السلم، ثم ساد صمت ما فتئت ترن به أمواج كلماته الأخيرة، أحتضنت الأم الصغير بين ذراعها
وودعتنا، كانت عيناه تلتمعان جراء قربه من النار، لما توارى عن الأنظار في أعلى السلم لاحظت أن قلبي تسارعت خفقاته.
-لنذهب نحن أيضا-دمدمت جين في مسمعي بعد أن بقيت صامتة طيلة الوقت.
خرجنا ولما أغلقنا باب غرفتنا شعرت بغليان دمي الذي يسري في جسدي، وكأن حياتي تلخصت في تذبذب تلك اللحظة.
-كريستيان شخص متناقض-قلت ذلك لمجرد أن أقول شيئا، ثم أطفأت الضياء.
لم تأبه جين، دخل نسيم منعش من النافذة المفتوحة في تلك الليلة الخريفية، تلألأت النجوم في السماء وبدت الجبال متناثرة فوق سماء كأشباح نائمة. كانت جين تخشى أن تنصرم تلك الأيام بسرعة، في صباح اليوم الثالث رتبنا أمتعتنا على عجل وتهيأنا للعودة إلى بروبيدنثيا، حياة هؤلاء الناس كانت راسخة على مدى ثمانية وأربعين عاما و مفعمة بأحاسيس ودية، لما قطعنا علاقتنا مع المزرعة كان ذلك أشد ألما مما كنت أظن، لم أتوقع أبدا أن أمرا ما خلال ثماني وأربعون ساعة يخلع فؤاد أنسان، أستلطفت الساعات التي قضيتها هناك، سنوات سعيدة لذكريات متعددة ستلتصق بنا، كنفحة في تسلسل الزمن الصارم، على أية حال الزمن المشار إليه قد انقضى والآن نواجه أفقا واسع الظل، اتفاقًا مع فكرة جين أن الزمن لا يكمن في الساعات بل في الظروف.

كانت جين إلى جانبي، غطت ساقيها بغطاء خفيف، لم تتكلم لكنها بالتأكيد كانت تقلب شهر عسلنا الموجز في خيالها، ماذا تفكر؟ لربما في أول مرة نتناول طعامنا تحت شجرة المنغوليا البراقة، أو في مسامرة الليلة السابقة أمام طقطقة النار، أو عناد كرستيان، أو بنزهتنا المُتعبة في المساء الأخير، حتى القمة عند المرتفع؟ ألم تقل هي، لما رأت العالم من هناك" الأرض مثل مربعات جميلة، كالساعات؟ لابد أن خيالها في تلك اللحظات بلغ ذروة حدته العالية لذلك المساء المنصرم، عادت لتركز ناظريها على السفح الساحر لكي ترمق كل العقبات وكل الحوادث التي صادفتنا في طريقنا حتى اللحظة، لما ترصدها من برج المراقبة تبدو مضحكة وبائسة.

قطعت السيارات الكيلومترات بلا حنين، تمنح الأشجار وجانبي الطريق انطباعًا أننا نسير خلف قضبان الأقفاص، عاجلا ما طلت أمامنا بيوت بروبيدنثيا، برزت أعالي سقوف البيوت البناء المتناسق للمدينة، ما أن توقفنا عند بيت جين، طلبت مني أن أنتظر لحظة لكي تهيئ لي مفاجأة، بعدها قدمت لي صورة بورتريت زيتية رائعة لها لم أرها سابقا. أعطتني إياها فرحة.

-خذ أنا سأبقى لكنها ستمضي معك، سترافقك لما نفترق عن بعضنا! أنظر...!

مع حبي الخالد....

كتبتها عند نهاية اللوحة مع *حبي الخالد*، تعانقنا وكان لوقع صوتها لما قالت لي مع *حبي الخالد* وقع خاص في أعماقي إلى الأبد. نظرت للوحة من فوق زوجتي وأنا احتضنها بقوة وكأن لا شيء آخر في حدود محيط البصري، توقفت عند الكلمة السحرية: *إلى لابد*، كانت كلمة هائلة جدا لتحديد موقع الإحساس في العالم، كانت رغبتي الشديدة من أي شيء آخر بأن لا إحساسي ولا أحساس جين ينفصلان عن بعضهما بل يمكثان خالدين معا "لا تبدأ بسلوكك الشاذ"، قلت لنفسي وانجذبت أكثر باتجاه جين، كأننا نريد أن نذوب ببعضنا، حينها محوت من ناظري الصور الخارجية وشعرت فقط بروحينا تخفقان برتابة. رافقتني جين حتى

رصيف الميناء، أقترب زورق من أنترثيتا، أشار لي عامل الميناء لأن أمسك الزورق بسرعة، بينما القت جين بنفسها مندفعة بين ذراعي.
سأعود على عجل-همست.
قبلتها بصمت، ثم هرولت باتجاه مقصورة آنتراثيتا ممسكًا بالدفتر تحت ساعدي، مكثت ذكرى جين عند الرصيف لما أبتعدنا عن آنتراثيتا حية في داخلي، وهي لم تكف عن وداعي بيدها، راودتني فكرة كيف لشخص مهمش ومحطم مثلي أحدث في العالم ضجة كالتي في داخل هذه المخلوقة اللطيفة؟ شعرت أنني الوحيد في تاريخ العالم، محظوظ و....
بعد أن تجاوزت المفاهيم التقليدية، إزاء البحر الواسع، شعرت أنني أمحو بأصبعي ضغط الزواج، أنه ضغط قول مأثور، ثم افترضت أن هذا الإحساس يجب أن يكون مشابهًا لمن جرب جوادًا بريا بحدوة لأول مرة.

الفصل السادس عشر

بدأت أفكر بتلك الفترة بأعمال الناس كما تفكر جين بالأرض والصور الجميلة، وأقصد أن أراهم بكل أبعادهم وتفرعاتهم وعواقبهم، كان من الضروري مراقبتهم من بعيد، لأن ذلك أفضل، لما التقينا مرة أخرى في إسبانيا، كنت ما زلت أتبع عجلة الرتابة الدائمة، انتبهت إلى التغير المفاجئ الذي ألف بناء حياتي في لحظة، قدرت تلقائيًا أن الثورات الإنسانية الكبيرة أو التي تقع في دواخل الإنسان، تقع في لحظة لكنها تتشعب بعدها ويتوسع تأثيرها أحيانا ليمتد سنوات أو قرونا.
في بعض الأحيان أكون فكرة شفافة عن الخيانة لكنني أدرك بعدها أنها المرة الوحيدة التي تحركت فيها أعماقي باندفاع بينما كنت أتلذذ في قرارة نفسي بالماضي السيئ الذي اقره قلبي وعقلي، لم أحاول أن أبرر زواجي مطلقًا، تقبلت الأمر الواقع، فالحياة قصيرة لكنها خصبة، لكن من دون ارتباط تبدو رتيبة وطويلة بشكل رهيب، ألم أربح شيئا؟
كنت أسعى دوما لأن ازيل الأفكار القديمة التي تعصف برأسي، فأطرح الآثار المحتملة لعملي المتعمد لكي ابررها، كنت أصم أذني لأنني أفضل أن امكث في مساحة حيوية مختارة بالرغْم أنني لاحظت باستمرار أنني أمحو بأصبعي المأزق الذي ينتهي دوما بمشاركة عواطفي معه بأن "الزواج هو جسر يؤدي إلى السماء" فتوصلت في تلك التأملات العابرة إلى حل جذري: أن أنظر للحياة متطلعًا للأمام من دون أن أتأثر بتأملات الماضي المربكة، اقتنعت أيضا في تلك الأيام بأن الروح تنعم بالسلام عندما يكون الجسد متعبًا، ربما لهذا السبب يتعب الجسد، ولكي أسعى إليه يحثني أمل مشؤوم، لم يجد جسدي راحة في تلك الشهور الثلاثة الطويلة، فكرتي الأولى هي أن أزور إسبانيا، وأن أزور السيدة صوله لكي اخبرها بالوضع الجديد، لكنني لم أستطع ذلك، فالسيدة صوله ذهبت إلى إشبيليه بحثا عن طقس وديع لتحتمي به من الشتاء القارس، لذلك قررت أن اكتب لها رسالة، لأشكر لها تأثيرها علي الذي غير معاييري

القديمة، وبعدها أنصب اهتمامي على مستقبلي، من الآن فصاعدًا لم أعد أريد البحر ولا التقلبات الجديدة، أصبح نموذج حياتي يتركز على جريان الوقت في مكان هادئ، خطوة تلو الأخرى، حيث يمكنني أن اكدس الذكريات العائلية لاجترها واهضمها في شيخوختي فيما بعد.
أفزعتني السعادة الغريبة التي سادت حياتي، بعد أن هنأني صاحب المركب وجد أن رغبتي طبيعية تمامًا ووعدني أن يسمح لي بمرافقة جين في الرحلة المقبلة، وبموقع وظيفي مقبول في مكتب سانتندير. كنت أستلم رسائل من جين باستمرار، كانت تكتب لي كل الأيام، لكنها تتكدس لتصلني كل عشرة أو اثنتي عشرة رسالة فالتقطها حسب تسلسلها الزمني لا قرأها، كانت خطاباتها سلوى وصبر لوحدتي، أولى مجموعة رسائل استلمتها تحدثت فيها عن الإحساس الرهيب الذي تشعر به لما ترى مركبًا يقلع من رصيف الميناء يحمل شخصا نحبه. "كأن-قالت- الزورق حباله مرتبطة بصمام القلب سواء رسا أو أقلع من مكانه رويدا" بالتالي حدثتني عن أمالها ومشاريعها، وكيف أنها أعدت تقويمًا متكونا من أربع وعشرين مربعًا أبيض اللون في كل يوم تحذف منه مربعًا والمتعة التي تعتريها لما تحذف كل صباح تسع ساعات من الحلم. "انه تقويم-وضحت لي-أحمله دوما معي وكلما تباغتني دقات الساعة أخرجه لكي أمحو مربعًا أبيض منه، أنها متعة بسيطة ومنعشة أن أتذكر أنك موجود في جوارحي. بهذه الطريقة يمضي الوقت، وعادة ما يكون ممقوتًا، فيتحول هكذا إلى شيء محبوب لأنه يسمح لي أن أستثمر رويدا الطريق المؤدي إلى لقائنا النهائي."
كانت تحفزني في كل رسائلها لأن أتحلى بالصبر "لم يبق سوى بضعة أيام"، كانت تصر على ذلك وكأنها لم تكن تثق بي، كانت تتذكر سلوكي الغريب في يوم وداعنا في المطعم، في ذلك الوقت كان تفكيري شفافًا كما الزجاج. "مرور الزمن يرهقنا-قالت-لكن ما أن يحدث هذا يمضي بخفة أرنب بري." جين على حق، أول أسبوعين يمضيان ثقيلان،

فكرت: "خمس رحلات أخرى وسيتبدد كل شيء". مضت الأيام بسرعة أمام عيني المندهشتين، ما أن أستقر طريق مستقبلي واهتمامي الأولي بدأت أبحث عن سكن لنستمتع فيه أنا وجين بحياتنا.

كانت جين تتحدث عن ذلك في كل رسائلها، كنت ألح عليها أن ننجز ذلك عاجلا فزودتها بتفاصيل منزلنا، وبهذا الدافع زرت العديد من الشقق المعروضة للإيجار في المدينة، لكن لم تعجبني أي واحدة منها، كنت مدركًا أن الحب لكي يتواصل لا يكفيه قلبان متحابان، بل وسيلة مناسبة لتجمعهما، وجدت أشياء المدينة معتمة وحزينة مساحتها كبيرة لكن ضياءها خافت، كنت أرغب ببيت في طبيعة دائمة الحضور، لا يفصلنا عنها سوى حواجز زجاجية شفافة، في النهاية بعد بحث مكثف قررت أن أبحث عنه في ضواحي المدينة، فصدمت لما وجدت بيتا مناسبًا لرغبتي الحقيقية، كان البيت محاطًا برابية خضراء واجهته الشمالية تؤدي إلى البحر، لم تكن كبيرة بالرغْم أن غرفها كانت رحبة، يتكون من طابق أرضي وطابق علوي، وحديقة صغيرة يحميها سياج حديدي قصير وباب منيع مقابل الواجهة الرئيسية، لما فتحت الباب لأول مرة وسمعت صريره المزعج أدركت عاجلا أن صوته الهادر سأتعود عليه بلا شك لكي أواصل حياتي، لما تفحصت البيت وقعت العقد عاجلا، متخوفًا لئلا يسبقني أحد ما، من هنا وأنا متكئ على مدفأة كتبت رسالة طويلة لجين لأخبرها بما وجدته، فكتبت بالتفصيل سعة البيت وهيئة الغرف، ثم شرحت لها شكل وأبعاد الحديقة، و أشجارها القليلة وانتشار الشجيرات ووضعنا في الربيع لكن بقليل من العناية من قبلنا ستقطنها مجاميع من الأزاهير العطرة والوافرة، بعدها وددت أن أذهب لأقضي المساء في بيتي الفارغ، وهناك أقرأ رسائل جين وأيضا أجيب عليها، وشيئا فشيئا بدأت املأ البيت بالأثاث والتفاصيل الأخرى، وأخذت بنظر الاعتبار كل نصائح زوجة لويس التي كانت تحفزني على الأثاث القديم لمزاياه وللتوفير، ذات يوم قدمت لي كرسيًا مقعرًا مغلفًا بمخمل مع شمعدانين تم ترميمهما لوضعهما على جانبي الكنبة التي وضعتها أمام المدخنة، وآخر مع طاولة من خشب جوز سميك للمكتب، وهكذا

توالت الأشياء فانتابني شعور من الراحة يرضي ويبهج. ذات يوم كنت أتصفح صحيفة أثاث أمريكية، ففكرت أن أشتري صندوق خياطة لزوجتي، ما أن فرغت من تصفحها ساورتني الشكوك أن كان ذلك لا يناقض القواعد الأساسية للذوق السليم، تشاورت في الأمر مع زوجة لويس التي أكدت لي أنها تفحصت بحق المجموعة.
-بالحقيقة أنا أجهل هذه الأمور-قلت لها-لما أفكر في شيء أتصور دوما أفضل نتائجه.
-لقد فعلت حسنا أن تبدي قلقك، فالسعادة أحيانا تجعلنا نستهين بالتفاصيل المهمة.
فيما بعد بذلت قصارى جهدي لتأثيث البيت، غالبا ما كنت أتردد في انتقاء مجموعة الأثاث.
"لربما هذا الكرسي إلى جانب تلك الطاولة قد يفسد علينا فرحتنا-تأملت- لو وضعناه بقرب ذلك المصباح الأرضي." ومن جديد أنقلب شكل البيت لأن أي تغيير في المقعد يغير الأثاث كليا.
لكن في نهاية الأمر أصبح البيت صالحا للسكن، ذات مساء بعد ترتيب التفاصيل، قالت لي، تهمس فرحة:
" لقد أكتمل ولا ينقصه سوى السكان". فغمرتني سعادة لا حدود لها.
في تلك الفترة تلقيت التهاني من عائلة ليسمس مع هدية رقيقة. لكن تحت خطوطها الودية ظهرت رواسب تحفظ جارح، فالسيد ليسمس أضاف إلى تهانيه بعض السطور في البداية لم أفهمها لكن بمرور الوقت تمكنت من استقراء ما تعنيه باللهجة العامية:" الرجل المثالي-أكد-يبدأ حياته بعد أن يستوعب تجربة جميع الأجيال التي سبقته أعواما."
أرسل لي تمثالًا لامرأة صينية على كتفها شال يضم طفلين يبلغان بضعة شهور. هذه الهدية إضافة إلى هدية عائلة لويس وأولئك الذين تربطهم بي علاقة عمل كانت الوحيدة التي تلقيتها بمناسبة زواجي.
ذات ليلة كنت اجلس مقابل المدفأة الموقدة في البيت، تأملت كل شيء من حولي: "حقا-قلت في سري-أمر لا يمكن أن نصدقه أن رجلا بلغ منتصف العمر من دون صداقات..." لكن الصداقات كانت هناك فوق

المدخنة: تمثال البورسلين وعلبة التبغ وعلبة أخرى ومجموعة كتب وشمعدانين ثقيلين...
فهذه تمثل كل حياتي الخارجية، والصداقة الوحيدة التي غيرت مسار حياتي كان الدرب الذي فتحته في وسط مجتمع أنساني محدد ومكثف.
ذات يوم، قبل أسبوع ونصف من عودتي لبروبيدنثيا سلموا لي ست رسائل لجين، انتظرت كما تعودت حلول المساء لأقرأها بهدوء بقرب مدخنة البيت، خرجت من آنتراثيتا بعد ساعتين من تناول الطعام، كان مساء ممطرًا غائمًا، لربما بسببه شعرت بثقل في صدري، سرت حتى البيت مسرعًا عما تعودت عليه، فأصدر باب الحديد صريرًا عندما فتحته، كان صريره بمثابة ترحيب ودي مبهج، افتقدت وجود الكلب "نعم خلف باب السياج يهرول بالحديقة، سنمتلك كلبا ليلقي علينا التحية بضجيج وجلبة مريحة كلما وصلنا الدار، مثل فاني في دار دون ماتيو."
مكثت برهة أفكر "مثل فاني؟ حسنا لن نملك كلبا" دمدمت مع نفسي بكلام غير مفهوم ثم دخلت الدار.
طلبت (فلي) العجوز لخدمتي مؤقتا كانت توقد لي النار كل مساء، لما أدخل الدار أسمعها تقلب الحطب يمينا وشمالًا فيمتص اللهب المتوقد الحطب الرطب، لم تنتبه لدخولي الغرفة فتفاجأت وهي تجلس القرفصاء، كان خدها صوب الجانب الأيمن بينما تقلب الجمر الخافت بإتقان لتهويته، تأملت الجانب الأيمن من المدخل. "للحياة شكل آخر من هنا -قلت في سري-فابتسمت وأنا مقتنع في داخلي، فأججت فلي النار في هذه اللحظة بنفحة خفيفة وشديدة، فتوهج الجانب الأيمن، لما رفعت فلي وجهها ووقفت متعثرة رأتني:
-مساء الخير سيدي.
كان الحطب يطقطق في المدخنة ويحدث شررًا مبهجًا، تظللت الغرفة وارتسمت ظلال وهج السنة النار تتأرجح على الجدران ، ذهبت فلي إلى المطبخ وتركتني وحيدا، دنوت من إحدى النوافذ الكبيرة، كانت قطرات المطر تلمع فوق الزجاج لتترك أثرا رطبا ولامعًا، رأيت عن بعد بيتا ابيض معلقًا في السماء ينفث من مدخنته دخانا أسود كأنه زينة

من ريش تتطاير في السماء، عند الأفق بدت الجبال كقطع تناثرت بسماء رمادية ثقيلة رصاصية، تذوقت الطقس الدافئ في منزلي الجديد، فسحبت الستائر مباشرة وأشعلت النور فوق الكنبة المحاذية للمدخنة، أخرجت ربطة الرسائل من جيبي بشغف غريب وجلست، رتبت الرسائل الست حسب تسلسلها الزمني وفق ختم الطابع، قربت قدمي الرطبتين من النار وفتحت أول....

كانت قطرات المطر ترن برتابة في الحديقة، تراقصت أمام ناظري كتابة جين ولا أعرف لِم أقرأها ببطء وحذر، كمن يسير في العتمة لئلا يعثر "أول شيء أود أن أخبرك به هو بأننا سنحصل على أبن عاجلا..." تملكني أحساس مربك فاضطررت أن اكرر قراءة الجملة لأدرك معناها، كأن جسدي توغل في الزمن حتى الخلود، أبن! هذا الكائن هو نتيجة لي!، فتوضحت لي مباشرة عبارة السيد ليسمس التي لصقها كملحق غبي بتهنئته الباردة:" الرجل المثالي هو الذي يبدأ حياته بعد أن يستفيد من تجارب الأجيال التي سبقته في الزمن".

كان من الأفضل أن يقول لي بكلمات طيبة " من الحماقة أن تعثر بالحجارة نفسها التي عثر بها الآخرون" لكن لماذا نحكم على هذا أنها عثرة؟ فأنا لم أعد أرى الحياة رمادية اللون، لأنني عثرت على نفسي، ألم أقومها؟ من السهل أن لا نترك شخصا يعثر لما يبتدئ حياة محايدة، كفرحة جين، ركزت في السطور بعفوية وارتباك ثم بددت من ذهني عبء غمامة بشعة،" الطفل سيشبهني وكلما مر الوقت سنتشابه كقطرتين من ماء..."

لما فرغت من قراءة الرسائل تمددت وأرحت رأسي على ساعدها سمعت هطول المطر بلا توقف فوق الحديقة، فاختلطت أصواته بضجيج نار المدخنة، ثمنت دعمها لهذه العاطفة الجديدة ولهذا الموقف الحساس، الذي أشاع ضجيجًا في أعماقي. أشعلت سيجارة، فرأيت المصباح فوقي متوهجًا ومشكاته ترسم وهجا مضيئًا، "الحياة جميلة أحيانا-فكرت-حزمة الضياء ستظللنا ذات يوم نحن الثلاثة، كان المطر في الخارج يطحن الحقول باستمرار ونحن نجلس حول المصباح، وجين ستنسج الغزل

فهذا العمل الذي لا تفرغ منه النساء مطلقًا، أما أنا سأقرأ بصوت خافت في وضعي هذا نفسه، وسيلعب الطفل عند قدميها فوق السجادة، أما هي من آن لآخر، تداعبنا نحن الاثنين بالتناوب، بالخارج يواصل المطر هطوله، يطرق على الزجاج بأصابعه الرقيقة الشفافة، أحيانا تكون الحياة جميلة..."

لا أدري كم مر من الوقت وأنا غارق في هذه التأملات وكأنني في حلم، فسمعت فلي تودعني وتغلق الباب الرئيسي، بعد قليل رن صوت باب الحديقة الصدئ، جلست لوحدي هادئًا من دون رغبة لأن أتحرك، بعد قليل، في وقت لاحق، انتبهت أنني منذ ساعات غارق في هاوية مغلقة من الشرود، تحركت بكسل ومطيت جسدي، "من ذلك الباب-قلت لنفسي لما رأيت أحد مداخل الصالة- ستدخل جين لتخبرني أننا يمكن أن نتعشى متى شئت، و سيكون الطفل نائمًا في هذه الساعات ، لربما في هذه الزاوية، خلف الكنبة، ستكلمني جين وقد وضعت أصبعها على فمها لئلا أوقظ الطفل، ولربما فلي ستدعوه "يا ملاكي"، مكثت صامتا ثم فتحت الباب الرئيسي، عدت لأتأمل الصالة المضاءة، فأطفأت جميع الأنوار.

كان حد الباب الخارجي بارزا في العتمة بالرغْم ظلام الليل. "من هذا الباب سيدخل يوما ما كزوبعة لما يعود من المدرسة، وستدخل جين محملة بالعلب لما تعود من التبضع و.... ذات يوم لربما يكون قريبًا، سنخرج أيضا في صندوق محمولين على الأكتاف تسبقنا الأقدام." نفضت رأسي بقوة.

لماذا كل تأملاتي قاتمة؟ تناولت المفتاح وهبطت الدرجتين اللتين تفصلاني عن الحديقة، هطل المطر غاضبا ليبللني، هل يمكن أن نطرح الأشياء على الأرض من دون أن تتمرغ؟

سرت في طريق غير مأهول ومعتم، وخضت بقدمي في كل برك الماء وكأنني أخترتها، كانت الأرض تفوح عبقا، وفي النهاية بلغت أول البيوت، التمعت الشوارع تشع براقة وعكست القناديل نورها الخافت، رن من بعيد صوت صفارة القطار مدويا، لقد مرت آخر قاطرة منذ ساعة، سرت مسرعًا بشكل تلقائي نحو الميناء، يتردد صدى خطواتي

في صمت الليل الرطب، لما استقريت على اتجاه محدد كأن نغمة غريبة ومزاجية ترن في أذني:" سيكون لك أبن... سيكون لك أبن..."

الفصل السابع عشر

جاء أخيرًا يوم مغادرة بروبيدنثيا، بالرغم من أنه يوم بارد لكنه كان صافيا حيث سطعت الشمس من سماء زرقاء، ابتعدت عن الرصيف ببطء وبصعوبة، وقد أضنيت روحي بنرفزة أعصابي الحادة، تذكرت عدم صبر لويس، لم يمر عام بعد، لما غادر بروبيدنثيا:"أود لو أنني أبلغ إسبانيا بقفزة... فالعائلة تعاني ومن دون أن نعي بدأنا بالشيخوخة، أمر لا يمكن معالجته" في هذه المناسبة حدث لي أمر مشابه، كنت أرغب أيضا أن أقفز بوسيلة نقل سريعة أو كأي وسيلة سريعة وفعالة لأنتقل إلى ساعدي من أحبها ولو للحظة، انهالت علي الأفكار فتذكرت السيدة صوله وهي تتقدم الطريق تتوكأ على عصاها السوداء، الآن تجلى لي بوضوح مفهومها عن إيقاع الحياة، فالعالم متوازن، أنه تتابع متبادل من جبال ووديان حيث الأرض الثقيلة تولد جبل ليملأ فراغ الوادي المستمر ويجعل سطح الأرض مستويًا من دون أية موانع.

" كذلك-فكرت-جحيم العزلة في تلك الشهور الثلاثة التي مضت لكن ستملأها رفقة جين في الوقت المناسب." كل ما في العالم هو أمر نسبي وتعويض وتوازن. حتى الآثام والألم تدرك ذلك التوالي من النسبة والتعويض والتوازن،" وبعد كل شيء هو السبب النهائي لوجود الكون، لقد خلقه الخالق هكذا فهو يعلم أن البشر جميعهم سيفنون."

لما بلغنا أعالي البحار أخذت أتأمل طول آثار مركب آنتراثيتا." كلما كان أطول أكون أقرب إلى قدري." وأستمتع مسرورًا كلما اقتربنا مترا واحدًا أو تمر دقيقة، في رسائل جين الأخيرة كانت تستعجلني، لربما يحالفنا الحظ لنقضي أيام عيد الميلاد سوية في بروبيدنثيا، وأنا أمضي قدما صوب هذا الواقع الممكن، كنت أرى نفسي أنني أهرول برفقتها في الشوارع المثلجة محملين بالعلب ونتوقف أمام واجهة محل مزينة، فالعالم برمته كان جميلًا في أيام عيد الميلاد، لو أن الناس كانوا مبتهجين دوما كما في أيام عيد الميلاد لأمسى العالم مختلفًا، ليس هناك

حاجة لتصحيحه لأنه لن يكون خربا كما الآن، كما تظن والدة كرستيان "الغياب" في عيد الميلاد نتذكر الغائبين والحاضرين يتذكرون الأموات، حل جيد، لن يكون العالم تافها من دون عيد الميلاد إلا لقليل البصيرة أو غلفت ذاكرته بالفلين؟ بينما كنت أفكر، كان آنتراثيتا يقترب من بروبيدنثيا، وهكذا يومًا تلو الآخر، ذات ليلة اندهشت من الربان يعطس بجانبي كان منهمكًا حتى إن كلماته جعلتني في حيرة من أمري:
-أية مشاعر تخالجك وانت مشغول بأول أبن؟
كل الطاقم كان يعرف بالخبر، لم أقو على كتمانه، لم يكن الأمر شيئا أعجوبة-أو شيئا يهشم مدار الأشياء الطبيعية؟
لم أجب الربان، وهو لم يبد اهتمامًا لإجابتي، أطلق ضحكة ثم أضاف:
-لا تنس ما أقوله لك، الأبن الأول يربك الأب كما الأم.
ضحكت من رأيه الساذج وفلسفته البدائية، لكنني صمت لأنني أعلم أن التحاور مع بنيتو سيتحول إلى حديث رتيب يصيب بدوار لتدخله بالطرف الآخر.
-خذ بنظر الاعتبار تجربتي....
نظرت إليه مستهزئًا، من أين جاء هذا الرجل بالتجربة؟
هو واصل وكأنه قرأ أفكاري:
-أنت لا تجهل أن هناك صنفين من التجارب: الشخصية وتجربة الآخر، ومن حسن التصرف أن نستفيد من تجارب الآخرين لأننا لو انتظرنا حتى نستفيد من تجربتنا سيكون الوقت قد فات.
رنت كلماته كما عبارة السيد ليسمس، فاستغربت منه.
ما النقاط المشتركة التي توجد في روحين مزاجهما مختلف جدا؟ أي حساسية كائنة في المنطقة التي تخفي المشاعر، تهتز متساوية داخل أحد كما الآخر؟ ما الذي يجعل هذه الحساسية تهتز داخل كل شخص؟ لماذا دوافع العمل عند السيد ليسمس وبنيتو مختلفة من دون ريب. "ربما-قلت في سري-أعماق الناس متماثلة لكن رد فعلهم على المهماز الخارجي مختلف الوسيلة."

واصل الربان كلامه لفترة طويلة حول تجربة الأبناء، فيغلق الحلقة المفرغة ويجعلها أكثر ضيقا.
"لأن أبي كان يقول لي..."العطار في قريتي..." "تعرفت على امرأة..." كنت استمع إليه وأسايره لأنني أعرف أن أنتراثيتا مازال يواصل طريقه. وأنا كنت بحاجة لأن أشرد واشغل رأسي بمشاكل الآخرين، ولتبدو لي تلك الرحلة قصيرة.
واصل المركب طريقه... بعد الظهيرة لم يعد بوسعي أن أسيطر على أعصابي، احتجت لقارب وهواء ونشاط، كلما اقتربنا من بروبيدنثيا، توقعت أن جين لن تكون كما تركتها، وقد حدث تغيير على شكلها ودواخلها. تمنيت لو أنني أجعل المرحلة الأخيرة من الطريق بنهاية آنتراثيتا، تغرق في البحر، لشعرت بإحساس الماء المثلج في كل جسدي، لم أكن أتقبل الحوار، كنت أتطلع فقط لرؤية جين، واقف أمامها لأغرق في عناق ودي بلا نهاية، كل ما عداه كان بلا معنى ولا وضوح بل ثانوي، لما رقدت في تلك الليلة بددت توقعاتي فغفوت على الفور، لكن بإيقاع صامت وصادق، كان ذلك الحلم خلاصة لحياتي الماضية.
حلمت بأبيلا وبالسيد ليسمس وبالفريدو... لكنه كان مجرد ذكرى بعثت كل حياتي الماضية وأحيتها، خطرت الأشياء على خيالي برقة وبلا تبرم. تذكرت بيت أستاذي بقطبيه الحنونين: فاني وحوض الأسماك بسمكتيه الحمراوين اللون، وصداقتي العميقة مع الفريدو، أيامنا الهادئة والزاخرة في أثناء عطلة الصيف، ساحة كواترو بوستس... لابرونا، وتذكرت نزهات يوم الأحد لما ابتدأت اشعر بمسؤولية الحياة والحاجة لأن نبدي رأيا حول طريقة وجودنا وإحساسنا، تذكرت ألعابنا الخطيرة فوق حاجز جسر نهر آداخا، جاذبية مصنع الطحين الرائع... كل هذا استعرضه خيالي بعذوبة، كل هذا مرّ على خاطري، سيدات الركاديو اللواتي "يسرقن من المدينة ما بقي فيها من نقاء..." السيدة غريغوريا واستفانيا ومارتينا... مارتينا الصغيرة التي تجلس إلى البيانو لتمارس هوايتها المبكرة والكوة وتماثيلها، والمحاربون الأربعة: أثنان منتصران وآخران مهزومان... وبعدها الهزة النفسية العميقة حيث أطفأ الموت

قناديل حماسنا الناشئ، فكان رحيل الفريدو بلا عودة، الألم والانفصال، وثقل جسده الراحل الذي شكل عبئا على حياتي....
و المدرسة البحرية وبرشلونة بحيويتها المحمومة وشجاري مع "الفتيان" ومركب سان فلوخنثيو والجزيرة وأنتراثيتا... ثم مارتينا مرة أخرى، مارتينا المخدوعة والنادمة و... جين، جين التي كانت كحجارة لمحك أرادتي. صراع موجز ثم اندفاع... ثم زواجي. الفراق، حيث جين تنتظر بفارغ الصبر عودتي على رصيف بروبيدنثيا.... كأنما الحلم تطابق مع واقعي لما استيقظت قافزًا بعنف، جلست على السرير، تسلل الضياء من النافذة فوق رأسي، مسحت جبهتي بيدي، حينها انتبهت أنه خلال حلمي لم يكن هناك أدنى تلميح للعنف، وقفت. "انه أمر غريب-قلت في سري- اليوم يجب أن افرح ليس كأي يوم، مع ذلك فأنا ليس كذلك. لماذا حلمت بحلم غريب؟ اغتسلت على عجل ومضيت نحو غرفة القيادة، كاد اليوم أن ينصرم وسواحل بروبيدنثيا تراءت لي عن قرب، تذكرت حلمي: "كل شيء بدا غريبًا-عدت لأفكر-لما يستحضر الشخص أحداث الماضي بكل تفاصيلها ذلك لأن تغيرا هائلًا يهدد وجوده".
كنت أشعر دوما بدغدغة في عمودي الفقري. "أنها حالة عصبية" فهدأت لحظة، بغتة انتبهت أنني أفتقد الصبر لأتأمل كيف نجدف مترا تلو الآخر لنبلغ الساحل، عدت من جديد إلى مقصورتي لأتسلى بقراءة كتاب، لكن فكري كان شاردًا،" لابد أن جين تنتظرني على الرصيف، بالرغْم أنها السادسة صباحًا... أغلقت الكتاب وحاولت أن أستذكر خيالها كما تركتها يوم وداعنا: رشيقة ومرهفة تودعني بإلحاح بيدها، الآن تأتي لانتظاري مع ابنها تحمله في أحشائها، استدرت بناظري نحو صورتها، *مع حبي إلى الأبد، إلى الأبد....*
مرة أخرى أثقلتني هذه الكلمة المشحونة ثقلا "أفضل الأشياء الطبيعية، هذه الكلمة التي أريد تجنبها فهي دوما تورد على خاطري فكرة الموت." جلست ثم قمت بجولة في مقصورتي، محبطًا كسجين في سجنه، لكنني عاجلا ما تعبت من هذا القلق، استلقيت على فراشي وفكرت ببيتنا، البيت الذي ينتظرنا على الجانب الآخر من البحر.

"فلي حاولي أن تحفظيه جاهزًا لاستقبال السيدة"، " كل شيء سيكون منتظمًا يا سيدي"، أجابتني.
سمعت بشكل غير متوقع رنين الصفارة فنهضت قافزًا:
-اللعنة، هذا يعني أننا نوشك أن ندخل الميناء!
فتحت باب غرفة القيادة وصعدت إلى أول باب ارضي للسفينة، مقدمة آنتراثيتا تتجه صوب ميناء بروبيدنثيا، هبطت طائرًا إلى الجسر، أضطرب ناظري لرؤية رصيف الميناء، حركة المراكب الصغيرة من مسافات قليلة، وصياح قاطراتها الجميل، وصرير عمل الرافعات وهي تقوم بتفريغ حمولات المراكب.... وبعيدًا كان مكان آنتراثيتا ينتظرها اعزل ليستقر فيه. "في خضم هذه الفوضى سأرى جين لكن كيف يمكنني أن أجدها؟ اقتربت بيوت بروبيدنثيا أكثر، بدا منظر تقاطع السيارات في الساحة المقابلة للجسر، كانت السماء مثقلة بمسحة معتمة كأن الثلج مازال... بغتة رأيت سيارتها تعبر الساحة المزدحمة، تأججت مشاعري فغرزت أظافري في سياج الجسر كيلا أسقط، هل كل ذلك ممكنًا؟ لوحت لي جين من نافذة سيارتها المفتوحة لتحيتي، العامل قال لي شيء ما في تلك اللحظة لم افهمه، تابعت تفاصيل السيارة كلها، في تلك اللحظة ازدحم سير السيارات، فأنشقت عنهم وتوجهت إلى جانب الرصيف، ظلت جين تواصل التلويح لي بيدها من خارج النافذة، أعطتني انطباعًا أن كل شيء سواء كان في داخلي أو في خارجها ضاع في ظل طائرة بعيدة، وهي فقط، بقوامها كانت ماثلة أمامي بثبات، بملامحها الأساسية الراسخة.
بغتة تغير كل شيء في لحظة، أحد العمال الذي يدفع عربة محملة سد على جين الطريق، سَمع صوت مكبحها وأنتشر في الهواء دخانا ساخنا محرقًا، انسحبت السيارة من دون أن يستطع أحد أن يمنع سقوطها لتطفو فوق مياه رصيف الميناء الوسخة، ما زلت أراها للحظة فوق السطح لكنها توارت مباشرة واختفت بين سلسلة من الدوائر المتحدة التي يكبر حجمها في كل مرة. لما اخرجوا جثتها بعد ساعة كانت قد جمدت ولما

رأيت جسدها للمرة الأخيرة شعرت أن في داخل جسدها النحيل كان يتحرك ابننا كي يبتدئ....

الفصل الثامن عشر

بمرور السنوات تولدت لدي قناعة أن هذا التوالي من الأحداث المفجعة هو سمة حياتي، أذا لم يخف عنا الألم على الأقل نتهيأ لتحمله بصمت لما تقع الأحداث المرعبة، رحيل جين وقبلها الفريدو، استرجعته ذاكرتي للحظة حية، والحدث المؤسف لم يكن جديدًا في مجرى تاريخ حياتي.
لا أتذكر الأيام الأولى التي تلت الحدث المرعب لزواجي، كأن أحدهم أحدث ثقبا في جمجمة راسي ومن ثقوبه تلاشت أسمى سمات روحي، عشت حياة قاتمة كالحيوان هائمًا في آفاق ألم متواصلًا مع فجيعة ثقيلة لسوء حظي، وحيدا أحمل في ثنايا نفسي وعي تلك الأيام الأولى بأصدائها الحية وحزنها وعجلتها فوق حجارة الطريق وخشبة الصاري الثقيلة لما تنغمس في المياه الدافئة للرصيف، إضافة إلى الدوائر اللامعة المتوسعة تمامًا في المكان الذي اختفت فيه جين وهي تحمل أبننا.
بمرور الوقت أكتسب حزني سمات قوية وثباتًا وسعة أفق وتناسبا، أستطيع الآن أن أقيس غضبي وأتحمله، وأن أقيم سعة مصيبتي في بانوراما موحشة لماضي البائس، وبينت لي أيضا أن الألم يتطلب تحديد الأفق لتقيم أبعاده الصارمة، كل شيء فكرت أن كل الأشياء تحتاج منظورًا زمنيًا لاحتواء الأبعاد، كالأفعال الخارجة عن إرادتنا والتشنجات التي تقتحمنا في دواخلنا، الآن، وفي النهاية يجب أن أذهب لألخص وأستنتج، يجب أن أستقرأ مجسات أحاسيسي للعالم المتجمد الذي يحيط بي، يجب أن أرتب حياتي من جديد أقبض عليها من الحدود المناسبة ومن قشرتها الباردة القديمة، روحي بحاجة إلى عملية توليف مشابه للحلزون الذي يتقوقع في قوقعته.
عدت أستمتع مجددًا بالعزلة وأن أشعر أنني وحيد على سطح الأرض، محايدًا بلا روابط عاطفية، بلا نقطة داعمة صلبة ومتينة، تفاقمت عندي القناعة أن الحطام، مس حتى أعماقي وأن وجودي يتهالك في دائرة بوصلتها تشير إلى مركز تمركز في قلبي، وأنني لم أعد أملك إلا نفسي،

وتناقضي مع العالم كليا، وحتميًا، من دون أن يقوى أحد أو شيء ما أن يخفف من إهمال عزلتي المغلقة.
ذات ليلة، وأنا في رحلة عودتي إلى إسبانيا تذكرت أبيلا، أبيلا لوحدها، رائعة وشاحبة ومنبسطة تحت نور القمر، تذكرتها بشوق غير عادي، ورغبة وحشية لأن أتحد معها، وأن أترك روحي العاصفة تستريح تحت ظلها وترتوي من حنينها وقدمها، كان الشعور الوحيد القوي الذي تأجج في دواخلي، والذي راودني بأقصى طاقته منذ حاث جين المأساوي، اقتنعت حينها أن الأرواح أيضا تحتاج لجو مناسب لكي تحيا، فأبيلا بقيت لوحدها ما امتلكه في هذا العالم، بين حجارتها القديمة وأسوارها المثلجة تستخرج روحي المحبطة حافزًا كافيًا لكي أستجمع قواي.
لم يخطر على بالي أن انتحر في تلك الأيام، بعيدًا عما كنت أخشاه، أدركت أن المحن تشحذ الأيمان والأمل في الحياة الآخرة التي تعوضنا انتكاستنا التي عانينا منها في الدنيا، وفتحت هذه المرحلة من الزهد صدري لتقديم التنازل، كانت فرصة لأن أتفحص في دواخلي بدقة سرعة زوال الانتقال، وموضوعية الحياة بنغمتها العرضية الثانوية، اقتنعت بوضوح أن الحياة مسابقة للمزايا يُتنازع عليها، فترة تجريبية لنربح أو نخسر حياة أفضل، تيقنت أن ما فوقي معوجًا وأن الخالق لا يسيئ للإنسان فوق طاقة تحمله. واقتنعت من أي وقت بأن المقدرة على الانعتاق هي صفة عامة عند كل الأموات، وأن لا أحد بل حتى الأكثر حرمانا روحيًا هم معزولون عنها، وأنا نفسي الجريح المعاقب، ما زلت أملك دافعا لأن أتحفز بالرغْم كل النكبات والمصائب، فالإنسان الذي يتنازل طوعيًا عن الحياة هو ببساطة أناني بلا بصيرة، لقد كون محورا سخيفًا ورأيا عن نشاطه الخاص حول الكون، بت أؤمن ببطء أن الرجل الشديد القنوط في توازنه الجسدي، يكون أشد روحيًا لتجربة الانفصال، وبعودته إلى الأمور المحبطة أن قدرنا بأن الله هو مدبر ذلك الكدر الإنساني الغامض.

لما أتجهنا صوب سانتدير تفاقم إحساسي بالألم والإهمال، وبالتالي تصاعد شوقي الجامح للعودة إلى ابيلا لأشعر بتضاريسها وتناسقها تحت قدمي، كان اشتياقي لها جامحًا ، هدأت فقط لما اتخذت قراري أن أذهب مجددًا في أقرب وقت ممكن، بجذورها الممتدة في أعماق الزمن، ساورتني رغبة بملامسة حجارتها، ولأرتشف من تاريخها، لأنغمس مرة أخرى في زهد مشتت صامت، ظننت في أعماقي أن ما أتطلع إليه هو الهروب من نفسي، لأمحو من ذاكرتي آخر فقرة من تاريخي، لأتصل بألمي الأول كمتراس أخير لحياتي المنهارة السمجة.
في اليوم نفسه من وصولنا إلى سانتدير أخذت القطار إلى أبيلا، زيارتي الوجيزة لبيتي في سانتدير أثارت حفيظتي، فكل ركن يذكرني بالتجربة القاسية والألم الشديد ينبع من الأشياء فيرفرف ذهنيا فوق ظل الغائب، ذلك البيت الكائن وسط الطبيعة كانت خاتمته ساخطة لتجربة قاسية فنكران الجميل يبني حوافزنا على أشياء مادية، وأن نفحة الموت قاتلة ومؤلمة بلا حدود أكثر من التنسيق ما بين حضور المتوفى مع الأشياء والمناظر الطبيعية التي تحيط به، كأن الروح تحمل وشم نظرة فيلي المخيفة ، المرأة الطيبة ولم تكن تستطيع أن تصدق القصة التي نبست بها شفتي."تبدو لي أكذوبة، أو خرافة لطيفة أو سوء طالع مرعب" قالت ذلك.
لماذا غمي المتفاقم يبرز لي هذه الحقيقة المرعبة كطرفة تدمي؟ تحرك القطار مسرعًا بين أضواء بعيدة، كانت معي عجوز هرمة برفقة حفيدتها الصغيرة، نامت الطفلة على كتف العجوز، ولم تكن تستطع أن تسند نفسها بمفردها." وهذه طرفة أخرى من الحياة-قلت في سري- نضارة تستند إلى الهشيم، والقوة تستند إلى الهلاك ، لماذا يصر العالم أن يسير على العكس؟" مرة أخرى عصف بي الشك: لربما أنا من يصر أن يرى العالم يسير بالمقلوب من خلال زاوية مقلوبة؟ تركت سانتدير خلفي، وأنتراثيتا.... وينابيع حياتي العادية. لكن ما الذي منحني أياه كل ذلك؟ ألحت علي فكرة لو أن مكبح سيارة جين توقف قبل أن يغرق في

مياه الميناء، ومن دون أن أدري وضعت يدي على مسمعي لأغطيهما بكل قوتي.
لكن صرير المحرك ما فتئ يرن في داخلي بإصرار حتى كاد يخنقني، بغتة لاحظت أن العجوز تنظر إلي بارتياب وبفضول مريض، ويطل من عينيها المطفأتين فزع، لكنني الفت تعبير نظراتها، كانت بلا شك تفكر أنني مجنون، كما الكثير، أو كمن تعلم الجنون، سحبت يدي من فوق أذني وابتسمت لها، تصاعدت وتيرة حيرتها وخفضت ناظريها وهي تعصر بيدها اليابسة أصابع الطفلة الوردية التي تغفو فوقها، نظرت إلى يدي تائهًا، لما رفعت راحة يدي مرة أخرى أمعنت النظر في أربع ندبات صغيرة شوهت يدي. أغلقت راحة يدي، كان هذا دليلًا ملموسًا على بؤسي، بصمة الماضي القريب المشاكس لي، كيف يمكن لأظافري التي تغطي لحم يدي تجعل الدم يتدفق منها؟ لا أحد يتذكر ذلك، بالمقابل أتذكر الإحساس المفزع لما تأملت جثة جين الهامدة، والتي تغيرت قليلًا بسبب حملها الأبن، وأتذكر أيضا كيف قفزت كالغزال فوقها لانتزع خاتمها الذي يذكرني بأعذب الوعود "الزواج جسر يقود للسماء." فكرت جديا بهذا القول؟ أو أنه مجرد كلام كما يفعل الكثير من الناس الذين يدخنون القش؟
"يبدو أحيانا أن المفاهيم نفسها التي تمليها علينا الأحداث تكون هدفا لمخاوفنا" فكرت بذلك من جديد حشرجة اهتزاز القطار وعينا العجوز المتعبتان تحدقان بي، طلب منا المفتش بطاقاتنا... إلى أبيلا؟ أين تقع أبيلا هل تأخذ وقتا طويلًا حتى تظهر؟ أخرجت من سترتي الوثاق (الخاتم)الذي ربطني بجبن لمدة أربعة شهور، أدخلته في أصبعي الصغير لكنه لم يكن مناسبًا له، لما لامست سطحه البارد كان كما الموت، لما ترجلت في أبيلا وتأملت ملامحها مجتمعة تحت نور البدر الباهت لشهر شباط، شعرت برطوبة ساخنة في زوايا جسدي، لقد كسا الثلج المدينة لكي تستقبلني بأبهى حلتها، تملكتني عاطفة فريدة لما جلت بناظري في المشهد الأبيض.

إلى يميني السور الصلب المتجهم، اشتقت إلى طيور الربيع المهاجرة وتغريدها وفي المكان نفسه طارت الغربان السود من بين فتحات السور، ترفرف بخفة وهدوء حزينة كما قمم الثلج الكبيرة الحزينة.
تذكرت جولاتنا القديمة في تلك الأماكن نفسها، وغزوات المدينة المزعومة.... ها أنا أقف أمام نهر آداخا، آداخا الرائع، بالرغْم أنه يغفو تحت رصيف فراش ثلجي، ضفاف النهر الصيفي تنفع الآن كفراش جليدي، مررت قرب المصنع من دون أن أتوقف، ومن دون أن التفت له... لما عبرت الجسر شعرت بخواء روحي، راودتني فقط التفاصيل الدقيقة والتافهة، نقر أقدامي لما المس طراوة الثلج اللينة، واهتزاز صداه الذي لا يتوقف في الجانب الآخر من الجسر، أحدهم في الأقاصي ينادي بجودة صنع المشروبات، هدير محرك لشاحنة متضعضعة تقف أمام محل بيع الحليب، بابان بعيدان، سرب من العصافير يحلق ليبحث عن حماية في زريبة خنازير ممتلئة بالروث....
واصلت مسيري تلقائيًا، من دون أن أحدد مساري، لما ابتدأت انحدر نحو ساحة كواترو بوستس ألفيت نفسي أسرع جادا، لهاث صدري كان يرن مضطربًا في الجو الساكن، شعرت بفرحة لما فكرت أن مقاومة جسدي أخذت تنضب، وأن قوتي الفيزيائية تتلاشى من دون علاج... بعدها، ومن برج المراقبة تخيلت كيف كانت المدينة المسورة في العصور السابقة، ينبعث منها بخار هائج للكائنات والأشياء هادئة، سكون جامد ايحائي، تكدست الحجارة بشكل هندسي رقيق وجميل، لتمنح براعة وصلابة لقطعة من تاريخ ولى أسفًا، يواصل برج الكاتدرائية هيمنته من فوق موسن روبين، وقصر المارثا و بولنتينوس.... كان كل شيئ متناسق، مع ذلك بقيت هذه الأشكال الهندسية نقية بزواياها المدورة بعد أن خففها الثلج، تناهى إلي ضجيج أصداء أجراس آلاف الأديرة، تنتشر ببساطة، أنها بشائر النهار الجديد، ورد على خاطري بغتة الصليب الصغير في ساحة كوترو بوستس ومجراه في حياتي، فالصورة حين تأملتها من هناك بعثت في داخلي ذكريات موجزة لماض لن يعود، في ساحة كوترو بوستس بدأت ذاكرتي

تتحفز وتعمل بالرغْم أنها مهزومة الآن وتقهرها مأساتها، فتبحث من جديد عن صليب كواترو بوستس لكي تخرج منه لعبة حية لتحيي تاريخًا بطيء المجرى، لا ادري كيف طرأت جين على بالي ومرة أخرى ربطت ما بينها وبين الطبيعة المحيطة بي، أنه تبادل وتأثير يندمجان بشكل مريح في بوتقة واحدة في عالم اشتياقي لذكرياتي، الآن سرت نحو المقبرة، لقد فصلت تمامًا ما بين جين والفريدو، تملكني أحساس أن لكليهما تأثيرًا واحدًا في أعماقي، بدا لي أن حياتي ارتضت بتكرير رقم فردي، أفراد يولدون باستعداد واضح للتناسق لامحالة وأي تعديل مبالغ به سيكون مربكًا، سرت ببطيء أجتر رواسب ذكرياتي، لما جرحت مسمعي إيقاع ضربات أول الحجارين أصابتني لحظة ذهول مميزة، اليوم عمال نحت الحجارة هم من دون شك أبناء من سبقهم، لكنهم يحفظون بعملهم إيقاعًا نقيا متكاملًا، نغمات مألوفة ترتج و ضربات رتيبة، تقدمت بالدرب الخالي، أطبع فوق الثلج النقي آثار خطواتي المتسخة، كلما سرت يتعالى صوت نقر الحجارين، ضرباتهم المتناوبة للحجارة كأنها شيئ من سمفونية مبهمة."سيكون من الصعب على هؤلاء الرجال-فكرت-أن يقرنوا حياتهم بأمر الموت واستنفاد قوتهم وعزيمة عضلاتهم في هذه المهمة الصعبة."

بغتة ألفيت نفسي أمام سياج المقبرة المغلق، مازالت الأشجار المحيطة بها تحتفظ بتوتر وجمود الشتاء المثلج. لم أر أحدا من حولي، كتبت فوق أحد أبواب البيوت القديمة لافتة تحمل عنوان: "البواب"، طرقت الباب بأصابعي وقد انتابني شعور من الخوف، أنه لأمر مهيب أن تقف وجها لوجه مع صاحب الأموات. تخيلته هزيل القامة ومخمورًا يهم لأن يتناسى جيرانه المتحجرين، مضى بعض الوقت من دون أن يجيب أحد على طرقات الباب، في النهاية سمعت صوتا وضجيج أقفال تفتح بتمهل.

-ماذا تريد حضرتك؟

كانت نبرة صوتها جافة إضافة لذلك كان مظهر محدثتي ذاويًا، احترمت لامبالاتها لما تثاءبت بغتة وصمتت لفترة، ثم دعكت عينيها بيديها بتلقائية.
-أريد أن أدخل المقبرة...
مددت لها يدي لامسك بيدها محاولًا أن أتوسل إليها.
-لا عليك ...-أجابت متأثرة وسحبت يدها بوقار-خلال نصف ساعة سأفتحها للجميع.
لم أستطع أن الح عليها لأنها أغلقت الباب بغتة بوجهي، تنزهت بعدها تحت أغصان أشجار الاكاسيا الجرداء عند المدخل، تلك الاكاسيا التي كانت شاهدا ذات يوم بعيد على تطلعات الفريدو الكئيبة حينما ألمي كان مجرد مشاعر... فجأة رأيت المرأة تخرج من الدار وتفتح الباب من دون أن تخاطبني بكلمة، أظن أن الرحمة التي في داخلها دفعتها بالغريزة جراء تأثرها بحالة مماثلة لشخص موجود في المقبرة.
لما اجتزت الباب شكرتها بإيماءة من رأسي، أظن أنها ذلك النوع من الناس الذين بطريقة أو أخرى يواجهون الحياة بوجه عبوس ونغمة مزعجة لكن صدرهم يضم قلبا حنونا. سرت متأملًا بين صفين من القبور فشعرت بطمأنينة وتملكني إحساس بالأمان لا نهاية له، كأنني تركت على الباب حملا من المتاعب والأحزان.
"مكاني هناك-قلت لنفسي-بين الأحياء والأموات أعمل كالوسيط."
شعرت بالدم يرتجف في عروقي لما اقتربت من قبر الفريدو، لقد غطى الثلج شاهد القبر لكن اسمينا الفريدو-بيدرو التمعن فوق لحاء شجرة الصنوبر، قفزت إليها ولمستها بيدي متشوقًا لأن المس نسغها المتدفق، مكثت على هذه الحالة برهة مستغرقًا في التفكير، استرجعت ذاكرتي الأيام الأولى من حياتي ومذاق أول صداقة لي، بعدها ومن دون وعي التقطت من جيبي خاتم جين لأدوره في اصبعي ثم دنوت من قبر

صديقي وبسبب لوح القبر أدخلت الخاتم أو تركته ليسقط، اعتراني رد فعل غريب لما شعرت برنين الخاتم يصطدم ببقايا القاع، الآن أمست عواطفي مقيدة ومكبلة والتياران اللذان يؤججان روحي بلغا ذروة لقاءهما. بعد أن غادرت المقبرة بساعة انتابني شعور من السكينة والاسترخاء، كأنني وجدت السبب الأسمى لبقائي في العالم، لم أعد وحيدا، فخلفي تركت مأمنًا جيدا لعواطفي، بعدها سيأتي غد مشرق وشفاف، وسور أبيلا سيمتد مسننا رزينا على امتداد السماء الزرقاء.

-لا أدري لم طرأ على بالي في تلك اللحظة والدة الفريدو و"الرجل".

صادف ذلك لما عثرت بكتلة ثلجية، لما نظرت صوب الأرض وجدت أن الثلج يتحول إلى طين حين يلامس القدم....

شكل ابيلا من بعيد جعلني أبتسم، من الجانب الآخر من السور مازالت مارتينا والسيدة غرغوريا والسيد ليسمس وأضافه لذلك الله مازال معي.

ظلال السرو وارفة

روايته التي كتبها في عقد الاربعينيات وصنفت ضمن أفضل مائة عمل أدبي أسباني جعلت منه روائيا مميزا، ميغل دليبس هو أبن قشتالة* الذي حاول أن يصور في روايته كل الاجواء التقليدية لذلك السهل الممتد في قلب شبه جزيرة ايبريا- الإقليم نفسه الذي اتخذه سرفانتس مسرحا لبطله دون كيشوت- ، ولد ونشأ في مدينة)بلد الوليد-2010-1920(، ولما رحل عنها بقيت ذاكرته وفية لها لاسيما في استخدامه للتعابير القشتالية وشجبه للعادات البرجوازية والتجاوزات الاجتماعية وطفولته اليتيمة التي عاشها وتطرق إلى جميع ألوان الحياة فيها بدون أن يفقد اتصاله بالعالم المتمدن.

دار أدب فن للثقافة والنشر 2018